الثقافة الجديدة

فكر علمي - ثقافة تقدمية
تأسست عام 1953

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها

العدد: 386
كانون الثاني: 2017

يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:
alkhiatibrahim@gmail.com

[illegible] 2000 :[illegible]

[illegible] (100) [illegible] (50) [illegible]

[illegible]:

[illegible]:

[illegible]

[illegible]

11153 :[illegible]

MBIVIQBA :[illegible]

[illegible]:

Althakafa Aljadida Magazine

Mansour Bank for Investment- Baghdad

Account No:30721

SWIFT CODE: MBIVIQBA

[illegible]:

thakafajadida@hotmail.com

[illegible]:

thakafajadida4u@gmail.com

[illegible]:

http://www.althakafaaljadeda.com

[illegible] - [illegible].

[illegible].

781 :[illegible]

1288 :[illegible]

[illegible]:

* [illegible] ... [illegible].

* [illegible] 4000 [illegible].

* [illegible].

* [illegible] 50 [illegible].

* [illegible].

* [illegible].

* [illegible].

* [illegible].

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان

محتويات العدد

5- كلمة العدد

مقالات

8- الحركات الدينية بين الخطاب الأصولي والنهج البراغماتي ..... هاشم نعمة
18- ضوء على القوانين الدولية وأسلحة الفتك والدمار الحديثة ..... كاظم المقدادي
29- السياسة الخارجية والقوة الناعمة الأمريكية ..... علي كريم ناصر الهلالي
38- ملاحظات حول السياسة الاستثمارية في القطاعات الاقتصادية في العراق بعد 2003 ..... صباح قدوري
50- التصحر يتمدد في العراق بصمت ..... عادل عبد الزهرة شبيب
61- نشوء آلية حق المرأة في الانتخاب وفق الدساتير العراقية ..... جاسم هداد

نصوص قديمة

76- لنعد الى ماركس ..... إلين مايكنس وود

نصوص مترجمة

84- (من أرشيف الكومنترن) رسالة رقم8 ..... ترجمة: عبدالله حبة

حوارات

90- حوار مع الرفيق رائد فهمي، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي

أدب وفـــــن

كلمة "أدب وفن"

112- الضمير الحيّ ..... جاسم العايف

في الحدث الادبي والفني:

114- (نداء إلى المثقفين العراقيين من المؤتمر الوطني العاشرللحزب الشيوعي العراقي)

115- الزنابقُ لن تموت... يا زُهدي

دراسات نقدية

117- الصورة المؤجلة من الذاكرة ..... جاسم عاصي

127- ثنائية العلاقة بين السينما والمسرح وأهم تشكلاتهما ..... جواد وادي

137- شمران الياسري ..تجربة صحفية متفردة ..... باقر الكرباسي

شعر

140- لكن.. ليس للأرضية فم ..... شعر: لينوس غوردفَلت

قصص

146- أفراح الكرادة ..... نعيمة مجيد

149- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية ..... اعداد: جودت جالي

من أدب الرحلات

168- أوراق أوكرانية ..... ياسين طه حافظ

لوحتا غلافي العدد: للفنان سعد الطائي

كلمة العدد

نحو اصطفاف مدني - ديمقراطي واسع عابر للمحاصصات الطائفية - الإثنية

تواجه البلاد أزمة بنيوية عميقة سببها الأرأس النظام المحاصصي، تطول مختلف اصعدة التشكيلة التي بدأت بالتبلور بعد 9 /4 /2003. وقد بيّنت التجربة عجز قوى هذا النظام عن تأمين حلول جذرية للمشاكل والتحديات الوطنية والاجتماعية – الاقتصادية والثقافية التي تواجه البلاد. وتواجه البلاد في الظروف الراهنة سؤالا ذا شقين:

- **هل المطلوب بناء ديمقراطية معطوبة من خلال اعادة هيكلة الحقل السياسي** ولكن من دون اجراء تغييرات جذرية فيه؟
- **أم بناء ديمقراطية حقيقية** تشكل منطلقا **لبناء دولة ديمقراطية عصرية** ونظام اتحادي؟

التجربة الملموسة لثلاث عشرة سنة ونيّف، تشير الى ضرورة **بناء ديمقراطية حقيقية** تشكل نفيا للديمقراطية المعطوبة السائدة، ومنطلقا **لبناء دولة ديمقراطية عصرية** ونظام اتحادي. ويعني ذلك ان تجاوز هذه الازمة ينبغي أن يرتبط ببلورة بديل عابر لهذا النظام. غير أن تحقيق ذلك مرتبط بعوامل عديدة من بينها بل وأهمها هو تبلور **الكتلة التاريخية** القادرة على إنجاز هذه المهمة، علماً أن الواقع يشير الى ان هذه الكتلة ما زالت تعاني من الفرقة والتشتت لأسباب عديدة لا مجال للخوض فيها هنا.

ومن هنا فإن المطلوب في المرحلة الراهنة هو بناء وحدة القوى الاجتماعية والسياسية والثقافية، ذات المصلحة الحقيقية في بلورة **المشروع الوطني – المدني – الديمقراطي**، وفي النضال لتحويله إلى واقع ملموس وليس مجرد شعار. فهو المشروع الأقدر على تحقيق المهام الوطنية والديمقراطية العامة، وتحقيق تنمية اقتصادية مستدامة، وتوفير العدالة الاجتماعية. كما أنه يوفر افضل الضمانات للتصرف السليم بالموارد النفطية، وتوظيفها لبناء اقتصاد وطني متنوع وكفوء.

ومن بين القوى المعنية بتحقيق هذا المشروع هي **قوى التيار الديمقراطي والمدني والقوى اليسارية**، على تنوع مشاربها ومرجعياتها الفكرية والسياسية العملية، وكل الراغبين حقا في تفكيك النظام المحاصصي.

الحاجة ملحة الى بديل مدني – وطني – ديمقراطي وقطيعة ثقافية

بعيدا عن أي صخب إيديولوجي، واستنادا الى التجربة الملموسة، فإن المرء لا يجازف حين يقول انه ليس هناك في العراق، في لحظة تطوره الراهن الصاخب والمضطرب، من بديل أفضل من **البديل المدني – الوطني – الديمقراطي العابر للطوائف والهويات الفرعية** ومتاريسها المتقابلة فهو وحده القادر على إعادة بناء الدولة على أسس جديدة، لتكون دولة مواطنين احرار، وليس رعايا أسرى لسطوة دولة الطوائف والهويات الفرعية وجبروتها، فليس هناك بديل عن تقييد التسييس المنفلت للهويات الفرعية بهدف توظيفها في صراع المتحاصصين، إلا دولة مدنية ديمقراطية وعراق حر وسيد نفسه.

وبالمقابل تحتاج البلاد اليوم الى قطيعة ثقافية أيضا تشكل نفيا لـ"ثقافة" الاستبداد والنزعات الماضوية المناهضة للحداثة والتنوير ورفض الآخر وعدم احترام التنوع، ثقافة يكون عمادها الترويج لبديل ثقافي جديد، يقوم على تعاقد وتعايش ومشاركة حقيقية، ويتسع للتنوع والخصوصيات ويحترمها وان لا تكون قيدا على تطوره الصحيح. وإذا كان تشكّلُ ثقافة سياسية كهذه في عراق اللحظة الراهنة أمراً صعبا فإنها تظل، مع ذلك، رهاناً حقيقياً، لا بد من مواصلة العمل على تحقيقه برغم كل الصعوبات والمخاطر ومناورات النظام المحاصصي، الطائفي – الاثني.

وفي هذا الاطار يتعين الرهان على المثقفين العراقيين وما شهدناه من نشاط لهم خلال الفترة الاخيرة حيث تعاظم دورهم ومواقفهم النبيلة وصرخاتهم الأصيلة، "ضد كل ما يشوه تاريخ شعبنا ولحمته الوطنية وتاريخ الحركة الوطنية والتنويرية، ويسعى إلى تكريس قيم ومفاهيم فات أوانها". ولهذا يمكن التطلع الى عمل مشترك لإقامة مشروع ثقافي وطني، إنساني النزعة، وديمقراطي المحتوى، يكون حاضنة لكل التيارات الداعية الى بلورة هوية وطنية منفتحة متجددة، تحترم التعددية الثقافية والفكرية.

وبالمقابل، فإنه وفي مواجهة استحقاقات هذه المرحلة وتفاقم التناقضات الداخلية وتعقد العملية السياسية واستعصاءاتها المتكررة، يصبح من الضروري تكثيف الفعل السياسي الديمقراطي – الميداني والجماهيري والاحتجاجي– وكافة وسائل النضال السياسي والثقافي التي يتعين أن تشمل وتغطي كافة العناوين المجتمعية والقضايا المطلبية.

إن الرهان الأرأس، في اطار ميزان القوى السائد، هو تطوير وتفعيل جاذبية القطب الذي يضم طيفا واسعا من القوى السياسية الحية، وفي مقدمتها قوى التيار الديمقراطي والمدني، وكل الراغبين في تفكيك النظام المحاصصي، في سبيل تطويق عوائق الانتقال الديمقراطي المعقد واحتواء تحديات المرحلة التاريخية التي تجتازها بلادنا، بما يمكن من دحر "داعش" وأمثالها وشركائها، وبناء عراق ديمقراطي اتحادي مستقل ودولة مدنية ديمقراطية عصرية، تقوم على فكرة المواطنة الحقة، وتشكل نفيا حقيقيا لنظام المحاصصات الطائفية – الاثنية.

وطبيعي الاشارة هنا الى أنه لا يمكن تحقيق الدور في أعلاه من دون إنجاز التقارب المطلوب بين القوى والشخصيات المدنية والديمقراطية وتفعيل دورها بهدف تشكيل الكتلة الوطنية الحاملة لمشروع البديل الوطني الديمقراطي، والعاملة من اجل تغيير موازين القوى لصالح مشروعها. وتأسيسا على ذلك لا بد ان تتوحد جهود كافة الداعين الى قيام دولة المواطنة والعدالة الاجتماعية واحترام حقوق الإنسان، دولة المؤسسات والقانون، والبدء فورا باللقاء والتشاور، وتجاوز حالة الفرقة والتشتت ولملمة الصفوف وصولا الى تحقيق الاصطفاف المدني الديمقراطي الواسع القادر على انجاز الاصلاح والتغيير الجذري.

تغيير ميزان القوى لصالح المعنية بالتغيير الديمقراطي الحقيقي لن يأتي بضربة حظ

ولا شك أن تغيير ميزان القوى لصالح الطبقات الشعبية والقوى المعنية بالتغيير الديمقراطي الحقيقي لا الشكلي لن يأتي بضربة حظ، بل يستوجب تطوير وتنظيم وتوحيد الحركة الاحتجاجية والحراك المجتمعي عموما، وتحصينها ضد محاولات الاحتواء والتهميش وحرفها عن وجهتها المطلوبة، وترقية اشكال التعاون والتنسيق في ما بينها. ويتعين أن يرتكز هذا البناء على نبذ أي هيمنة عليها من أي طرف كان فالساحة تتسع لكل الساعين الى تغيير أسس النظام المحاصصي.

إن التجربة التاريخية تؤكد الاستنتاج القائل بأن وحدة القوى اليسارية والديمقراطية والمدنية عموما تبعث على الدوام الثقة والأمل في نفوس الجماهير الشعبية، وتساعد على تعبئتهم للقيام بأعمال ملموسة وفعالة في آن.

وبالمقابل، يتعين على المستوى الفكري والممارسة السياسية والثقافية، العمل على تعميق التناقضات داخل الجبهة الايديولوجية للقوى المتحاصصة، وإجبارها على الاختيارات الحقيقية للمجتمع من خلال النضالات اليومية بمختلف أشكالها للمساعدة في احداث استقطاب كبير بين قوى التغيير والديمقراطية والحداثة وبين القوى التي تراهن على النزعات والخيارات الماضوية والهويات الفرعية والمحاصصات من أي نوع كان.

مقـــــالات

الحركات الدينية بين الخطاب الأصولي والنهج البراغماتي

د. هاشم نعمة

د.هاشم نعمة أستاذ جامعي وباحث، حصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة مقاربات الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

نمت الحركات الدينية الإسلامية بشقيها السني والشيعي، بشكل ملحوظ، في العالم العربي والإسلامي، في العقود الأخيرة؛ نتيجة العديد من الأسباب التي لا يتسع المجال لتحليلها هنا، وعلى الرغم من تعدد هذه الحركات، إلا أن هناك ما هو مشترك في مرجعيتها الفكرية وفي خطابها السياسي، لكن ما يثير الملاحظة، هو تغير خطابها بحسب الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وقد يبتعد خطابها خصوصا السياسي منه، قليلا أو كثيرا عن مرجعيتها الفكرية، بعد أن يخضع للتبرير والتسويغ. وعلى الرغم من أن هذا الاتجاه لا تنفرد به هذه الحركات، ففي حالات غير قليلة تكون هناك مسافة بين المرجعية الفكرية والخطاب السياسي للأحزاب والحركات العلمانية، أيضا. ويمكن أن يندرج ذلك ضمن ما يوصف بالمهام الاستراتيجية والمهام التكتيكية. لكن تكون المفارقة أكبر وأشد بالنسبة إلى الحركات الدينية لأن مرجعيتها الفكرية تؤمن بالثابت والمطلق وليس بالمتحرك والنسبي.

مقدمات تمهيدية

إذا عُدنا إلى الوراء، تبدو نفعية أحمد بن حنبل (١٦٤– ٢٤١ هـ)، مؤسس التيار المتشدد في الإسلام السني واضحة في موقفه من مخالفيه، فقد سكت عن انتهاكات الخليفة جعفر المتوكل تجاه أهل المذاهب والأديان الأخرى. وأجاز الصلاة خلف الفاجر والفاسق. وحاول تصفية خصومه بهدوء، من مسلمين وغير مسلمين. ومع أنه إذا رأى

مسيحيا أغمض عينيه، إلا أنه كان يقبل التداوي من طبيب مسيحي (١). وسنلاحظ أن هذا النهج النفعي سيسم الحركات الدينية طيلة القرون اللاحقة.

قبل القرن العشرين، احتفظ كل من المذهب الشيعي والمذهب السني بتفكيره السياسي التقليدي الموروث – مبدأ (الإمامة) الشيعي ومبدأ (الخلافة) السني – سواء في النظرية أو في التطبيق. فمبدأ (الإمامة) الكلاسيكي يحصر الشرعية بـ(الإمام الثاني عشر)، أي المهدي المنتظر. وبالمقابل، يثبت مبدأ (الخلافة) شرعية الحاكمية في شخص عربي من قريش. ولم يواجه هذان المبدأن إلا تحديا من جانب أقلية صغيرة، تمثلت بالخوارج الذين كانوا يدعون إلى حق جميع المسلمين في تولي منصب (الخليفة) أو (الإمام) بصرف النظر عما إذا كانوا ينحدرون من قريش أو لم يكونوا (٢). بيد أن هناك أمثلة شتى على قبول "العلماء" و"المجتهدين"، بعد قرون، بالحكام الفعليين الذين لم تتوفر فيهم مثل تلك المعايير، وقد ملأت الأمثلة صفحات التأريخ السياسي السني والشيعي منذ القرون الوسطى حتى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين (٣). ويمثل هذا بجلاء موقفا براغماتيا واضحا تجاه السلطة السياسية ونفوذها، ومن ثم يضعف هذا الموقف من الخطاب والمرتكزات الفكرية للإسلام السياسي المعاصر، الذي يؤكد دائما على وجود نموذج خالص للحكم يمكن تمثله من تاريخ الإسلام.

من جانب آخر، تكمن فكرة التعارض، من وهم التلازم بين عصرية المعرفة و"عصرنة" التراث. علما وحدها السلفية الحديثة تأخذ بهذا التلازم، عمليا، حين هي تستدرج مفاهيم الماضي إلى الحاضر على أساس الزعم بأن معارف عصرنا كلها موجودة هي ذاتها في الماضي، ومنقولة عنه بلغة الحاضر، وأن ليس شيء منها لم يوجد في التراث. إن الدعوة إلى "تحديث" التراث بمعنى تماثل مفاهيم الماضي مع مفاهيم الحاضر، هي بصرف النظر عن ابعادها الطبقية، متعارضة بل متناقضة، من الناحية الفلسفية، مع الاتجاه المادي التاريخي، كمنهج، في فهم علاقة الحاضر بالماضي، ثم علاقته بالتراث. الكشف عن الاتجاه الفلسفي الذي تتضمنه هذه الدعوة ينطوي على نظرة ميتافيزيقية (سكونية) إلى التاريخ تضعه في حلقة مفرغة، في حين أن المنهج المادي التاريخي ينظر إليه في حركة حلزونية صاعدة تخضع للقوانين العامة لحركة تطور المجتمعات البشرية بما يتداخل فيها من القوانين الداخلية لتطور كل مجتمع على حدة (٤)؛ أي لا توجد مجتمعات معينة تشذ عن قوانين التطور الاجتماعي العامة هذه كونها تعتنق دينا أو معتقدا معينين.

ورغم الموقف "النفعي" الواضح من التراث – او ربما بسببه – لا يتورع الخطاب الديني عن التفاخر بالجانب الذي يرفضه من التراث. ولكن هذا التفاخر ينحصر في مجال المقارنة بين أوروبا القرون الوسطى وبين حضارة المسلمين، وكيف تأثرت أوروبا بمنهج التفكير العقلي عند المسلمين خاصة في مجال العلوم الطبيعية. وهذا يعد مبررا يطرحه الخطاب الديني يسمح للمسلمين بـ "استيراد الثمرات المادية" للتقدم الأوروبي والثورة الصناعية بوصفها "بضاعتنا رُدّت إلينا". لكننا لا نأخذ عنها سوى ذلك من "كفر"، المقصود هنا العلمانية، لأن أوروبا قطعت ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الإسلامية. وهكذا يخضع الإنجاز الأوروبي لمثل ما خضع له التراث من انتقائية ونفعية (٥)، تتصور أنها تستطيع

أخذ ما تريد وترك ما لا تريد بغض النظر عن فعل قوانين التطور الاجتماعي التي تحكم مسيرة المجتمعات الإنسانية سواء كانت إسلامية أم غير إسلامية وإن بدرجات.

نجد تناقضا شبيها، عند المفكر الإسلامي سيد قطب الذي يرحب بالعلم والمنهج العلمي ويقول بوجود صلح قديم بين المنهج الإسلامي وبين العلم والحضارة الصناعية. في الواقع يذهب سيد قطب إلى أبعد من ذلك في افكاره التوفيقية؛ فيرد المنهج العلمي التجريبي إلى روح الإسلام ويعتبر الإسلام الأساس الذي قامت عليه النظرة التجريبية الحديثة. لكن بعد مفاخرته هذه نراه يرفض رفضا باتا أهم النتائج التي توصل إليها هذا المنهج لأنها تتناقض مع العقائد الدينية. أنه يرفض نظرية التطور العضوي مع أنها توجت البحوث العلمية في علم الحياة، ونظرية فرويد مع أنها من اهم النتائج التي توصلت إليها البحوث العلمية في مجال الدراسات النفسية. ويرفض الماركسية مع أنها أهم نظرية شاملة في العلوم الاجتماعية والاقتصادية في العصور الحديثة. لذلك نراه يرد على كل ما تمخض عن المنهج العلمي من نُظم ونظريات علمية وسياسية واقتصادية واجتماعية ذلك على الرغم من يقينه أن الجذور التاريخية لكل ذلك تمتد إلى المنهج الإسلامي (٦). علما أن كتابات سيد قطب التي تتسم بالتطرف، تعد مصدرا مهما للتثقيف من قبل الحركات الإسلامية السلفية السنية مثل الأخوان المسلمين والشيعية مثل حزب الدعوة ومنظمة العمل الإسلامي.

بحسب نصر حامد أبو زيد فإن القراءة التوفيقية بين الحداثة والدين هي قراءة تلفيقية، وهو يعتبر أن رواد النهضة الفكرية الدينية لم يتحلوا بالجرأة الكافية لقطع الحبل بين الحداثة والدين. ويرى أن مراجعة الأسس الفكرية للتأويل هي التي ستعيد فتح باب الاجتهاد والقضاء على الأوهام والخرافات. واعتبر أن المؤسسة الدينية المهيمنة تتجاهل سياق النص والظروف الموضوعية المحيطة به، وتلجأ إلى الإرهاب الفكري لردع أي محاولة للنقد أو لفضح التناقضات في خطابها الديني. فكل شيء يتم تبريره عبر المبدأ الأساس، أي "الحاكمية الإلهية" التي تنفي استعمال العقل البشري، وهو مفهوم صاغه أبو الأعلى المودودي الباكستاني، وتبناه سيد قطب جاعلا منه ركيزة لفكر الأخوان المسلمين (٧)، وتبنته الحركات الدينية الأخرى، ايضا.

إن من خصائص الأزمة العامة المستحكمة في الحيات العربية الراهنة وأعراضها صعود وانتشار وهيمنة تيارات فكرية ارتدادية لا عقلانية تتناول فكريا وفلسفيا جميع المسائل من مواقع العداء للعقل والتقدم والعلم. وفي الواقع تقوم بعض هذه التيارات، عن وعي تام، بالتنظير الفلسفي والفكري العام لنوع من اللاعقلانية القروسطية السابقة على الحداثة في حياتنا باستخدام ذكي احيانا وغير ذكي في أحيان أخرى، لآخر ما انتجته اللاعقلانية الأوروبية في مرحلة ما بعد الحداثة من أدوات فكرية ومفاهيم فلسفية وتصورات نظرية (٨)، لذلك نراها تقع في تناقضات كثيرة على مستوى الفكر والخطاب.

لقد حدث تغير فيما يخص الإسلام السياسي المعاصر أو الحركات الأصولية. فهذا الإسلام لم يعد يهتم بتطوير الفعالية الفكرية والتفسيرية للدين كما كان يفعل الإسلام الكلاسيكي. فالعمل السياسي هو الأهم بالنسبة إلى الإسلام المعاصر؛ إنه يتغلب على كل اعتبار آخر؛ إنه يتغلب على ضرورة إبداع فكري مرافق للممارسة الدينية أو

الشعائرية، كما ويتغلب على أولوية البُعد الروحي المؤدي إلى التواصل مع الله. إن الحركات الأصولية الحالية لم تعد تفكر إلا بالقوة والسلطة، أو الوصول إلى السلطة بأي شكل. وهنا تحصل القطيعة بينها وبين الإسلام الكلاسيكي الذي شهد تعددية عقائدية بين مختلف المذاهب الإسلامية من سنية وشيعية ومعتزلة وفلاسفة... إلخ. هذا كله انتهى بالنسبة إلى الإسلام المعاصر (٩)، الذي تبنت بعض فصائله المتطرفة (١٠) إقامة الدولة الإسلامية بالقوة المسلحة وببحور من الدماء والدمار الشامل لمقومات الحضارة. وهذا ما تفعله "داعش" و"القاعدة" اللتان تناسلتا فكريا مما يسمى بالحركات الإسلامية المعتدلة مثل "الأخوان المسلمين".

وبحسب برهان غليون، الحقيقة أن العلاقة بين الدين والدولة كانت في التاريخ الإسلامي علاقة تعايش لا اندماج. وكانت علاقة صعبة أيضا ولم تكن انصهارا أو ارتباطا عضويا كما يبدو الأمر. فقد أدى إخضاع الدين للدولة، منذ البداية إلى إنكفائه على المجتمع والجماعة والتجائه إليهما في مواجهة الدولة ونقله الجزء الأكبر من مهام السياسة وبرامجها وأهدافها إلى الجماعة والأمة حتى صارت هذه الأخيرة أكثر تحريكا للمشاعر من الدولة، بل فوق الدولة.

وبالعكس من ذلك، كان تحويل الدين إلى دولة، وبالتالي إخفاقه في تنظيم وتسيير منابع الايمان والفضيلة الأخلاقية هو الذي أدى في الغرب المسيحي، وكرد فعل اجتماعي، إلى انتزاع السياسة من الدين، وتركيزها كليا في الدولة. وهكذا صرنا نميّز بين المجتمع السياسي والمجتمع المدني (١١). طبعا إلى جانب ما ذُكر، هناك اسباب أخرى مهمة قادت إلى هذا التحول منها الصعود الاقتصادي للبرجوازية في أوروبا وتطلعها إلى احتلال مواقع في السلطة السياسية تتناسب مع هذا الصعود، وكذلك النزاعات الطائفية الدموية المدمرة بين الكاثوليك والبروتستانت والتي امتدت طويلا، وساهمت في خلق قناعة بضرورة تحييد الدين وتبني العلمانية.

إن من أهم التحديات التي تواجه مجمعاتنا ذلك الاستخدام الإيديولوجي النفعي للإسلام لتحقيق مصالح وغايات ذات طبيعة فئوية أو سياسية أو شخصية. وسواء تم هذا الاستخدام من قبل جماعات سياسية بعينها، أو من قبل أنظمة وسلطات سياسية فاقدة للشرعية الاجتماعية والسياسية والقانونية، فالنتيجة واحدة: تحويل الإسلام إلى أداة من الأدوات واختزاله في وظائف وغايات ذات طبيعة دنيوية متدنية (١٢)، تحت الشعار الذي يرفع دائما من قبل الحركات الإسلامية بأن الإسلام دين ودولة.

من خلال إلقاء نظرة على بعض التحولات التي شهدتها خطابات الحركات الدينية وممارساتها، سيتبيّن لنا بجلاء أن هدف هذه الحركات الرئيس هو السلطة، وهو هدف دنيوي، ولكن يتم تغليفه بإطار ديني لاستغلال ما يتمتع به الدين من هيبة ومكانة، وما له من مواقع قوية في البنية الاجتماعية والثقافية للمجتمعات العربية والإسلامية.

تجربة العراق

في الجانب الشيعي، يُذكر أن محمد باقر الصدر وضع تسعة أسس يقوم عليها الحزب الإسلامي، وهو حزب الدعوة، عُرفت بالأسس، ووصفت أيضا بالمرتكزات النظرية. من هذه الأسس التسعة ما يتعلق بالدولة الإسلامية، وهنا يرد بأن كل دولة لا تقوم على عقيدة أو قاعدة الإسلام هي دولة

كافرة، مثل الدولة الشعبية والرأسمالية، والحكم على المسلمين هو القضاء عليها بالطرق التبشيرية السلمية أو الجهادية المسلحة. كذلك على المسلمين هدم الدول اللائي بلا عقيدة، قامت على أهواء الحكام، فهي دول كافرة أيضا. أما الدولة المرضية فهي القائمة على عقيدة الإسلام. ويغلب على الظن أنها الحاكمية نفسها. لكن الصدر لم يتحدث عن نوع تلك الدولة، هل هي تقوم على الشورى أم ولاية الفقيّة! وكيف سيكون التجاذب فيها بين المذاهب، فمن دون النظر في هذه الأمور تبقى الدولة الإسلامية غير متحققة (١٣) من الناحية العملية. علما أن حزب الدعوة ظل بعد تأسيسه العام ١٩٥٩ ولسنوات ذا نظرة عالمية فيما يخص أهدافه، لكن فيما بعد بات تركيزه محليا يخص العراق. وعلى الرغم من أن هذه المرجعية، لا تقر الديمقراطية، فقد ادخل حزب الدعوة تغييرا في برنامجه بقبول ممارسة آليات الديمقراطية، كما فعلت العديد من الحركات الإسلامية في العالم العربي في التسعينات. وبعد تغيير النظام العام ٢٠٠٣، دخل حزب الدعوة مع الأحزاب الشيعية الأخرى العملية السياسية بقوة، وبسبب من حيازته على رئاسة الوزراء لأكثر من ثلاث دورات انتخابية تغلغل في جميع مفاصل الدولة، لذلك بات يتمتع بالسلطة والثروة والنفوذ القوي، وهي أمور تتعارض بالأساس مع مرجعيته الفكرية القائمة على قيام الدولة الإسلامية.

وفي الجانب السني، فإن أول محاولة لتأسيس تنظيم سلفي كانت في بداية الستينات من القرن الماضي، عندما عَمد مجموعة من السلفيين، إلى تأسيس "جَماعة الموحدين" السلفية، متأثرين بتجربة الإخوان المسلمين التي أنتجت الحزب الإسلامي في العام ١٩٦٠. وقد عمد التنظيم في وقت لاحق إلى إنشاء تنظيم عسكري ضم بعض القيادات العسكرية والأمنية السلفية، كما عمد من خلال تلك القيادات إلى إدخال بعض الطلبة من السلفيين إلى الكلية العسكرية. وإن بعضا من أولئك الضباط، خصوصا في الحرس الجمهوري، كانوا مشاركين في انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ (١٤) الذي جاء بحزب البعث إلى السلطة.

لكن ظلت الدعوة السلفية في العراق محدودة ليس في مدى انتشارها وحسب، وإنما في طبيعة الخطاب النظري الذي تعتمده أيضا. فقد ظل تأثير علماء الدين في السعودية حاضرا بقوة، باتجاهاته المختلفة: الخط الرسمي، والخط الحركي، والتيار الإصلاحي المتمثل بسلمان العودة وسفر الحوالي (١٥).

وفي مواجهة مرحلة ما بعد تغيير النظام السابق العام ٢٠٠٣، وبحسب رشيد الخيون، كان الحزب الإسلامي العراقي أكثر القوى السنية الدينية هدوءا واتزانا؛ حيث لم يغوه شعار المقاومة المسلحة تحت ضغط القوى القومية والدينية العربية، ومنها الأقرب إليه من جماعات إخوان المسلمين في مصر والأردن، بل كان على خلاف مع تشدد "هيأة علماء المسلمين" تجاه الواقع السياسي، والمشاركة فيه. وقد برر الحزب مشاركته في الحكومة بالآتي: "قررنا المشاركة على أساس أن غيابنا هو ضرر أكبر، متمثل بغياب دور السنة العرب عن المشاركة في تشكيل مستقبل العراق، في هذه المرحلة الحرجة من جهة، ومن جهة أخرى فإنه يفقدنا التأثير المباشر لإحباط المساعي التي تريد إضفاء الشرعية على إبقاء المحتل في عراقنا الحبيب. وهذا يدفع بضرر أصغر هو المشاركة بهذه الحكومة الانتقالية

الجديدة، وسنعمل على إسداء النصيحة لهذه الحكومة والتفاعل معها بطريقة تخدم مصالح شعبنا..."، علما أن الحزب أصدر بيانا يوم الإعلان عن الحكومة المؤقتة في ١ حزيران ٢٠٠٤، برئاسة إياد علاوي، شاكيا من أنها حكومة علمانية (١٦). إذن، تغير الخطاب السياسي للحزب خصوصا، بعد ٢٠٠٣، وانخرط بقوة في العملية السياسية، وتبوء قادته مناصب عليا في الحكومة ومجلس النواب ومؤسسات الدولة الأخرى، ومارس هذا الحزب نهجا براغماتيا في الجمع بين السلطة والنفوذ والمال، فيما تدعو مرجعيته الفكرية إلى إقامة الخلافة الإسلامية التي لا جامع يجمعها مع الديمقراطية. إذن تنظر الحركات السلفية إلى الديمقراطية كآلية للوصول إلى السلطة وليس كمنظومة فلسفية تؤطر التطور السياسي والاقتصادي والثقافي والعدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان للمجتمعات الإنسانية.

لقد تعرض السياسي العراقي ذو الايديولوجيا الدينية في الشهور الأولى من الاحتلال الأمريكي للعراق إلى تناشز معرفي حاد بين منظومته القيمية التقليدية القائمة على رفض القيم الغربية الديمقراطية المؤمنة بتداول السلطة وحتمية الحكم بحسب الشريعة الإسلامية وحدها، وبين سلوكه المتعطش للسلطة والمضطر لمجاراة الشعارات الديمقراطية.

إن هذا التناشز الحاد ما كان له أن يُحلّ أو يخفض من الناحية السيكو – سياسية إلا على يد أفراد بمواصفات شخصية محددة، شكلوا بسلوكهم النفعي نخبة سريعة النمو خارج الهوية الوطنية العراقية، سيّست بسرعة الموروث المتخلف الكامن في الهوية الطائفية بشقيها (١٧) الشيعي والسني من خلال تبني نظام المحاصصة الطائفية الذي يضمن لهذه النخبة الاحتفاظ بمواقعها السياسية والاجتماعية والطبقية في جميع مفاصل الدولة والمجتمع.

ثلاثة نماذج إقليمية

في إيران، ساهم قيام دولة إسلامية بعد نجاح الثورة الشعبية العام ١٩٧٩ في التأثير في موازين القوى في منطقة الشرق الأوسط، وغذّى نمو الحركات الإسلامية شيعية كانت أم سنية، بل أصبح هذا النموذج من الدولة ملهما لبعض الحركات الإسلامية. وهذا يستدعي تقييم التجربة في جانب الفكر والخطاب.

أعلن الامام الخميني في نظريته "ولاية الفقيه" نقل صلاحيات وسلطات الإمام المهدي المنتظر كلها إلى الولي الفقيه بما في ذلك حق إقامة الحكومة الإسلاميةِ مكان الإمام الغائب. وبعد نجاح الثورة، أدخلت نظرية ولاية الفقيه في الدستور الإيراني حيث أسس الخميني أول مرة في التاريخ حكومة إسلامية في دولة مدنية حديثة. ولم تكن مساهمة الخميني تقتصر على هذا فحسب، إذ أعلن أن الولي الفقيه الذي يرأس حكومة إسلامية تصبح سلطته نافذة على سائر الفقهاء الآخرين. وخطوة الخميني هذه شكلت ضربة قاسية للمرجعية الشيعية (١٨). علما أن هذه النظرية لم تكن محل إجماع من قبل مراجع الشيعة، وبقيت موضع نقاش على اعتبار أنها لا تتلاءم بشكل كامل مع أصول عقيدة الشيعة الإمامية.

وفي محاولة للتكيف مع مستجدات الحياة على مستوى الفكر والممارسة وللتخفيف من حدة التناقض بين المرجعية الفكرية والخطاب السياسي، يطرح بعض المفكرين الإيرانيين أفكارا تتناول هذا الجانب، منهم

محمد جواد لاريجاني المختص في الفلسفة الغربية وهو على دراية واسعة بها، ومؤلف كتاب "التدين والحداثة"، ويمكن إجمال آرائه في ثلاثة جوانب دينية واجتماعية سياسية وفلسفية هي: مشروعية الحكومة الإسلامية وفعاليتها المستمدة من جدل الفلسفة والسياسة والدين والواقع؛ تبدل علوم الدين وخضوعها لاجتهاد وتحيين مستمرين عبر مختلف العلوم والمعارف؛ مستقبل الثورة والحكومة الإسلامية وولاية الفقيه.

لم يكن بوسع لاريجاني أن يفكر في حلول لهذه الجوانب إلا عبر انجاز مفاهيمي حداثي من جهة وعبر توظيف وإقحام. فمن وجهة نظره، لا يمكن أن يحدث فعل دون إيجاد صلة ضرورية بين التحولات المعرفية التي تحدث في العالم والقضايا العملية المطروحة في إيران، ومن ثم لا بد من توظيف يبدأ بزرع الفلسفة في علم الكلام أو تحويل المعارف وطلب إقحامها في الدين عموما. وما دام الأمر يتعلق بتسيير الحياة فإن الايديولوجيا الأساسية المتمثلة بالربط بين المعارف تصبح مشروعة تماما، على الرغم من أن الأمر لم يكن يهم تدبير شؤون الناس بقدر ما يكون توظيف المعارف الحديثة لتدبير شؤون الدين وحل أزمته (١٩) التي تستعصي كلما ظل فهم النصوص الدينية جامدا وبعيدا عن الأخذ بعين الاعتبار الإطار التاريخي الذي انتجت فيه.

في مصر، يُجمع السواد الأعظم من شيوخ السلفية السياسية على تحريم المشاركة السياسية على أرضية الديمقراطية التي تتراوح نظرتهم إليها من اعتبارها كفرا صريحا إلى اعتبارها أداة لا باس بها من أجل "تحقيق غايات أخرى". ولعل أهم هذه الغايات الأخرى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق الشريعة. بيد أن ما يبدو محيرا هو قبول السلفيين بالمشاركة السياسية واستخدام أدواتها وهي التي كانت مرفوضة بل محرمة ثولوجيا وفقهيا. فكان الموقف من دخول الانتخابات وتكوين الأحزاب وعقد التحالفات السياسية، مرفوضا ومحرما والذي وصل عند بعضهم إلى درجة الشرك (٢٠). وهنا يكمن النهج النفعي بشكل واضح.

في الواقع، كانت الحركات السلفية أكثر التيارات الإسلامية معارضة لانتفاضة ٢٥ يناير في مصر. وكانت هذه المعارضة جزءا من فكرها الذي يرفض أي خروج على الحاكم. حيث صرح ياسر برهامي، أحد زعماء الدعوة السلفية قائلا: "نرى عدم المشاركة في تظاهرات الخامس والعشرين من كانون الثاني/ يناير. وكلام المشايخ واضح جدا وذلك لأن الأوضاع مختلفة بين مصر وتونس". كذلك قال محمد عبد المقصود، أحد كبار رجال التيار السلفي، في عقب اندلاع الانتفاضة: "نحن نحرم الخروج الذي يسفك دماء ويؤدي لفساد. وتحريم الخروج بدأه القرطبي والنووي وابن حزم وذلك لدرء الفتن". كما أصدر الداعية السلفي محمد السيوطي بيانا في ٥ شباط/ فبراير يعارض التظاهرات ويدعو إلى طاعة الحكام "وإن بلغوا في العسف والجور حد ضرب الرعية وأخذ أموالهم"، وأضاف داعيا إلى قتال المتظاهرين: "يجب قتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى طاعة الإمام" (٢١) والمقصود هنا بكل وضوح طاعة حسني مبارك.

بيد أن الموقف قد تغير بشكل جذري في مرحلة ما بعد الانتفاضة في مصر، وهو تغيير وإن لم يصرِّح به قادة التيار السلفي إلا أن ممارساتهم وأفعالهم تدل وتبرهن عليه. فالشيخ عبد المنعم الشحات الذي

لا يمل من التصريح برفض الديمقراطية باعتبارها "حراما وكفرا"، في حين أنه كان أول من استخدم أدواتها حين خاض الانتخابات البرلمانية من أجل الحصول على مقعد برلماني. جاء تبرير هذا التحول تحت ذريعة القاعدة الذهبية "المصالح والمفاسد" التي باتت أشبه بحصان طروادة الذي يفتح الباب على مصراعيه أمام السلفيين للحضور في المجال العام (٢٢). وتتوج ذلك بتشكيل الأخوان المسلمين لحزبهم "الحرية والعدالة" في العام ٢٠١١، وتشكيل التيار السلفي لحزب النور الذي حصد حوالي ربع المقاعد البرلمانية في أول انتخابات، وهو الذي لم يؤيد الانتفاضة الشعبية ولم يشارك فيها.

في تونس، على الرغم من سبق حركة النهضة إلى المزاوجة بين الإسلام ومكتسبات الحداثة، وتشريعها قيام دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية، وإقرارها بضرورة تداول السلطة، وبضرورة إقامة العدالة الاجتماعية، وتأمين حقوق المواطنة، فإنها لم تعبر صراحة عن التخلي عن عدد من المبادئ الأساسية التوجيهية التي تضمنتها أدبياتها عند تأسيسها في مطلع الثمانينات، فوثيقة "الرؤية الفكرية والمنهج الأصولي لحركة النهضة التونسية" الصادرة في حزيران/ يونيو ٢٠١٢، استبقت على محتوى التصور الفكري والعقدي والأصولي الذي اعلنه مؤتمر عام ١٩٨٦ لحركة الاتجاه الإسلامي (حركة النهضة حاليا)، بل اعتُبر هذا البيان "وثيقة رسمية من جملة الوثائق التي تحدد هوية الحركة". وبذلك فإن التصور الوارد في الوثيقة فيه تلبيس للديني بالدنيوي وتعامل مع المجتمع بتنويعاته المختلفة وفق خلفية عقائدية منغلقة، ومقاييس معيارية ميتافيزيقية تبقى محل خلاف، ولا تتماشى ومبدأ المواطنة والحرية الفكرية باعتبارها شأنا شخصيا، لذلك تعتبر هذه النصوص متأخرة عن حركة المجتمع وغير منسجمة مع خط التحديث الإسلامي الذي تدعي النهضة الريادة فيه (٢٣). على الرغم مما اعلنته حركة النهضة مؤخرا عن رغبتها بالتحول إلى حزب سياسي، وفصلها بين الجانب الدعوي والسياسي غير أن اختبار حقيقة هذا التوجه تبقى على المحك في خضم ميدان الممارسة والصراع والعمل السياسي والاجتماعي المحتدمين.

وفي ما يخص الموقف من حقوق المرأة، فإن زعيم حركة النهضة راشد الغنوشي، أعلن في بعض المناسبات أن حركته لن تعمل على إقرار مبدأ تعدد الزوجات؛ لكنه صرح في مناسبات أخرى بموقفه الأصلي المؤيد لتعدد الزوجات. ولا يُعد هذا غربيا عنه؛ ذلك أنه يسعى إلى أن يحقق المعادلة الصعبة، وهي إرضاء المجتمع التونسي من جهة، وتطمين المرأة بشكل خاص، وعدم التصادم مع النص القرآني الذي يجيز التعدد من جهة أخرى. وهذا ما جعل معارضيه يصفون موقفه بالارتباك والالتباس، ويعللونه برئاسته لجنة الدفاع عن تعدد الزوجات خارج تونس (٢٤). وهذا الموقف في حقيقته لم يكن ارتباكا بقدر ما هو يعكس موقفا براغماتيا للاستفادة من الأجواء التي وفرتها الانتفاضة الشعبية وسقوط نظام ابن على المستبد لحصد المزيد من المكاسب السياسية ومن ثم التمتع بالسلطة والنفوذ.

ومن جانب آخر، ومن خلال الممارسة السياسية لممثلي حركة النهضة، فهم وإن دافعوا خلال الحملة الإنتخابية التي سبقت انتخابات ٢٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١١ عن مكاسب المرأة وقانون الأحوال

الشخصية والدولة المدنية؛ فإن نائبات الحركة في المجلس التأسيسي فاجأن الجميع بالتصويت ضد حق المرأة في أن تترشح لمنصب رئاسة الجمهورية، وذلك في سياق مناقشة اللجنة المتخصصة بشروط الترشح للرئاسة (٢٥). وهذا مؤشر إلى ما اشرنا إليه بالنهج البراغماتي الذي تمارسه الحركات الدينية ومنها النهضة.

أخيرا، إن تبرير التباعد بين الخطاب والمرجعية الفكرية عند الحركات الدينية، وتأويل النصوص ومراجعة المتفق عليه، بهدف ما يسمى بـ"الإصلاح الديني"، فإنه في الواقع يكون أقرب إلى الإفساد منه إلى الإصلاح: ذلك لأنه جانب الصواب في تشخيص الداء، وهو تغلغل ما يوصف بـ "نظرية الحتمية الدينية" في وعي المسلمين وتمكّنها منه، وما أدى إليه ذلك من الابتعاد عن المنهج التاريخي في تحصيل العلم، واستنباط قوانين التطور السياسي والاجتماعي (٢٦). إذن، المطلوب دراسة التراث الإسلامي دراسة شاملة بمنهج تاريخي نقدي، لغربلته وتمييز الصالح منه عما تجاوزه الزمن وصار في عداد التراث الميت والمعيق للتطور.

استنتاجات

– يساهم ضعف البنية الاجتماعية – الاقتصادية والسياسية والثقافية، وغياب التنمية المستدامة في المجتمعات العربية والإسلامية، في ديمومة الحركات الإسلامية، ويعطيها مادة للتوظيف الديني والسياسي.

– تتمثل الإشكالية الأساسية بعدم إقرار الحركات الدينية الأصولية بتاريخية النصوص الدينية، ومناسبة ظهورها، وبحركة وتغيّر الواقع الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي للمجتمعات العربية والإسلامية زمانيا ومكانيا.

– إن التبرير الذي تلجأ له الحركات الدينية بالنبش بالتراث من أجل تعليل شقة التباعد بين خطابها الأصولي وخصوصا السياسي منه ومرجعيتها الفكرية، يُضعف مع مرور الوقت من مصداقيتها، ويعمل على تقليص نفوذها الاجتماعي والسياسي والثقافي.

– سيخلق التوظيف المستمر للدين بالسياسة، مزيدا من التعقيدات على مستوى الخطاب والمرجعية الفكرية، وسيؤسس ويراكم مزيدا من المطالبات لتحييد الدين عن السياسة ومن ثم فصلهما مستقبلا.

– تقع على عاتق الكتاب والباحثين اليساريين والديمقراطيين مهمة كشف وإبراز التناقض الذي تقع فيه الحركات الدينية في محاولتها تأويل وتبرير تعارض خطابها السياسي مع مرجعيتها الفكرية، وتبيان أن جذر هذا التعارض يعود إلى محاولات هذه الحركات الوصول إلى السلطة بأي ثمن.

– يمثل مصطلح "دولة مدنية ذات مرجعية إسلامية" الذي تتبناه بعض الحركات الدينية، محاولة للالتفاف على هدف قيام دولة مدنية ديمقراطية، لأنه بدون هذا التلازم، يمكن أن تكون الدولة المدنية مستبدة سواء بغطاء ديني أو عسكري أو غيره.

الهوامش:

(1) راجع: رشيد الخيون، الأديان والمذاهب بالعراق، ط 2 (كولونيا، بغداد: 2007)، ص 447.

(2) واضح إن ظهور الخوارج يعبر عن موقف سياسي واجتماعي وطبقي، إضافة إلى الأسباب الأخرى، وهو رفض حصر السلطة والنفوذ في قريش، والدليل على ذلك، ما ورد في نهج البلاغة حيث أن علي بن أبي طالب اشار إليهم بـ "اعراب بكر وتميم"، أي ينحدرون من هاتين القبيلتين وليس من قريش.

(3) راجع: فالح عبد الجبار، العمامة والأفندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني، ترجمة أمجد حسين (بيروت، بغداد: 2010)، ص 467 – 468.

(4) للمزيد راجع: حسين مروة، النزعات المادية في الفلسفة العربية – الإسلامية، المجلد الأول، ط 2 (الجزائر: 2002)، ص 33 – 34.

(5) راجع: نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، ط 3 (الدار البيضاء، بيروت: 2007)، ص 43.

(6) راجع: صادق جلال العظم، نقد الفكر الديني، ط 10 (بيروت: 2009)، ص 29 – 30.

(7) زياد حافظ، "المفكرون العرب الجدد في الإسلام"، الآداب، العدد 7 – 8 تموز/ يوليو – آب/ اغسطس (2009)، ص 63.

(8) راجع: صادق جلال العظم، ذهنية التحريم، ط 5 (دمشق: 2007)، ص 154

(9) راجع: محمد أركُون، قضايا في نقد العقل الديني، ط 4 (بيروت: 2009)، ص 174.

(10) حول التطرف الديني راجع مقالنا "التطرف الديني ... جذوره الفكرية وأبرز تجلياته"، الثقافة الجديدة، العدد 378 – 379 تشرين الثاني 2015، ص 93 – 103.

(11) برهان غليون، نقد السياسة: الدين والدولة، ط 5 (الدار البيضاء، بيروت: 2011)، ص 99 – 100.

(12) راجع: نصر حامد أبو زيد، التجديد والتحريم والتأويل بين المعرفة العلمية والخوف من التكفير، ط 1 (الدار البيضاء، بيروت: 2010)، ص 27.

(13) راجع: رشيد الخيون، تاريخ الإسلاميين وتجربة حكمهم في العراق، في مجموعة مؤلفين، الإسلاميون ونظام الحكم الديمقراطي... اتجاهات وتجارب (بيروت: 2013)، ص 664.

(14) راجع يحيى الكبيسي، السلفية في العراق: تقلبات الداخل وتجاذبات الخارج في الظاهرة السلفية ... التعددية التنظيمية والسياسات (الدوحة: 2014)، ص 98.

(15) يحيى الكبيسي، ص 108.

(16) رشيد الخيون، تاريخ الإسلاميين وتجربة حكمهم في العراق، ص 656 – 658.

(17) فارس كمال نظمي، الأسلمة السياسية في العراق... رؤية نفسية، ط 1 (بغداد: 2012)، ص 19 وما بعدها، وقارن مقالنا "الفكر الطائفي والدولة"، الثقافة الجديدة، العدد 367 تموز 2014، ص 8 – 18.

(18) فرح كوثراني، محمد مهدي شمس الدين ونقد ولاية الفقيه، في مجموعة مؤلفين، ص 282 – 285.

(19) راجع: تهامي العبدولي، أزمة المعرفة الدينية، ط 2 (دمشق: 2005)، ص 239 – 240.

(20) راجع: خليل العناني، التيارات السلفية في مصر: تفاعلات الدين والأيدولوجيا والسياسة في مجموعة مؤلفين، ص 137 – 138.

(21) راجع: محمد السيد سليم، الأداء السياسي للتيارات الإسلامية في مصر منذ ثورة 25 يناير، في مجموعة مؤلفين، ص 415 – 416.

(22) خليل العناني، ص 137 – 138.

(23) راجع: أنور الجمعاوي، الإسلاميون في تونس وتحديات البناء السياسي والاقتصادي للدولة الجديدة: قراءة في تجربة حركة النهضة، في مجموعة مؤلفين، ص 475 – 476.

(24) راجع حمادي ذويب، الإسلاميون في تونس وقضايا المرأة بين مطرقة النص وسندان الواقع، في مجموعة مؤلفين، ص 530.

(25) المصدر نفسه، ص 535 – 536.

(26) حازم قنديل "الحتمية الدينية والمنهج التاريخي"، الآداب، مصدر سابق، ص 88.

ضوء على القوانين الدولية وأسلحة الفتك والدمار الحديثة

د. كاظم المقدادي

د.كاظم المقدادي اكاديمي عراقي، طبيب وباحث بيئي متخصص بالتلوث الإشعاعي وبالتأثيرات البيولوجية لسموم أسلحة اليورانيوم.

تمهيد

الأسلحة والنزاعات المسلحة إشكاليتان مترابطتان. يشكل الترابط بينهما خطراً جسيماً في ظل التطور الهائل الذي شهدته الصناعة الحربية في المرحلة الراهنة، منتجة آلة حربية جديدة أشد فتكاً بالبشر وأوسع تدميراً للمعدات وللبنى التحتية وللمؤسسات الحيوية، مسببة للخصم كوارث بيئية وصحية رهيبة من الصعب معالجتها ولن تسلم منها حتى أجياله اللاحقة.

رغم ما سببته الأسلحة الحديثة من كوارث فظيعة تستمر الصناعات الحربية الغربية بتطويرها أكثر، دون رادع، وتواصل التعتيم على طبيعتها والتضليل بشأن أضرارها، التي أثمرت جهود العلماء الشرفاء بكشف الكثير من الحقائق والأسرار الخفية عنها.

ورقتنا هذه تُعرف بطبيعة الحرب وبتداعيات استخدام الأسلحة الحديثة، وتسلط الضوء على القوانين الدولية والموقف من هذه الأسلحة، بالإستناد الى آراء خبراء ومؤسسات دولية متخصصة.

الحرب والأسلحة

إستخدام الأسلحة في النزاعات الدولية في عصرنا هذا لا ينتج عنه سوى سفك الدماء وإشاعة الدمار والخراب وخلق المآسي والفواجع والآلام للخصم، مجسداً ما قيل عن الحرب وتداعياتها، بأنها "كارثة غير طبيعية، أي من صنع الإنسان" – من وجهة نظر علم البيئة. وقال عنها الاقتصادي الألماني – الأمريكي براور Jurgen Brauer: "الحرب شرّ معروف، تقتل النّاس، تدمّر البنية التّحتيّة الثّمينة المطلوبة لجودة الحياة البشريّة، وتقتلع السّكّان المدنيّين". ووصفها السياسي الليبرالي البريطاني غلادستون William Ewart Gla–stone (1809 – 1898) بأنها "مأساة يستعمل فيها الإنسان أفضل ما لديه ليلحق

بنفسه أسوأ ما يصيبه" (1).. وأسلحة الحرب في وقتنا هذا لم تعد أسلحة تقليدية وغير تقليدية فقط، وإنما تحتل أسلحة الدمار الشامل فيها موقعاً متصدراً، وأضيفت لها الذخائر المشعة أو أسلحة اليورانيوم، التي لا تقل عنها دماراً وفتكاً.

"حق" استخدام الأسلحة في النزاعات الدولية

في ظل التطور الرهيب لأسلحة الدمار والفتك الحديثة أصبح ضرورة آنية وملحة إلغاء "حق الدول في استخدام الأسلحة في نزاعاتها"، سواء في حالة الدفاع عن النفس أو في حالة حصول موافقة مجلس الأمن الدولي بإجازة استخدام السلاح. ولا بد من قطع الطريق بوجه المستفيد الأول والأخير من هذا "الحق"– أعداء السلام وتجار الحروب والأسلحة. ولا أدل على ذلك من إنفاق الاف مليارات الدولارات على الحروب، وتحول العالم بخطوات ثابتة – وفقاً لصحيفة "الغارديان" البريطانية، بالاستناد لمؤشر السلام العالمي (Global peace index 2014)، من السلام إلى الحروب، التي كلفت الاقتصاد العالمي نحو 14.3 تريليون دولار(التريليون = ألف مليار أو مليون المليون، ويكتب رقماً 10 18)، وهو ما يعادل مجموع الناتج لكل من البرازيل وكندا وفرنسا وألمانيا وأسبانيا والمملكة المتحدة مجتمعة. وأظهر المؤشر المذكور أن القتال في سوريا والعراق وأفغانستان، ألحق خراباً وفسادا في الاقتصاد، وساهم في دفع وضع السلام العالمي إلى أدنى مستوياته منذ 2008.

وكانت دراسة هندية نشرت في كانون الثاني 2009 أظهرت بان 20 عاماً من الصراع كلف الشرق الاوسط 12 تريليون دولار. وقالت الدراسة التي أجرتها مجموعة التوقعات الاستراتيجية في الهند India´s Strategic Outlook بدعم من حكومات ووكالات أخرى انه اذا لم يتم حل الصراعات في المنطقة فان التكاليف ستستمر في الارتفاع (2)..وهذا ما حصل فعلا!

الذخائر المشعة وأسلحة الدمار الشامل

أسلحة الدمار الشامل (Weapons of mass destructionWMD)، هي أخطر أنواع الأسلحة الحديثة، بما تمتلكه من قدرة فائقة على إحداث آثار رهيبة واسعة النطاق، بدءا من هلاك مجموعات ضخمة من البشر والكائنات الحية وغير الحية، وإنتهاءً بدمار البنى التحتية والممتلكات العامة والخاصة.. والأخطر من كل ذلك استمرار تأثيرها القاتل للبشر والمخرب للبيئة لعقود من الزمن، كما هو الحال نتيجة للتأثير الاشعاعي للانفجارات النووية ولاستخدام القنابل الذرية ضد اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية، الشاخص لحد اليوم.

نظراً للأخطار البالغة لهذه الأسلحة، بأنواعها الثلاثة، النووية والكيميائية والبايولوجية، اعتبرت محرمة دولياً، وثمة اتفاق دولي على ذلك، تنص عليه إتفاقيات ومعاهدات. وحثت هيئة الامم المتحدة، قبل نحو ربع قرن، ان يكون ابرام اتفاقية حظر إستخدام وإنتاج وتخزين وتدمير جميع انواع اسلحة الدمار الشامل، من اولى المهام الملقاة على عاتق المجتمع الدولي.

بيد أنه برغم حظر إستخدامها دولياً، لما سببته للبشرية من كوارث ومآسي

رهيبة، ما تزال الصناعة الحربية تنتجها، والعديد من الدول تمتلكها، وتسعى دول أخرى حثيثاً لامتلاكها. وأكد تقرير لوكالة "رويترز" للأنباء، نُشر في عام 2015، بان القرن العشرين شَهد تسارعاً كبيراً في تطور أدوات القتل والدمار إلى حد أصبحت الدول العظمى تعنى بأسلحة الدمار الشامل وتصنيعها وتجعلها في أعلى سلم الأولويات، ساعية لإيجاد مواد أكثر فتكاً وإبادة، إضافة لإيجاد وسائل نقل وقذف، وإيصالها للأهداف على نحو أسرع وأدق (3).

ونتيجة لابتكار وتطوير أسلحة دمار شامل، ظهر خلال العقدين المنصرمين مصطلح جديد هو أسلحة التأثيرات الشاملة (Weapons of Mass Effects WME)، وأضيفت لها ذخائر اليورانيوم والقنابل القذرة Dirty Bombs.

نركز هنا على الذخائر المشعة أو أسلحة اليورانيوم، التي تُعدُ عملياً، بما سببته من دمار هائل وفتك فظيع، من أسلحة الدمار الشامل. فحسب القانون الفدرالي الأمريكي، الباب 50، الفصل 40، البند 2302، ينطبق على عتاد اليورانيوم المنضب تعريف أسلحة الدمار الشامل باثنين من معاييرها الثلاثة (4). فهي مصنعة من نفايات نووية خطيرة تنتجها عملية تخصيب اليورانيوم الطبيعي للحصول على النظير U-235 شديد الإشعاع بنسب عالية لانتاج الأسلحة النووية وكوقود للمفاعلات الذرية. وثبت بأنها تحتوي على النظائر المشعة Is-topes: U-234 وU-235 وU-238 (وليس فقط U-238 - كما زعم البنتاغون)، إضافة لمواد أخرى شديدة الإشعاع، كالنظير U-236 والبلوتونوم والأمريشيوم والنبتونيوم. عند إنفجارها تشتعل في الهدف مولدة سحابة كثيفة من غبار مشع فتاك ومدمر.

جُربت هذه الذخائر لأول مرة من قبل الجيش الأمريكي وحلفائه ضد الجيش العراقي في حرب الخليج الثانية عام 1991. وفي ما بعد طورت قدرتها التدميرية والفتاكة كثيراً، وإستخدمت في حرب البلقان ضد القوات اليوغسلافية في البوسنة وكوسوفو وصربيا، أعوام 1994 - 1995 و1999، وضد أفغانستان عام 2001، وضد العراق، للمرة الثانية، أثناء غزوه وإحتلاله عام 2003. ومؤخراً على ليبيا وسوريا - باعتراف البنتاغون وحلفائه (5)(6). وقد بلغت قوة المطور منها، من حيث القوة الإشعاعية، أكثر من 400 مرة، والقدرة التدميرية - أكثر من 800 مرة، مقارنة بمثيلاتها التي استخدمت في عام 1991. وثبت كذب مزاعم البنتاغون بأنهم ضربوا بها الأهداف المدرعة فقط. إذ تبين ان نسبة الأهداف المدرعة التي ضربوها كانت (33.2 %) فقط، أما البقية (66.8 %) فكانت أهدافاً غير مدرعة، وكانت سهلة، كالسيارات والبنايات وشاحنات الجنود، التي ضُربت عشوائياً - كشفت ذلك وثائق عسكرية رسمية أمريكية، حصل عليها التحالف الدولي لحظر أسلحة اليورانيوم ومنظمة السلام الهولندية PAX من جامعة جورج واشنطن عام 2016(7).

وقد سبب استخدامها كوارث صحية وخيمة للمدنيين الأبرياء، عدا الفتك بالعسكريين، إضافة الى خراب البيئة، حيثما إستخدمت، نظراً لما يطلقه اليورانيوم المنضب في القذيفة من إشعاعات (ألفا) و(بيتا) و(غاما)، وما تحدثه من تعرض إشعاعي خارجياً وداخلياً للذين يتعرضون لسحابة غبار انفجارها المكونة من تريليونات أوكسيد اليورانيوم السامة إشعاعياً وكيميائياً.

تحذيرات علمية ضربت عرض الحائط

ربطت دراسة علمية أنجزت في عام 1990 برعاية الجيش الأمريكي بين اليورانيوم المنضب والسرطان، وقالت: "ليس ثمة جرعة إشعاع مهما كانت واطئة يكون إحتمال تأثيرها آمناً" (8).

وفي نيسان 1991 حذر تقرير سري لهيئة الطاقة الذرية البريطانية (UKAEA) المسؤولين البريطانيين من عواقب استخدام ذخيرة اليورانيوم على السكان، وخاصة الاطفال، الذين هم اكثر واخطر تأثراً باضراره، نظراً لما تطلقه من غبار سام يسبب السرطان. وحتى الركام، الذي تخلفه، يشكل خطراً على من يقترب منه (9). ونبه الى ان اليورانيوم المنضب إذا دخل في سلة الغذاء او الماء فإنه سيخلق مشاكل صحية كامنة (10). واكد العالم البريطاني كلارك Michael Clarke- الخبير بابحاث الطاقة الاشعاعية والاشعاع النووي، رئيس شعبة الاتصالات في المجلس الاستشاري القومي البريطاني للحماية من مخاطر الاشعاع النووي، أنهم حذروا الحكومة من خطورة وفعالية اليورانيوم كمادة مشعة، إذ يؤدي استنشاقها الى تأثر الرئتين على نحو بالغ باشعاعاتها، إضافة لاصابات كيمياوية بالغة للكليتين"(11).

وفي عام 1992 نبه البرفسور ميركاريمي Ross B Mirkarimi ، خبير البيئة في مركز بحوث رقابة الاسلحة في سان فرانسيسكو، بأن النتائج البيئية لحرب الخليج سوف لن تقتصر على منطقة القتال، وما لم يجر تحليل صحيح لمنع آثار الحرب الطويلة الامد، فقد يصبح عشرات الآلاف من المدنيين الابرياء، على بعد يصل الى 1000 ميل، ضحايا لإصابات إضافية. ومن المحتمل جداً ان يدفع الاطفال غير المولودين بعد في المنطقة الثمن الأغلى، ألا وهو سلامة عواملهم الوراثية (12).

وأكدت وثيقة صادرة عن السلاح الطبي الامريكي في عام 1995 بأن التعرض لتأثير ذخيرة اليورانيوم المنضب يتسبب بارتفاع حالات السرطان (في الدم والعظام والرئة) وتلف الكليتين والكبد وجهاز المناعة، ويسبب ايضاً التشوهات الجنينية (13).

وأوضح عالم البيولوجيا التجريبية البريطاني كوجهيل Rogers Coghill أمام مؤتمر علمي دولي في لندن عام 1999 بان دخول جزيء واحد من غبار اليورانيوم المنضب الى الجسم عبر التنفس واستقراره في غدة لمفاوية واحدة، من شأنه ان يدمر جهاز المناعة بكامله ويتلف الحامض النووي DNA ويسبب نشوء أورام خبيثة وتشوهات خلقية وعلل أخرى غير قابلة للعلاج (14).

من التداعيات الصحية والبيئية

انتشرت عقب استخدام أسلحة اليورانيوم المنضب على نحو وبائي حالات السرطان، التي أصابت مئات الآلاف، وقتل السرطان آلاف أخرى. وانتشرت التشوهات الخلقية، وعلل أخرى غير قابلة للعلاج. وبينت الدراسات العلمية إصابة المدنيين بمشاكل صحية واسعة النطاق طالت نظام المناعة والرئتين والكليتين والكبد والقلب، إضافة الى الأمراض السرطانية والعيوب الخلقية الشاذة الغريبة. وتؤكد التقارير الطبية ظهور حالات مرضية جديدة، موثقة، غير معروفة من قبل حتى في الكتب الطبية. ولا تزال آثارها طويلة الأجل شاخصة لليوم في العراق ويوغوسلافيا السابقة وأفغانستان، وغيرها.

ولم تقتصر التداعيات الصحية على المحاربين

(من الطرفين: المستخدمين للأسلحة ولضحاياها) وإنما طالت المدنيين المسالمين الأبرياء. فمن مجموع 720 ألف عسكري شاركوا بحرب الخليج الثانية عام 1991 أصيب أكثر من 360 ألفاً بـ"أعراض حرب الخليج"، أغلبهم من العسكريين الأمريكيين، ومات منهم بالسرطان أكثر من 40 ألفاً. وهناك أعداد أخرى وسط البريطانيين والكنديين والفرنسيين والايطاليين والهولنديين والعرب، وغيرهم. وثمة أدلة علمية قوية على تأثر أولاد هؤلاء العسكريين، من الرجال والنساء، بأضرار الحرب، تجسدت بأورام خبيثة وتشوهات خلقية وعقم وأمراض غريبة أخرى طالت العائدين من الحرب.. (للمزيد في هذا المضمار، راجع ما نشرناه في مجلة "الثقافة الجديدة" في الأعداد: 296، أيلول – تشرين الأول 2000، 318، أيار 2006، 322 – 323، كانون الأول 2007، 336، آذار 2010، 340 – 341، تشرين الثاني 2010، 353 – 354، تشرين الثاني/ 2012، 361 – 362، تشرين الثاني 2013، 381، كانون الأول/ 2016، 382، كانون الثاني 2016).

أما أضرار الذخائر المشعة على البيئة العراقية، فهي جلية حتى لأبسط إنسان، خاصة المزارعين والفلاحين في أرجاء العراق، الذين شهدوا حصول تغيرات هائلة حصلت على المزروعات العراقية. وقد شهد الجميع، مثلا، كيف ماتت الملايين من نخيل العراق الباسقة، حيث وصل العدد أقل من 14 مليون نخلة، بعد ان كان أكثر من 35 مليوناً. وكذلك تغير أوراق الأشجار والنباتات، وحجم ونوعية الفواكه والخضراوات، بما فيها الطماطم.. وانتشار أمراض وآفات زراعية وقوارض وزواحف قاتلة.

وعدا هذا، حصلت عقب الحرب تغيرات مناخية سيئة جداً، بما فيها تزايد العواصف الغبارية، خاصة ذات اللون البني والوردي، والجفاف، والتصحر، وانجراف الأرض، وتفكك الطبقة العليا من التربة، وغير ذلك من الظواهر التي جرت في الأراضي العراقية بسبب العمليات الحربية، بالإضافة الى وجود النفايات المشعة من مخلفات الحرب، التي تنتشر في أرجاء العراق.

الأسلحة الحديثة والقوانين الدولية

ثمة اتفاق دولي على عدد من القوانين والمعاهدات التي تضمن حقوق الانسان حتى في حالة الحرب، وتمنع التدمير المتعمد للملكية الخاصة والبنى التحتية للبلد، وتعريض حياة المدنيين، وبالأخص الأطفال، للخطر (15). في الحرب على العراق تم خرق ذلك. فقد استخدمت أسلحة اليورانيوم بكمية هائلة (أكثر من 3000 طن متري) خلال حربين مدمرتين، هدفتا عمداً مع سبق الاصرار لتدمير الانسان والبيئة العراقية، خلافاً للقوانين الدولية التي حظرت استخدام وسائل او اساليب القتال يقصد بها او قد يتوقع منها ان تلحق بالبيئة الطبيعية اضرارا بالغة واسعة الانتشار وطويلة الامد. وأكدت دراسات علمية رصينة، أن هذا التدمير المنظم الذي حصل ستمتد آثاره عبر الجغرافية والزمن لقرون مقبلة.

وقامت الولايات المتحدة الامريكية وحلفاؤها بقتل العسكريين العراقيين بوحشية، طالت حتى المستسلمين منهم، والذين دفنت الآلاف منهم وهم أحياء. ودمرت البيئة والبني التحتية، على نحو شامل. وقد اعتُبرَ كل ذلك جريمة حرب من الدرجة الاولى – بحسب تعريف القانون الانساني لجريمة الحرب التي تتصل اركانها بمجرد حصول انتهاكات جسيمة

لاتفاقيات جنيف (1949)، بما قامت به من تخريب شمل المدنيين وممتلكاتهم، كما تقوم اركانها بحصول انتهاكات خطيرة للقوانين والاعراف سارية المفعول خلال النزاعات المسلحة. ووفقا للمادة 4 من التعليمات الرسمية، والمادة 7 من قانون المحكمة الجنائية الدولية، فان ما سبق يُعدُ جريمة ضد الانسانية نتيجة لتأثيراته الصحية الضارة التي لا تميز بين المدنيين والعسكريين، والتي تستمر أضرارها لفترات طويلة بعد الانتهاء من العمليات العسكرية (16). ولذا، فان الموقف اللاأبالي من استخدام سلاح اليورانيوم، يشكل جريمة، وجريمة لا تغتفر، لأن نحو مليون قذيفة، من قذائف اليورانيوم، ألقيت على أرض العراق، مخلفة نحو 800 طن من اليورانيوم المنضب، وهي بلا شك تفوق تأثير قنبلتي هيروشيما ونغازاكي في الحرب العالمية الثانية، لكن ما أصاب العراق من التلوث، هو الأبشع من غيره، حيث يعتبر العراق الآن من أكثر مناطق العالم تلوّثا بالإشعاعات والمواد الضارة (17).

ولم يكن معقولاً ان لا يعرف قادة يملكون القدرة العسكرية والتكنولوجيا العالية بالنتائج السلبية التدميرية لاستخدام اسلحتهم، وبهذه الكثافة، على البيئة الطبيعية للعراق والمنطقة عموما وبشكل اكثر عمومية على بيئة الكرة الارضية. فاستخدام اليورانيوم المنضب سبب انتقال جزيئاته المشعة من بلد الى بلد اخر بفعل قوة الرياح، وحتى يصبح اليورانيوم بلا اشعاع، يتعين أن تنتظر الاجيال المقبلة 4.5 مليار سنة تنتشر فيها الامراض السرطانية المعروفة وغير المعروفة سابقا، وأصبحت سبباً أكيداً في التشوهات الخلقية بحيث تصبح نسبة كبيرة من الاجيال القادمة معوقة (18).

وكل ذلك شكل انتهاكاً صارخاً لحقوق الانسان للقانون الانساني الدولي، الذي يمثل مجموعة المبادئ والقواعد التي تحدّ من استخدام العنف أثناء المنازعات المسلحة أو من الآثار الناجمة عن الحرب تجاه الإنسان عامة، ويسعى إلى حماية السكان غير المشتركين بصورة مباشرة أو الذين كفوا عن الاشتراك في النزاعات المسلحة مثل الجرحى وأسرى الحرب (19).

حيثيات قانونية هامة

قدمت القانونية الأمريكية باركر Karen Praker (الخبيرة في القانون الإنساني الدولي وأستاذة حقوق الإنسان في جامعة سان فرانسيسكو بكلفورنيا سابقاً) توضيحات هامة بشأن الحرب والاسلحة للمفوضية العليا لحقوق الانسان التابعة للأمم المتحدة، بناء على طلبها، خلاصتها: ثمة 4 قواعد (معايير) يمكن استخلاصها من القانون الانساني الدولي في هذا المضمار:

أولا – تستخدم الاسلحة فقط في المنطقة المسماة قانونا بـ"ارض المعركة"، وهي تعرف من وجهة نظر القانون بكونها اهداف العدو في الحرب. ولا يجب ان يكون للاسلحة تأثيرات معاكسة خارجة عن الارض القانونية للحرب. ("المعيار الاقليمي").

ثانياً – تستخدم الاسلحة للفترة الخاصة بالصراع المسلح. وان الاسلحة التي تستخدم او التي يبقى تأثيرها لما بعد انتهاء الحرب تعتبر خرقاً لهذا المعيار – ("المعيار الزمني").

ثالثاً – يجب ان لا تكون الاسلحة غير انسانية بافراط – ("المعيار الانساني").

رابعاً – يجب ان لا يكون للاسلحة تأثير سلبي مفرط على الظروف الطبيعية المحيطة – ("المعيار البيئي") (20).

بالنسبة لأسلحة اليورانيوم المنضب، فإنها – من وجهة نظر البرفسورة باركر – تفشل في كل المعايير الاربعة، وذلك لأن تأثير اليورانيوم المنضب لا يمكن ان يتحدد استخدامه في ارض المعركة فقط، وإنما يمكن ان يتسع تأثيره الى مناطق اوسع بكثير من منطقة القتال (ولهذا يفشل في المعيار الاقليمي). ويبقى تأثير اليورانيوم المنضب لفترة اطول بكثير من فترة الحرب نفسها (يفشل في المعيار الزمني). وبعد توقف الحرب يتواصل التأثير الخطير لليورانيوم المنضب على البشر، وخاصة المدنيين (يفشل في المعيار الانساني). وأخيرا لا يمكن استخدام اليورانيوم المنضب بدون التخريب المفرط للبيئة ولمحيط ميادين القتال (يفشل في المعيار البيئي) (21).

وأفاد الجنرال الفرنسي غالوا Pierre Marie Gallois، أثناء استجوابه من قبل لجنة تابعة للمجلس الوطني الفرنسي، بان سلاح اليورانيوم المنضب هو سلاح فتاك مشابه للأسلحة الكيميائية المحرمة دولياً ببروتوكول جنيف الصادر في 17/6/1925 وميثاق باريس الصادر في 13/1/1993 (22).

من جهته، تناول ICBUW الأسلحة في القانون الدولي والحالة القانونية بالذات لأسلحة اليورانيوم المنضب، معلناً: بالرغم من عدم وجود اتفاقية محددة تمنع بشكل واضح وصريح استخدام هذه الأسلحة، فإنه من الواضح أن استخدام هذه الأسلحة يتعارض مع القوانين الأساسية المكتوبة والمتعارف عليها في القانون الإنساني الدولي، وذلك للأسباب الآتية:

• إنها تتعارض مع القانون الإنساني الدولي ومع القاعدة العامة التي تتعهد بحماية المدنيين من نتائج حالات الحرب والعداء، حيث هناك حدود لأنواع الأسلحة وطرق الحرب التي تؤدي إلى إصابات واسعة أو عذاب غير ضروري، بل هي ممنوعة (23).

• إنها تتعارض مع القانون الإنساني الدولي في ضوء منع الأسلحة السامة وفقاً للفقرة 1 من المادة 23 من أنظمة الهيج The Hague وقواعد بروتوكول الغاز السام. فهي ذات تأثير سام كيميائياً وإشعاعياً.

• كذلك في ضوء منع الدمار الواسع للبيئة الطبيعية والتدمير غير المبرر وفقاً لقوانين وأنظمة الهيج والبروتوكول الإضافي الأول لاتفاقيات جنيف.

• وأخيراً، في ضوء قاعدة "النسبية الإنسانية" المتضمنة في إعلان سان بطرسبرغ.

فضلاً عن ذلك، تستند القوانين الإنسانية والقوانين البيئية إلى الحذر الشديد وإلى قاعدة التناسب Proportionality في رد الفعل، التي ينبغي أن تلتزم بها الأمم في الحد الأدنى.

وأشار ICBUW الى قرارين صدرا حول حقوق الإنسان، الأول – يحمل الرقم 16/1996، والثاني – يحمل الرقم 36/1997، ونصا على أن استخدام ذخائر اليورانيوم المنضب لا ينسجم مع القوانين الدولية المرعية ولا قانون حقوق الإنسان (24).

إجمالا، ترتكز الآراء القانونية للخبراء والمؤسسات الدولية المناهضة لأسلحة اليورانيوم أو الذخائر المشعة، والداعية الى قرار أو معاهدة دولية تنص على حظر إستخدامها، الى ما يأتي:

• القوانين الدولية التي حظرت في البروتوكول الاضافي الاول الملحق باتفاقيات جنيف (المادة 35) (يحظر استخدام وسائل او اساليب القتال يقصد بها او قد يتوقع منها ان تلحق بالبيئة الطبيعية اضرارا بالغة واسعة الانتشار وطويلة الامد).

• ادلة الاثباتات، التي استند عليها حكم المحكمة الدولية لجرائم الحرب ضد الانسانية من قبل مجلس الامن الدولي ضد العراق، الصادر في مدريد، في 17/11/ 1996: استخدام طائفة عريضة من الاسلحة غير المشروعة، منها صواريخ وقذائف تحتوي على يورانيوم غير مخصب، لوثت التربة والمياه الجوفية باشعاعات خطيرة للغاية، بل ومميتة في بعض الاحيان، سوف تؤثر على السكان لآلاف السنين. والقيام بعمليات هجومية اجرامية على مصانع الاسمدة والمبيدات الحشرية وعلى مستودعات المنتجات الزراعية والغذائية، وكذلك على صهاريج النفط، وغيرها، معرضة سكان العراق للتلوث الكيمياوي والاشعاعات، ومسببة الموت والمرض والاصابات المستديمة (25).

• لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة، التي جددت في دورتها لعام 1996 إدانتها لاستخدام ذخيرة اليورانيوم المنضب بوصفها من اسلحة الدمار الشامل.

• اللجنة الفرعية لمنع التمييز وحماية الاقليات التابعة للامم المتحدة، التي إعتمدت في دورتها 48/1996 القرار 16/1996، الذي أعربت فيه عن القلق من استخدام اسلحة الدمار الشامل، سواء ضد افراد القوات المسلحة او السكان المدنيين. وحثت فيه كل الدول على كبح جماح إنتاج ونشر الأسلحة التي تحتوي على اليورانيوم المنضب.

• قرارات لجنة الاسلحة التقليدية التابعة للجمعية العامة للامم المتحدة: في 12 /8 /1948 وفي 12/11/ 1975 (الرقم 3479/30) وفي 10 /12 /1976 (الرقم 31/74) وفي 12 /12 /1977 (الرقم 32/84) وفي 12/13/ 1978 (الرقم 33 / 84 / 26) (B).

ضمانات مفقودة

لقد حددت اتفاقية جنيف لحماية ضحايا الحرب لعام 1949 والبروتوكولات الملحقة بها لعام 1977 القواعد العامة والخاصة لمسؤولية الدولة عن الأضرار الناتجة عن شن الحروب، مثال ذلك ما جاء في اتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 عندما حظرت تدمير ممتلكات وثروات الدولة المحتلة، وعليه فإن قيام سلطات الإحتلال بتدميرها يعد مخالفة وخرقا صريحا لقواعد القانون الدولي، لكونه عملا غير مشروع – بحسب د. بدرية العوضي – الخبيرة في شؤون القوانين والمعاهدات البيئية (27).

وعند مراجعة القانون الدولي نجد أنه يتضمن قواعد قانونية تحرم استخدام الأسلحة ذات التدمير الشامل والعشوائي على الكائنات الحية والبيئة، في المقدمة منها اتفاقيات لاهاي لعام 1899 و1907 واتفاقيات جنيف لعام 1949، التي أشارت إلى تحريم بعض الأسلحة ذات التدمير الشامل والواسع للبيئة وللمجتمع وللكائنات الحية، وأكدت على احترام قوانين الحرب على أرض المعركة. كما تم إبرام عدد من الاتفاقيات الثنائية والدولية التي حددت الأسلحة المحظورة دوليا ونخص بالذكر منها معاهدة حظر الأعمال العدائية والحربية التي من شأنها إحداث تغييرات في البيئة لعام 1977، والاتفاقية الدولية لحظر أو تقييد أسلحة تقليدية معينة يمكن اعتبارها مفرطة الضرر أو عشوائية الأثر التي صدرت في جنيف عام 1980.

لكن الخروقات السافرة والأعمال الإجرامية لبعض الدول وعدم محاسبتها، حولت في الواقع اتفاقيات جنيف الى حبر على ورق. أكد ذلك بيان صدر عن الرئاسة السويدية للاتحاد الاوروبي، بمناسبة مرور 60 عاما على اتفاقيات جنيف

لحماية المدنيين خلال الحروب، جاء فيه:" بالرغم من القبول العالمي للمعايير التي تضمنتها الاجراءات الاضافية لاتفاقيات جنيف الاربع، الا ان المدنيين ما يزالون يتحملون حتى الآن وطأة نتائج النزاعات المسلحة، ولا بد من ضمانات لاحترام القوانين الدولية أكثر من أي وقت مضى". وأضاف: "إن وجود ضمانات لاحترام القوانين الدولية، يتطلب جهوداً مستمرة لتعبئة الارادة السياسية، وزيادة الوعي بالقانون الانساني العالمي، وخاصة في ظل تكرار ارتكاب انتهاكات وفظائع بشكل جرائم حرب". وكرر البيان، الذي عبر عن وجهة نظر الاتحاد الاوروبي، اهمية اتفاقيات جنيف، واعتبر ان التوقيع عليها قبل ستين عاما كان انجازا كبيرا ولا يزال. واشار الى ان الدول الاعضاء في الاتحاد وقعت على تلك الاتفاقيات في عام 1949 وايضا على الاجراءات الاضافية في عام 1977، وعام 2005.. هذه الاتفاقية عقدت عليها الآمال كثيرا في حماية الآلاف من الأشخاص خلال الحروب التي تقع بين الدول. لكن الواقع ومن خلال التجارب كان أمراً آخر. رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر جاكوب كيللينبرجر أعلن خلال مؤتمر صحفي في فيينا عام 2009: "إن هذه الاتفاقيات أثبتت أنها مفيدة جدا لحماية آلاف الاشخاص، لكن انتهاكات القانون الدولي الانساني ميدانيا تستمر بشكل منتظم" (28).

تصاعد المطالبة بحظر أسلحة الدمار والفتك الحديثة

لم تنص الاتفاقيات والمعاهدات الخاصة بحظر استخدام الأسلحة النووية أو التقليدية ذات التدمير الشامل والعشوائي، على أسلحة اليورانيوم أو الذخائر المشعة، بشكل مباشر، لأنه سلاح حديث نسبيا.بيد ان النتائج التدميرية الرهيبة لاستخدامها وتأثيراتها الوحشية على الكائنات الحية وبقية عناصر البيئة، تعتبر حججا كافية لاعتبارها محرمة طبقا للمبادئ والأسس الواردة في المواثيق الدولية، والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، والعهدين الدوليين لحقوق الإنسان، ومبادئ القانون الإنساني الدولي والقانون البيئي الدولي.

بالاستناد الى ذلك، انبثقت في العديد من الدول منظمات غير حكومية مناهضة لهذه الأسلحة، ومطالبة بحقوق الضحايا. وإدراكاً للمخاطر الدولية الكبيرة، خصوصاً عقب تطوير هذه الأسلحة واستخدامها ضد دول عديدة، تأسس في عام 2003 التحالف الدولي لحظر أسلحة اليورانيوم (ICBUW)، جامعاً شمل كافة المنظمات المدنية المعنية بالموضوع، وهو حالياً يضم 168 منظمة من 34 بلداً في أرجاء العالم.

هذه المؤسسة الدولية المستقلة ترى ان استخدام الأسلحة التي تحتوي اليورانيوم المنضب يجب ان يكون بالفعل غير قانوني، ويحظر بموجب القانون الإنساني الدولي والقانون الجنائي الدولي، ضمن معاهدة دولية تحظر بشكل خاص استخدامها ومن ثم منع إنتاجها وبيعها. وقد أعدت مشروع معاهدة دولية تحظر استخدامها، الى جانب فرض الرقابة الصحية وتعويض المجتمعات التي تضررت من استخدامها، إضافة للمعالجة البيئية للمواقع التي تعرضت للتلوث باليورانيوم المنضب.

وما أنفك ICBUW يخوض حملة دولية لهذا الغرض، مستندة لمعطيات علمية ووقائع وإثباتات مقنعة تتعلق بخطورة إستخدام هذه الأسلحة، مستعيناً بعلماء وخبراء وأكاديميين وباحثين متخصصين، بيئيين وفيزيائيين وكيميائيين وبايولوجيين،

لهم دورهم المشهود في كشف طبيعة أسلحة اليورانيوم وسميّتها الكيميائية والإشعاعية وأضرارها البيولوجية.

وأثمرت جهوده بتحقيق إنجازات هامة، ولعل أهمها هو طرح الموضوع على الجمعية العامة للأمم المتحدة، اللجنة الأولى (لجنة نزع السلاح والأمن الدولي) منذ عام 2007 ولحد اليوم. وفي عام 2014 نظرت الجمعية العامة في دورتها التاسعة والستين بـ"آثار استخدام الأسلحة والذخائر التي تحوي اليورانيوم المنضب"، ووافقت عليه 150 دولة، لكن القرار يستوجب ان يكون جماعياً، ولإحباط ذلك تصوت ضده في كل مرة: أمريكا، بريطانيا، فرنسا وإسرائيل (أكثر الدول امتلاكاً واستخداماً لها) ويمتنع عن التصويت عدد من الدول، بتوجيه وضغط من الادارة الأمريكية.

ونظرت الجمعية العامة في دورتها الحالية (الحادية والسبعين)، من جديد، بقرار يحظر استخدام أسلحة اليورانيوم، وصوتت ضده، في التصويت الأولي، الذي جرى في تشرين الثاني 2016، الدول الأربع السالفة، كالعادة، وامتنعت 26 دولة عن التصويت بضغط أمريكي. التصويت الثاني سيكون في مطلع كانون الأول 2016، وهو الحاسم. وقد يزداد عدد الدول المصوتة الى جانب القرار المطلوب، لكنه لن يمرر هذه المرة أيضاً.

ومع تصاعد المطالبة في العالم بالوصول لاتفاقية دولية قوية، تنظر الجمعية العامة في دورتها الحادية، المنعقدة حالياً في نيويورك، أيضاً بالمطلب الملح بعالم خال من الأسلحة النووية، مجسداً بمشروع قرار يدعو لبدء مفاوضات الحظر الشامل للأسلحة النووية. وقد اضطر مجلس الأمن الدولي ان يعتمد في 23/9/2016 مشروع قرار لدعم معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية. وهو ما يستلزم من جميع المناهضين لأسلحة الدمار الشامل ونشطاء حقوق الانسان ومحبي السلام، ان يلعبوا دوراً أكبر وأوسع، في التعريف بمخاطر هذه الأسلحة على مستقبل البشرية، والتعريف بالجوانب القانونية، وبانتهاكات حقوق الانسان، وبخروقات القانون الدولي، من قبل داعمي صناعة هذه الأسلحة ومستخدميها، والسعي لإيصالها الى أوسع نطاق دولي، هذا الى جانب الضغط على الحكومات للوقوف الى جانب القرار المنتظر، ومواصلة الضغط ليتم طرح الموضوع على مجلس الأمن.

وحتى يتحقق الهدف النبيل بتحريم هذه الأسلحة الفتاكة لا بد من مواصلة الحملة ضدها وبنطاق أوسع.

ستوكهولم، 11 /11 /2016

الهوامش

1 – غنوة الدقدوقي، أمراض الحروب، "المقهى العلمي" 24/ 4/ 2008، Café des sciences . www.rasit.org/files/WarIllnesses.pps

2 – وكالات الأنباء، 17 /6 /2015.

3 – "الآن نيوز" – وكالات، 17 /6 /2015.

4 – محمد علي الجزائري، حرب النفط واليورانيوم جريمة العصر، دار السلام، بيروت، 2011، ص 313.

5 – United States confirms that it has fired depleted uranium in Syria،ICBUW، 21 Oct. 2016

6 – Coalition partners apparently unaware that US had used depleted uranium in Syria، ICBUW، 31 October 2016 –

7 – كاظم المقدادي، مصلحة البشر تقتضي الحظر الفوري لاستخدام أسلحة اليورانيوم، "المدى": آراء وأفكار، 8/ 11/ 2016.
8–Military Toxics Project Confirms NATO is Using DU Munitions in Yugoslavia and Releases Resultes of Medical Study Indicating Potential for Fatal Cancers", MTP ،Press Release، 4/ 5 / 1999
9 – "الأيندبندنت" البريطانية، 10 /11 /1991.
10– Simons، Geof ;The Scourging of Iraq: Sanctions، Law and Natural Justice، New York، St. Martin´s Press، 1996
11 – كفاية اولير، إستنشاق دقائق اليورانيوم الناضب.."الشرق الاوسط"، 13 /11 /1999.
12–Mirkarimi ، Ross B;The Envinormental and Human health Impact of The Gulf Region with Special Reference to Iraq ، Arms Control Research Centre، San Francisco، Now are Ecology، May 1992
13–Military Toxics Project1999– ibid.
14– Depleted uranium 'threatens Balkan cancer epidemic'، By Environment Correspondent Alex Kirby ، Sci/Tech– BBC News– Friday، July 30، 1999
15 – محمد علي الجزائري، حرب النفط واليورانيوم...، مصدر سابق، ص 276.
16–Al–Azazawi، Souad; The Responsibility of the US in Contaminating Iraq with Depleted Uranium ، Global Research، November 8، 2009
17 – عبد الله بشرى الهاشمي، اليورانيوم المنضب .. جريمة تفوق ما فعلته أميركا في هيروشيما،"الشرق الاوسط"، 16/1/ 2001.
18 – طارق عيسي طه، هل يصلح العطار ما افسد الامريكان؟، "الزمان"، 10 /5 /2008
19 – القانون الدولي الأنساني بقلم القاضي جمال شهلول– الجمهورية التونسية، الأكاديمية العربية في الدنمارك، المكتبة.
http://www.ao–academy.org/wesima_articles/library–20090323–1873.html
20– Parker، Karen، Depleted Uranium at the United Nations: A Compilation of Documents and Explanation and Strategy Analysis، Campaign Against D pleted Uranium، Manchester، 2000.
21 – استخدام اليورانيوم –المنضب– في نظر القوانين والمعاهدات الدولية، ترجمة للفصل 13 من كتاب: (اليورانيوم "المنضب" – مميت، خطر، وعشوائي – الصورة الكاملة)، ترجمة: عزام مكي، موقع: "اليورانيوم المنضب– معدن الخسة".
http://homepage.ntlworld.com/azzam.maki/DU_Laws.htm
22 – محمد علي الجزائري، حرب النفط ....، مصدر سابق، ص 280.
23 – من الاتفاقيات الدولية: اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب. والبروتوكول الأول الإضافي إلى اتفاقيات جنيف المتعلق بحماية ضحايا المنازعات الدولية المسلحة، 12 /8 /1949.
24– International Coalition to Ban Uranium Weapons (ICBUW)، Uranium weapons briefing، 2007
25 – جيف سيمونز، التنكيل بالعراق: العقوبات والقانون والعدالة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.
26 – كاظم المقدادي، جريمة إستخدام السلاح المحظور دولياً ضد الشعب العراقي وأبعادها بين الصمت واللاإكتراث والنتائج ، "المستقبل العربي"، العدد 259 (9 /2000)، أيلول 2000.
27 – بدرية عبد الله العوضي، المسؤولية الدولية للعراق عن الدمار البيئي، جماعة الخط الأخضر البيئية الكويتية، أيار 2005.
http://www.greenline.com.kw/env&law/036.asp
28 –عبد الله مصطفى، اتفاقيات جنيف.. حبر على ورق!، "الجيران"، 6 /9 /2009.

السياسة الخارجية والقوة الناعمة الأمريكية

علي كريم ناصر الهلالي

علي كريم ناصر الهلالي موظف حكومي، وناشط سياسي ومدني، له العديد من المقالات المنشورة في العديد من الصحف العراقية.

من الصعب إعطاء تعريف محدد وواضح للسياسة الخارجية فكل باحث ينظر لها من وجهة نظر خاصة ولكنها على العموم تعرف بأنها ذلك الجزء من النشاط الحكومي الموجه نحو الخارج لمعالجة مشكلات ما وراء الحدود وهي بذلك تتجه نحو أمرين هما:

1. قرارات حكومية تتخذ من قبل صانع القرار.
2. أفعال تعالج مشكلات خارجية وتهدف لتحقيق أهداف معينة.

السياسة الخارجية الأمريكية:

تعد الولايات المتحدة الأمريكية الدولة الأقوى في العالم في المجالات العسكرية، السياسية، الاقتصادية، التكنولوجية، الثقافية. وقد ظهرت منذ الحرب العالمية الأولى بوصفها قوة كبرى لها شأن في النظام الدولي واستمر دورها ونفوذها في التصاعد بسبب انتصاراتها في الحرب العالمية الثانية ونجاحها في جعل اوربا مسرحا للحرب وإبعادها عن الأراضي الأمريكية. ثم بدأت مرحلة "الحرب الباردة" التي انتهت بانهيار الاتحاد السوفيتي وانفراد الولايات المتحدة بقيادة النظام العالمي. وفي العقد الأخير من القرن العشرين استمرت الولايات المتحدة في محاولة صياغة وفرض "النظام العالمي الجديد" لتكريس الهيمنة الأمريكية إلا أنها كانت تفتقد العدو أو ما يسمى بـ (المحفز الاستراتيجي) الذي يوفر لها الدعم والتحشيد الداخلي والدولي وعندما جاءت أحداث 11 أيلول/ سبتمبر 2001 بعد أشهر من تسلم بوش الابن رئاسة الولايات المتحدة والتي شكلت نقطة تحول للسياسة الخارجية الأمريكية ولمجمل النظام الدولي، ابتدأت الولايات المتحدة في تنفيذ استراتيجيات ومخططات الهيمنة مستفيدة من وقوف أغلب دول العالم إلى جانبها، في الوقت الذي تجاهلت فيه الأمم المتحدة والقانون الدولي. وبذلك تحولت السياسة الخارجية الأمريكية بعد أحداث 11 أيلول 2001 إلى عبء على الولايات المتحدة، وأدت إلى تراجع كبير في شعبيتها في أنحاء العالم كافة. ومع بداية الدورة الثانية من إدارة جورج بوش الابن أصبحت

السياسة الخارجية أقل حدة والسبب يعود إلى الانشغال الأمريكي في أفغانستان والعراق ورغبة العديد من الدول في أداء دور أكبر في النظام الدولي، سواء كان ذلك على المستوى الإقليمي أم الدولي والذي تزامن مع أزمة مالية حادة، بدأت ملامحها بالظهور لتصل إلى ذروتها في ايلول/ سبتمبر عام 2008 وتتحول إلى أزمة مالية عالمية البعد. في ضوء هذه الظروف الصعبة تسلم الرئيس (بارك أوباما) الرئاسة الأمريكية فطرح فكرة الشراكة والقيادة وإحياء المنظمات الدولية والتحول من "القوة الصلبة" إلى "القوة الناعمة". ان ما ساعد على هذا التحول هو إن الولايات المتحدة الأمريكية قوة متعددة الأبعاد، وبالتالي تمتلك كل مقومات القوة الناعمة والأدوات الازمة لاستغلالها، وتعد المساعدات الخارجية واحدة من اهم أدوات السياسة الخارجية للولايات المتحدة وهي طريقة لشراء النفوذ لدى الحكومات الأجنبية. لذلك فإن قطع هذه المساعدات انما يأتي لمعاقبة سلوك ما قد يضر بمصلحة الدولة المانحة ومن خلال هذا المنطق، إن معظم المساعدات تعطى لأغراض سياسية بغية تقويض أو دعم الحكومات الصديقة والفاشلة وتعزيز قوة الحلفاء.

السياسة الخارجية الأمريكية والقوة الناعمة الأمريكية. سنتناول هذه الاشكالية من خلال المحاور الآتية:

المحور الأول: السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين.

المحور الثاني: التحول في السياسة الخارجية الأمريكية من القوة الصلبة إلى القوة الناعمة.

المحور الثالث: مقومات القوة الناعمة الأمريكية.

*****

المحور الأول: السياسة الخارجية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين

شهدت الفترة من عام 1990 إلى عام 2010 متغيرات وتقلبات عدة أثرت بشكل أو آخر على دور ومكانة الولايات المتحدة في النظام الدولي. فقد شهدت بداياتها إعلان التفرد الأمريكي والأحادية القطبية، لتكون بداية للتحول في السياسة الأمريكية، وشهدت نهايتها بداية تراجع النفوذ الأمريكي، وسيتم إيضاح المتغيرات الأساسية في هذه الفترة وتوضيح مدى تأثيرها على دور الولايات المتحدة، بدءا من نهاية الحرب الباردة، مرورا بأحداث 11 أيلول عام 2001

نهاية الحرب الباردة وبداية الهيمنة الأمريكية

أدى انهيار المعسكر الاشتراكي في الحرب الباردة إلى أن تصبح الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى الوحيدة في العالم، فلم تعد تواجه أي منافس عالمي، ولا أي تحالف معاد ذي شأن يمكن أن يهدد أمنها ومصالحها الحيوية. وعلى الرغم من تراجع قوتها الاقتصادية إلا أنها ما زالت تمتلك أكبر اقتصاد في العالم وإلى جانب هيمنتها العسكرية. وبعد بروزها قوى عظمى وحيدة في العالم أصبحت الولايات المتحدة تواجه تحديات وخيارات تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي واجهتها خلال الحرب الباردة وأصبحت في الحقبة الأخيرة من القرن العشرين في وضع متناقض لكونها لا تواجه منافسين قادرين على مسايرة قوتها العالمية الشاملة إلا أنها بدأت تواجه قوى قد تهدد بتقويض دورها في العالم وقدرتها على التأثير بشكل فاعل في النظام الدولي. وبما أن تفكك الاتحاد السوفيتي لم يحدث

كما هو معروف بحرب عسكرية بل لعوامل داخلية لذلك كانت الولايات المتحدة مدركة بأنها بحاجة الى حرب شبه "عالمية" تكون فيها الطرف المنتصر وتعلن من خلالها ميلاد نظام دولي جديد وهذا ما حصل بالفعل في حرب الخليج الثانية إذ اضطرت الولايات المتحدة (المنشغلة في مراقبة تداعي تفكك الاتحاد السوفيتي في عام 1990) للتوجه الى أزمة أخرى وهي احتلال العراق للكويت. مما أعطى مسوغ اخر للسيطرة الأمريكية الجديدة على العالم ولمكانتها العالمية الجديدة، فكان احتلال العراق للكويت بمثابة فرصة للولايات المتحدة، لكي تستعرض قوتها وتعلن هيمنتها على النظام الدولي وبداية لعصر "الأحادية القطبية". وعلى هذا الأساس وجدت الاستراتيجية الامريكية نفسها امام مهمة وضع واعتناق رؤية وإدراك استراتيجي جديد، يحدد دورها في النظام الدولي، لذا كان من الضروري استبدال عقيدة الأمن القومي القائمة على معاداة الشيوعية بصياغة منظومة فكرية توجه بها وتملأ من خلالها الفراغ الدولي الناتج عن هذا التفكك (الاتحاد السوفيتي). وتحت تأثير الايديولوجيا النيوليبرالية ورهاناتها لوحظ أن هناك "قبولا ملحوظا" قد ظهر في السنوات القليلة الماضية حول "شرعية الديمقراطية اللبرالية" كنظام للحكم بعد أن لحقت الهزيمة بالآيدلوجيات المنافسة وأن الديمقراطية الليبرالية قد تشكل "نقطة النهاية في التطور الآيدلوجي للإنسانية" و"الصورة النهائية لنظام الحكم البشري"، وبالتالي فهي "تمثل نهاية التاريخ" – كما صرح بذلك فوكوياما. وبينما شابت بعض أشكال الحكم السابقة عيوب وانتهاكات أدت إلى سقوطها فأن الديمقراطية الليبرالية قدمت من طرف منظريها وعرابيها على انها خالية من تلك العيوب والتناقضات! ونظرا لان الولايات المتحدة، في ظل توازن القوى الذي ساد بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، فانها – اي الولايات المتحدة – تأتي في مقدمة الدول من حيث امتلاك عناصر القوة المتكاملة وإنه لا توجد دولة في العالم تمتلك هذه القوة المتعددة الأبعاد لتهديد زعامة الولايات المتحدة الأمريكية ويعتقد أن المجتمعات الناجحة هي التي تبتكر أساليب الحفاظ على ديناميتها، لهذا يرى أن "انتهاء الحرب الباردة غير كل التوازنات بحيث لم تعد هناك حاجة لإيجاد القوة الكافية لخدمة الأهداف الأمريكية بل على العكس إيجاد أهداف محددة لاستخدام القوة الأمريكية"، لا سيما وأن المجتمع الأمريكي قد طور نفسه ودولته من خلال الاعتماد على التحشيد الجماعي ضد "عدو" قريب أو بعيد فالعدو حتى وإن كان وهميا مطلوبا وجوده لقدرته على إيجاد مستوى عالي من التعبئة الداخلية. ففي فترة كان الهنود الحمر وفي أخرى المستعمر البريطاني وثالثة الأسبان والرابعة اليابان والخامسة ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية ومن ثم تبعها الاتحاد السوفيتي الذي احتل المكانة الأبرز وبعد سقوطه كان الارهاب المتمثل (بالقوى الاسلامية المتشددة كالقاعدة). ويذكر صومائيل هنتغتون صاحب كتاب "صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي"، إن عالم ما بعد الحرب الباردة مكون من سبع أو ثمان حضارات، و"ان الصراع في العالم الجديد لن يكون بين الطبقات الاجتماعية" أو بين الغني والفقير أو بين جماعات أخرى محددة اقتصاديا . "الصراعات ستكون بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة"، وإن الحروب القبلية والصراعات العرقية سوف تحدث داخل الحضارات إلا ان العنف بين

الدول والجماعات التي تنتمي الى حضارات مختلفة يحمل معه إمكانية التصعيد، فتهب دول وجماعات من تلك الحضارات وتتجمع لدعم "دول القربى" و(إن الخطر الأكبر على الحضارة الغربية هو الحضارة الاسلامية والحضارة الكونفوسيوشية لذلك من المرجح أن تكون علاقة الغرب بالإسلام والصين متوترة على نحو ثابت وعدائية جدا في أغلب الأحوال).

المحور الثاني: التحول في السياسة الخارجية الأمريكية من "القوة الصلبة" إلى "القوة الناعمة"

هنالك أسباب عديدة لتحول الولايات المتحدة الأمريكية نحو القوة الناعمة والتكيف مع مستجدات ومتغيرات الساحة الدولية الجديدة؛ إذ أن هذا التحول بدأ من التراجع الواضح للولايات المتحدة وهيمنتها على العالم مرورا بالأزمة المالية العالمية وظهور تكتلات دولية مناوئة لها وانتهاء بصعود كل من روسيا الاتحادية والصين باعتبارهما تشكلان التحدي الأكبر للولايات المتحدة الأمريكية وأيضا نتيجة لتراجع القوة الاقتصادية الأمريكية. لذا فقد انحسرت الهيمنة الأمريكية عالميا ولم تعد كما كانت عليه في سنوات 2000 و 2005 وأصبح واضحا أن الولايات المتحدة لا يمكن أن تتحرك في كثير من الملفات في العالم من دون دعم قوى أخرى وموافقتها؛ فلا يمكن مثلا التحرك بشان إيران أو سوريا او كوريا الشمالية دون تجاوب دول أخرى مثل الصين وروسيا الاتحادية ودول الاتحاد الأوربي. وبدأت الدول الكبرى في البحث عن دور اكبر بل ومزاحمة الولايات المتحدة في مناطق نفوذها ما شكل استفزازا لها، ومثال على ذلك طلب الرئيس الأوزبكستاني (أسلام كريموف) وبدافع من روسيا الاتحادية بإخراج قاعدتها العسكرية (كرشي) من أوزبكستان في غضون ستة أشهر غير قابلة للتفاوض. ومثال آخر هو اتفاق فرنسا مع الامارات العربية المتحدة على بناء قاعدة عسكرية فرنسية وتعتبر الأولى للدول الأوربية في منطقة الخليج العربي، بعد أن كانت الدول الأوربية تحاول الحصول على أية مشاركة في حفظ أمن الخليج الذي كانت تتفرد به الولايات المتحدة الامريكية. ووفقا لذلك أصبحت "الاحادية القطبية" جزءا من الماضي والقوة الاقتصادية والسياسية في أيادي متعددة، وهذا لا يعني أن الولايات المتحدة، قد فقدت موقعها في العالم، بل ستبقى أقوى قوة لكنها غير قادرة على الهيمنة ولا على املاء برامجها على الآخرين. ومن هذا المنطلق تشغل الولايات المتحدة الموقع الأعلى في النظام الناشئ إلا انها تعد البلد الأقل استفادة من النظام الجديد، إذ أن معظم القوى الكبرى الأخرى ستشهد تناميا في أدوارها في العالم؛ فالصين والهند تتحولان إلى لاعبين كبيرين في منطقتيهما، وروسيا الاتحادية انتهت من مرحلة التأقلم التي تلت نهاية الاتحاد السوفيتي وها هي تزداد قوة. وهنالك اوربا تحرز تقدما ملحوظا في المجالات التجارية والاقتصادية بقوة وتصميم، وصوت البرازيل والمكسيك يسمع بقوة في قضايا أمريكا اللاتينية. ويمكن القول بأن دور الولايات المتحدة يختلف اختلافا جذريا عن دور دول القوة العظمى التقليدي؛ إذ يتضمن التشاور والتعاون وحتى التنازل. وما ساعد الولايات المتحدة على ذلك هو أنها "قوة متعددة الأبعاد"، كما ذكر (صاموئيل هنتنغتون)، حيث تتمتع بالتفوق بعدة مصادر رئيسية للقوة منها:

1 – حجم السكان وتعليمهم؛
2 – الموارد الطبيعية؛
3 – النمو الاقتصادي؛
4 – الاستقرار السياسي؛
5– الإنجاز التكنولوجي؛
6 – القوة العسكرية؛
7 – التحالفات السياسية.

وتكون بذلك تتحمل تراجع احد هذه العناصر مع الاحتفاظ بتفوقها الكلي المستمد من المصادر الأخرى.

المحور الثالث: مقومات القوة الناعمة الأمريكية

المقصود بالقوة الناعمة هو قدرة الدولة على الحصول على النتائج التي تريدها بالاعتماد على الجاذبية بدلا من الإكراه (1). إذ تتمكن دولة ما من الحصول على ما تريده لأن الدول الأخرى مؤمنة بنموذجها وتحاول أن تتبعه على قدر الإمكان. وبالانتقال من المجرد الى الملموس فانه بإمكان دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية ان تحصل على النتائج التي تريدها في السياسة الدولية، لأن الدول الأخرى تريد اللحاق بها وإتباعها؛ اما إعجابا بقيمها أو تقليدا لنموذجها أو تطلعا للوصول إلى مستوى ازدهارها ورفاها وانفتاحها. لهذا من الأهمية بمكان أن تضع برنامجا في السياسة الدولية يجذب الآخرين إليك، وألا تجبرهم على التغير من خلال التهديد أو استخدام القوة الصلبة بل عبر الاهتمام بنموذجك.

ركائز القوة الناعمة:

1. ثقافة البلد (في الأماكن التي تكون فيها جذابة للآخرين).
2. القيمة السياسية (عندما يطبقها باخلاص في الداخل والخارج).
3. السياسة الخارجية (عندما يراها الآخرون مشروعة وذات سلطة معنوية أخلاقية).

فهنالك تفضيل قيمي لمفهوم القوة الناعمة من قبل بعض الباحثين وصناع القرار من أن اصحاب النزعة الأخلاقية باعتبارها بديلا للسياسات القائمة على الأشكال الأخرى الأكثر عنفا. إلا أن الواقع يشير إلى تشابه القوة الناعمة مع الأشكال الأخرى للقوة في إمكانية استخدامها وتوظيفها لأغراض جيدة أو سيئة.

أهم مصادر القوة الناعمة الأمريكية:

1 – تستقطب الولايات المتحدة ما يقارب ستة أضعاف المهاجرين الأجانب، أكثر من المانيا التي تليها في ذلك (هذه الاحصائية قبل الهجرة الحالية).

2 – تمثل الولايات المتحدة اول مصدر للأفلام والبرامج التلفزيونية في العالم على الرغم من ان (بوليود) الهندية تنتج أكثر منها سنويا.

3 – ما يقارب وجود 1،6 مليون طالب يدرسون خارج اوطانهم، ومن هذا الرقم نجد ان نسبة 28% يدرسون في جامعات الولايات المتحدة.

4 – تحتضن المؤسسات التعليمية الأمريكية أكثر من 8600 باحث اجنبي حسب احصائية عام 2002.

5 – تحصل الولايات المتحدة على المرتبة الأولى في الفوز بجوائز نوبل في مجالات الفيزياء والكيمياء والاقتصاد.

6 – شغلت الولايات المتحدة موقع الصدارة في العالم عام 2007 من حيث الاستثمار في مجال البحث والتطوير، بحجم يبلغ ما يقارب 369 مليار دولار، تليها

آسيا برمتها بحجم بلغ 338 مليار دولار، والاتحاد الأوربي بحجم بلغ 263 مليار دولار.

7 – تنفق الولايات المتحدة على التعليم العالي نسبة من اجمالي ناتجها المحلي تساوي ما تنفقه كل من فرنسا وألمانيا واليابان والمملكة المتحدة.

القوة الناعمة في الهيمنة الثقافية الأمريكية:

رغم كل ما قيل عن التراجع الأمريكي إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية ما زالت تمتلك مقومات القوة الصلبة والناعمة؛ إذ أنها القوة الاقتصادية والعسكرية الأولى في العالم وهي الدولة الأقوى سياسيا لا سيما وأنها تمتلك كل مقومات القوة الناعمة والوسائل اللازمة لاستغلالها. وهذا هو موضوع البحث؛ إذ سنبحث في الهيمنة الثقافية الأمريكية بشكل عام والمقومات الأساسية للقوة الناعمة الأمريكية بشكل خاص، وما هي أبرز الأدوات التي تستخدمها الإدارة الأمريكية في هذا المجال. ولكن يرى البعض أن القوة الناعمة محدودة النطاق وهي ليست سوى (قفاز يخفي يدا من حديد) أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية ما بين عامي 1990 و 2000 القوة المنفردة فعليا في العالم، وذلك بسبب الفراغ الهائل الذي خلفه انهيار الاتحاد السوفيتي. وكذلك تزامن ثورة التقنيات والمعلومات وظهور عالم الانترنت والفضائيات وسيطرة الموسيقى والأفلام والقنوات الأمريكية على مختلف شعوب العالم، فضلا عن امتداد موجة اللبرلة السياسية والاقتصادية إلى اوربا الشرقية وسائر بلدان العالم، فقد أضحى النموذج الأمريكي المدعوم بضخامة الجيش وتقدم التقنيات، الأمر الذي جعله ملهما ومؤثرا لقطاعات اجتماعية واسعة وخاصة شرائح الشباب. وعلى الصعيد الثقافي نجد أن الولايات المتحدة تبقى الأكثر نفوذا وتأثيرا في العالم المعاصر مستفيدة من شيوع اللغة الانكليزية. والملاحظ وجود عشرات الملايين من الناس ممن يأكلون ويلبسون وفق الطراز الأمريكي ويشاهدون بشغف أفلامها. كما أن الهيمنة الثقافية تهدف الى فرض نمط قيمي وحضاري ومفاهيمي وهو (حقوق الانسان، الديمقراطية، الحريات) إذ ان العالم يعيش مرحلة هيمنة القيم والثقافة الأمريكية من خلال طروحات سوقتها العولمة بطبعتها الرأسمالية وبذلك أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية مركز الاهتمام العالمي أكثر من أي بلد آخر. فالقوة الناعمة الأمريكية أنتجتها هولويود، وبرمجيات مايكروسوفت.

القوى المقاربة للقوة الناعمة:

1. القوة الصلبة:

هنالك مفاهيم وتفسيرات عدة للقوة الصلبة منها القدرة على إجبار طرف معين على القيام بعمل ما من خلال التهديد والترهيب والإغراء، وقد يكون بشكل مباشر من خلال التهديد السياسي والاقتصادي أو العسكري، لإجبار الطرف الثاني على الإذعان أو يكون بشكل غير مباشر مثل تسريب وثيقة أو مذكرة إلى الإعلام للضغط على الطرف الثاني. لذا تتكون القوة الصلبة من عناصر القوة العسكرية والاقتصادية، وتمثل القوة العسكرية الشكل التقليدي للقوة الصلبة. أما المكون الثاني للقوة الصلبة فهو القوة الاقتصادية؛ إذ يعد الاقتصاد من أبرز العوامل المؤثرة في قوة الدولة.

وهنالك شكلان رئيسيان لاستخدام القوة الاقتصادية:

• العقوبات: وتكون على شكل مقاطعة الواردات والحظر على الصادرات وفرض القيود على الاستثمار ومنع السفر.

• المنح والمساعدات: أي مكافأة الدولة بسبب تغير سلوكها من قضية معينة.

تنتج عن القوة الاقتصادية سلوكيات تندرج في إطار القوة الصلبة والناعمة لأنها قوة مرنة مثلما ما تمتلك القدرة على الإغراء لها القدرة على الإكراه. وهنالك من يعتقد أن القوة الصلبة هي الأداة الأكثر فعالية في السياسة الخارجية.

شكل يوضح تداخل الاقتصاد بين القوة الصلبة والقوة الناعمة

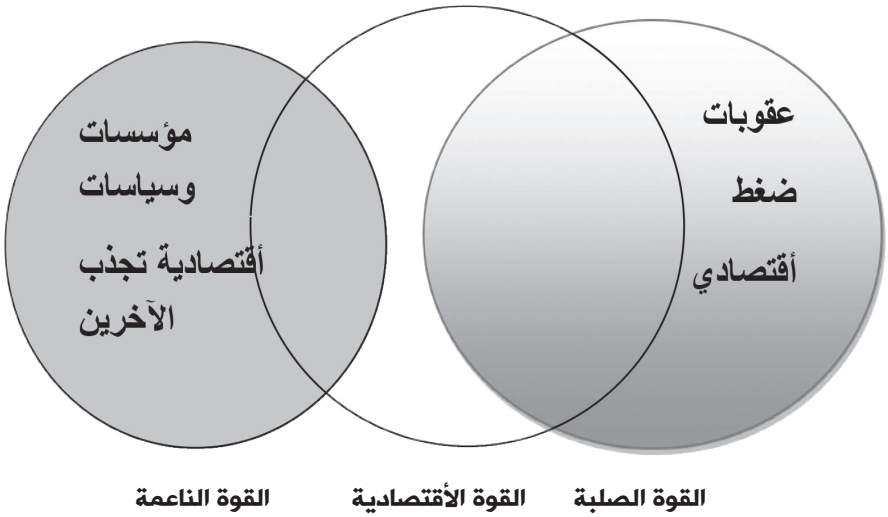

2. القوة الذكية:

وتقوم على فكرة الجمع بين القوة الصلبة والناعمة وهي مزيج من كليهما وتعني تطوير إستراتيجية متكاملة تستند إلى قاعدة من الموارد والى مجموعة من الأدوات للوصول الى الأهداف من خلال القوتين الصلبة والناعمة في آن واحد. وكانت بداية ظهور القوة الذكية (2) يعود إلى الحرب الأمريكية على أفغانستان عام 2001 والعراق في عام 2003 حينما دار جدل في الولايات المتحدة الأمريكية حول مضامين وأهداف (القوة الذكية) و(القوة الغبية)؛ إذ وصف بعض السياسيين إدارة بوش الابن بأنها غير ذكية في توظيف سياستها الخارجية بسبب استخدامها المفرط وغير المبرر للقوة العسكرية في مواجهة الارهاب وطالبوا الولايات المتحدة الأمريكية بضرورة اختيار السبل المناسبة للقوة الناعمة مع حفاظها على أساليب استخدام القوة الصلبة وجمعها في قوة واحدة تعرف بالقوة الذكية.

الاستنتاجات:

1. تكون الأزمة الاقتصادية قد أعلنت نهاية أطروحات (نهاية التاريخ) و(أبدية النظام الرأسمالي) التي انتعشت بعد انهيار الأنظمة الاشتراكية في أوروبا (3). فيما تحفز عملية الانتقال الى عالم متعدد الأقطاب حيث يبرز دور دول روسيا والصين ودول أوربا الموحدة والهند والبرازيل وغيرها في وقت يشهد تراجعا في نفوذ وقوة الولايات المتحدة الامريكية. وهي بذلك تفتح أفقاً جديداً لنضال القوى المناهضة للرأسمالية على الصعيد العالمي. وتجدر الاشارة الى أن الازمة وفرت على صعيد الفكر والوعي تربة خصبة لانتعاش الأفكار العصبوية المتشددة (العنصرية والشوفينية والدينية المتطرفة). وينجم عن ذلك كله احتدام في التناقضات والصراعات ولجوء القوى الرأسمالية المهيمنة إلى العنف السافر والتدخلات المباشرة والحروب المحلية لضرب وقمع القوى المناهضة لها.

2. ستكون الولايات المتحدة الأمريكية واحدة من الدول التي تؤثر في العالم إلا انها لا تقوده لذلك فأن التحول الذي طرأ على السياسة الخارجية الأمريكية هو تحول فرضته الظروف الدولية ولم يكن بإرادة امريكية أو مخطط له منذ سنوات بل هو تحول من اجل استجماع القوى والتكيف مع المستجدات الجديدة ومحاولة قيادة العالم بأقل التكاليف والجهود.

3. رغبة العديد من الدول في أداء دور أكبر في النظام الدولي سواء كان ذلك على المستوى الإقليمي أم الدولي.

4. ظهور تكتلات دولية مناوئة للولايات المتحدة الأمريكية وانتهاء بصعود كل من روسيا الاتحادية والصين باعتبارهما يشكلان التحدي الأكبر للولايات المتحدة الأمريكية.

5. أصبحت "الاحادية القطبية" جزءا من الماضي والقوة الاقتصادية والسياسية في أيدي متعددة.

6. تشابه القوة الناعمة مع الأشكال الأخرى للقوة في إمكانية استخدامها وتوظيفها لأغراض جيدة أو سيئة.

7. القوة الناعمة محدودة النطاق وهي ليست سوى (قفاز يخفي يد من حديد)، كما يقال.

8. من اهم أدوات السياسة الخارجية للولايات المتحدة المساعدات الخارجية، ومن خلال هذا المنطق فإن معظم المساعدات تعطى لأغراض سياسية بغية تقويض أو دعم الحكومات الصديقة والفاشلة.

9. مع وصول باراك اوباما الى الرئاسة الأمريكية ظهر تحول في السياسة الخارجية الامريكية نحو القوة الناعمة إلا ان ذلك لا يعني الابتعاد المطلق عن القوة الصلبة، بل محاولة تجنب الاستخدام المفرط لها.

الهوامش :

1. يعتبر جوزيف ناي (وهو أحد الأكاديميين المؤثرين في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية الأمريكية والبروفسور في جامعة هارفرد والعميد السابق لكلية كيندي للحكومة ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني) أول من صاغ مفهوم "القوة الناعمة" في كتابه "ملزمون بالقيادة" الذي نشره عام 1990 وأشار فيه إلى أمريكا أقوى أمة ليس في القوة العسكرية والاقتصادية فحسب بل في بعد ثالث أطلق عليه "القوة الناعمة" كما ذكرها في عام 2001 و2004 في كتابين له هما "مفارقة القوة الأمريكية" و"القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الأمريكية".

2. يعتبر (جوزيف ناي) أول من طرح فكرة "القوة الذكية" وسعى إلى ادخال فكرته إلى عالم مراكز الأبحاث الأمريكية

تحديدا في مركز الدراسات الاستراتيجية CSIS عام 2007.

3. يعود هذا الوصف الى (فرانسيس فوكوياما) الذي ولد في عام 1952 وهو بروفسور أمريكي ذو أصول يابانية، حيث أصدر في عام 1992 كتابه الشهير "نهاية التاريخ وخاتم البشر" الذي طور فيه أفكاره النظرية حول نهاية التاريخ التي سبق وإن وضع خطوطها الأولى في صيف عام 1989 في مقالة شهيرة حملت العنوان نفسه ولكنها بصيغة تساؤلية ونشرتها مجلة The National interest الأمريكية.

المصادر:

1. الحزب الشيوعي العراقي، وثائق المؤتمر الوطني التاسع للحزب الشيوعي العراقي . بغداد، أيار 2012.
2. جوزيف ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، الطبعة الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، 2007.
3. جوزيف ناي، مستقبل القوة الأمريكية، سلسة دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الأمارات العربية، 2012.
4. زبيغنيو بريجنسكي، الاختيار – السيطرة على العالم ام قيادة العالم، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي بيروت . لبنان
5. صومائيل هنتغتون، صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي، الطبعة الثانية، سطور للنشر والتوزيع، القهرة، 1999.
6. فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ وخاتم البشر، الطبعة الأولى، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة، 1993.
7. مصطفى محمد جاسم، توظيف القوة الناعمة في السياسة الخارجية الأمريكية اتجاه الشرق الأوسط والسياسة الخارجية، رسالة مقدمة الى مجلس كلية العلوم السياسية – الجامعة المستنصرية لنيل شهادة الماجستير في العلوم السياسية، بغداد، 2014.

ملاحظات حول السياسة الاستثمارية في القطاعات الاقتصادية في العراق بعد 2003

د. صباح قدوري

الدكتور صباح قدوري، استاذ جامعي متخصص في محاسبة التكاليف وأنظمتها، بكالوريوس محاسبة وادارة اعمال/ كلية التجارة - جامعة بغداد عام 1965، وحاصل على شهادة الماجستير في محاسبة التكاليف من جامعة Łódź / بولندا في عام 1979. وفي عام 1985 حصل من نفس الجامعة على شهادة الدكتوراه Ph.D في فلسفة الاقتصاد الكمي/ محاسبة التكاليف. عمل الدكتور قدوري استاذا للمحاسبة في جامعة الفاتح/ كلية المحاسبة في مدينة غريان/ ليبيا، كما عمل مدرسا للمحاسبة في المدرسة العليا للتجارة في مدينة اودنسا/ الدانيمارك، ومدرسا لاقتصاد العمل والتكاليف في المدرسة العليا للتجارة/ اودنسا – الدانيمارك. نشر الدكتور قدوري العديد من الدراسات والبحوث والمقالات في المجلات والصحف العراقية والعربية.

من أجل الوقوف على جانب من السياسة الاقتصادية العراقية، بعد 2003، نحاول في هذه الورقة تسليط الضوء على بعض السياسات الاستثمارية منها. واستجابة لبعض المداخلات التي طرحت من قبل بعض الزملاء الاقتصاديين على بحثنا المشترك مع الزميل د. حسن عبدالله بدر، والموسوم: "لماذا لا يؤدي الانفاق الاستثماري دوره في تطوير وتحويل الاقتصاد العراقي؟"، والمنشور على شبكة الاقتصاديين لعراقيين، 2016 (1)، سنعالج القضية موضوع الدراسة وفق المحاور الاتية:

أولا: أبرز معالم الاقتصاد العراقي القائم، والنشاط الاستثماري بعد 2003.

ثانيا: كيفية ادارة الاستثمار في القطاعات الاقتصادية المتنوعة (الانتاجية، والخدمية والمالية).

ثالثا: الخاتمة وبعض المقترحات.

أولا: أبرز معالم الاقتصاد العراقي القائم، والنشاط الاستثماري بعد 2003

1. لقد تعاقبت على الحكم منذ 2003، إدارات سيئة لم تستطع إعادة بناء وتوحيد البلاد على أساس مبدأ المواطنة والقانون والمؤسسات، بعيدا عن الولاءات الضيقة، الطائفية والعرقية والحزبية والمحسوبية، والتي لم تنشغل بغير التنافس على السلطة والمال والنفوذ.

وقد أنصب برنامجها على تشجيع التحول

نحو اقتصاد السوق الحر، والدور المميز للقطاع الخاص، والاصلاح المالي والاداري للمؤسسات الحكومية على أساس الخصخصة وعلى حساب إضعاف أو إبعاد أداء القطاع الحكومي والتعاوني وحتى التطوعي في عملية التنمية (2).

2. وهنا نشير الى أهم النقاط الحرجة والساخنة:

أ. كما هو معروف فان الاقتصاد العراقي هو اقتصاد ريعي. وهذا يعني تبعية الدولة للمداخيل الناتجة من عائدات صادرات النفط الخام بالدرجة الاساسية. ان حصة القطاع النفطي في الناتج المحلي الاجمالي للفترة 2010 – 2014، كمتوسط، بلغت (49.0%)، كما في الجدول رقم (1). وتساهم هذه العائدات بـ (97.5%) من الموازنة الاتحادية (3). وهذا ما يؤكد على ان الاقتصاد العراقي يعتمد اعتمادا شبه كلي على قطاع النفط لتمويل مشاريعه التنموية والتشغيلية، وبالتالي فانه يبقى رهين تقلبات سعره والطلب عليه في السوق.

جدول رقم (1)

الناتج المحلي الاجمالي للعراق حسب الانشطة الاقتصادية للفترة 2010 ـ2014، بالاسعار الجارية

(٪)

القطاع	٢٠١٠	٢٠١١	٢٠١٢	٢٠١٣	٢٠١٤
الزراعة والاسماك والصيد	٥.٠	٤.٢	٤.١	٤.٠	٤.١
النفط الخام	٤٣.٠	٥٤.٧	٥٢.٤	٤٧.٠	٤٦.٤
الصناعات التحويلية	٢.٣	١.٨	١.٧	٢.٧	٢.٩
الكهرباء والماء	١.١	١.٣	١.٣	١.٥	١.٩
البناء والتشييد	٣.٥	٤.٩	٥.٦	٨.٤	٧.٨
النقل والمواصلات	١١.٢	٤.٩	٤.٧	٥.٦	٥.٨
تجارة الجملة والفنادق	٨.٦	٦.٦	٦,٣	٦.٦	٧.٤
المال والتامين والاعمال	٩.٤	٨.٥	٨.٧	٨.٢	٨.٩
خدمات التنمية الاجتماعية	١٥.٩	١٣.١	١٤.٨	١٦.٠	١٤.٨
المجموع حسب الانشطة	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠	١٠٠.٠

المصدر: د.صالح ياسر" الاقتصاد العراقي ـ محنة الحاضر ورهانات المستقبل، الازمة ـ الخطاب ـ-البديل" المنشور على موقع الحزب الشيوعي العراقي، بتاريخ 13تموز/يوليو2016. متاح على الرابط التالي:

http://www.iraqicp.com/index.php/sections/objekt/45419-2016-07-13-10-29-06

ـ وزارة التخطيط، الجهاز المركزي للاحصاء وتكنلوجيا المعلومات 2010

ـ التقرير الاقتصادي السنوي للبنك المركزي العراقي لعامي 2012 ـ 2013

ب. هبوط أسعار النفط التي هي المورد المالي الاساسي، منذ أواخر عام 2014، بما يزيد على (50 %).
ج. ومما صعب أكثر من وضع الحكومة اضطرارها لزيادة الإنفاق على مؤسسات الجيش والشرطة والأمن بعد احتلال عصابات (داعش) لأجزاء من البلاد.
د. ويتفاقم الوضع وتزداد الصورة قتامة حين نتذكر التوسع الهائل في القطاع الحكومي. إذ تستنزف فقرة رواتب الموظفين ومخصصاتهم مقدارا كبيرا من ميزانية الحكومية يتعذر المساس به لانه يتعلق بقوت الموظفين وعوائلهم، الامر الذي يحد من قدرة الحكومة على التصرف بمواردها. وقد اعتبر أحد الاقتصاديين ذلك وبحق، من الخطايا الكبرى للحكومة (4).
هـ. وإذا أضفنا ضعف الاجهزة الادارية وتفشي الفساد المالي في كثير منها على نحو بات يمارس دورا تخريبيا في الاقتصاد العراقي، فان الامر يصبح خطيرا حقا.
و. وهكذا تم تبديد وإهدار معظم مدخولات البلاد التي تزيد على (800) مليار دولار خلال الفترة التي تلت 2003، على الاستهلاك، وعلى إنفاق أموال على مشروعات استثمارية خصصت لها أموال تزيد على تكلفتها الحقيقية ولم تكتمل، رغم ذلك، حتى بعد مرور سنوات على الانفاق مما يعني ضياع مردودها الانتاجي، وعلى مشروعات لانتاج الكهرباء رغم استمرار معاناة الناس ونقص الكهرباء وعدم إنتظامها، وعلى أجهزة الجيش ومواجهة الارهاب، فضلا عما تم تسريبه للخارج من خلال مزادات العملات الاجنبية. وقد خلق كل ذلك عجزا ماليا شديدا دفع الحكومة للاقتراض حتى لمجرد تسديد النفقات التشغيلية (5).
3. ولا تقتصر المشكلة على انه لا يتبقى الكثير من الموارد للاغراض الاخرى كالاستثمار أو تعزيز احتياطي البلاد من العملات الاجنبية، بل ان هذه الحالة تسبب في عجز البلاد عن خلق ديناميكية للنمو الاقتصادي. اذ ان النمو يشترط تحقيق استثمارات ضخمة لاعادة بناء البنى التحتية التي تعرضت للتدمير والتقادم مع مرور الزمن، وكذلك للنهوض بالقطاعات الانتاجية، وبخاصة الزراعية والصناعات التحويلية والتشييد والسياحة، والنقل والمواصلات والخدمات الانتاجية، وغيرها، فضلا عن إعادة اعمار المناطق المتضررة.
4. صحيح انه تم إستثمار مبالغ كبيرة في تطوير القطاعات الانتاجية. كما تم من خلال الموازنات العامة 2004 – 2014، تخصيص ما يزيد على (160) مليار دولار للوزارات والمحافظات والاقليم. ولكن لم يتم إنجاز سوى نسب متواضعة من الاف مشاريع إعمار وتطوير البنى التحتية و/ أو جلب التكنولوجيا المتطورة، و/أو الخدمات العامة الاجتماعية الاساسية.
5. والنتيجة الحتمية لكل ذلك هي تفاقم البطالة في قوة العمل نظرا لأن القطاعات الانتاجية لم تتطور وتتوسع لاستيعابها. وهذا معناه ليس فقط معاناة العاطلين عن العمل، بل خسارة البلاد ايضا لما كان يمكن إنتاجه من سلع وخدمات بتلك القوى العاطلة، وكذلك اضطرار البلاد لاستيراد كل شيء من الخارج.
6. وعليه، فثمة ضرورة لاجراء اصلاحات بنيوية في الاقتصاد العراقي. وان التحدي الاكبر الذي يواجهه الاخير اليوم، هو كيفية الخروج من حالة الفوضى في القوانين الاقتصادية التي تسود مجمل نشاطاته. ولا يتم ذلك الا عن طريق تبني رؤية شفافة واستراتيجية واضحة ومعللة وتعرف ما تريد لعملية التنمية، وتحديد طبيعة فلسفة النظام

السياسي، مع الأخذ بنظر الاعتبار إيجاد نوع من التوازن في تسيير الاقتصاد بين التخطيط ودور القطاع العام واقتصاد السوق. ونعتقد ان أهم الاصلاحات المطلوبة تتمثل في:

- إصلاح القوانين والتشريعات المالية والضريبية بشكل عام.
- تفعيل دور الهيئة الوطنية للاستثمار وهيئات استثمار المحافظات في تسهيل عملية منح: إجازات الاستثمار والأراضي والقروض والتسهيلات المالية والضريبية، وتسهيل معاملات المستثمرين الأجانب، وتنشيط دور البنوك والمصارف بالتنسيق مع الغرف التجارية واتحاد الصناعات العراقية وغيرها (6).
- تقدير دور مجتمع الاعمال ومنظماته في عملية صنع القرارات الاستراتيجية حول النمو الاقتصادي.
- تطوير القوة البشرية المؤهلة، وتخفيف حدة الفقر والبطالة.
- تقليل الفوارق الطبقية لرفع مستوى المعيشة للمواطنين، وتحقيق نوع من العدالة الاجتماعية.
- استخدام الطرق الحديثة في بناء النموذج الملائم للبيئة الوطنية وللتطور الاقتصادي والاجتماعي والقانوني والتنظيمي للمجتمع (7).

ثانيا: كيفية ادارة الاستثمارات في القطاعات الاقتصادية المتنوعة، بعد 2003

- **الانتاجية**
- **الخدمية**
- **المالية**

أ. القطاعات الانتاجية:

1. من الأجدر توجيه الاستثمارات في القطاعات الاقتصادية المتنوعة، وخاصة الانتاجية منها التي تحتاج قبل كل شيء الى وجود رؤية واستراتيجية واضحة وشفافة لوضع برامج عملية وموضوعية (وآليات) فعالة لترجمة ذلك الى واقع العمل الفعلي. كما يتعين العمل على إيجاد مناخ آمن وبيئة محفزة لهذا الاستثمار من قبيل: تهيئة البنى التحتية، منح القروض بفوائد منخفضة، وإعفاء ضريبي لمدة معينة، ودعم الانتاج الوطني، وتفعيل المنظومة الجمركية، وغيرها.

2. ان حصول العراق مؤخرا على قرض من صندوق النقد الدولي بمبلغ (5.4) مليار دولار وبفائدة (1.5%). وسيسمح هذا القرض بتأمين مساعدات مالية إضافية تصل الى نحو (15) مليار دولار خلال السنوات الثلاث المقبلة من الدول الصناعية السبعة الكبرى (G 7) ودعم إضافي ايضا من البنك الدولي، سيساهم هذا القرض في خفض العجز الاضافي في الموازنة الاتحادية، كما يمكن الاستفادة منه في تحفيز وتنشيط دور الاستثمار في عملية التنمية، اذا استخدم قسم منه وبشفافية عالية في القطاعات الاقتصادية الانتاجية والخدمية! (8). هذا بالاضافة الى ان هناك محاولة لجمع مبلغ أكثر من (2) مليار دولار امريكي، أقر في مؤتمر عقد بتاريخ 26 تموز/ يوليو2016 في امريكا، بمشاركة كل من: امريكا وكندا والمانيا واليابان وهولندا والكويت (9)، وذلك لمساعدة الشعب العراقي في إعادة اعمار البلاد بعد تحريرها من (داعش). سيساعد هذا المبلغ على النشاط الاستثماري وانعاش الاقتصاد، اذا جمع واستخدم بشكل عقلاني وبشفافية عالية ليستفيد منه أهالي المناطق المنكوبة والمتضررة في معالجة أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

3. لا يزال هناك دور مميز للقطاع الصناعي الحكومي، حيث يساهم بـ (90%) من اجمالي الانتاج الصناعي، ولكن فقط بـ (3.5%) من الناتج المحلي الاجمالي لعام 2012، وهي نسبة متواضعة للقطاع لا تتناسب مع الموارد المالية وغير المالية الكبيرة المتاحة (10). إنه بأمس الحاجة الى الانعاش واعادة هيكلة شركاته لتصبح شركات منتجة وزيادة مساهمة الصناعات التحويلية منها في تكوين الناتج المحلي الإجمالي، التي شكلت (2.9%) لعام 2014، وايضا زيادة نسبة تشغيل العمالة في المنظومة الصناعية. ويكون قادرا على المساهمة الفعالة في عملية تنمية مستدامة، تساهم في تغيير البنية الاقتصادية الراهنة والطابع الريعي للاقتصاد الوطني، في الوقت الذي هناك التوجه نحو عملية خصخصة هذا القطاع وفق معيار الاقتصادي فقط، ضمن برنامج الاقتصاد الحكومي لسنة 2015، واستراتيجية التنمية الصناعية حتى عام 2030، من دون تأهيله وإعادة هيكليته و/أو أخذ بنظر الاعتبار البعد الاجتماعي لهذه العملية! ومن الضروري أيضا ان يؤخذ بنظر الاعتبار إعادة التوزيع الجغرافي للمؤسسات الصناعية على مستوى العراق. والعمل على إنشاء مجمعات صناعية في كافة المحافظات، وفق الكثافة السكانية ومستوى التطور الاقتصادي والاجتماعي والامكانيات المالية والطبيعية وقوة العمل المتاحة والمؤهلة في هذه المحافظات. هذا اضافة الى التكامل في ما بين القطاعات الصناعية العام والخاص والقطاعات الاخرى من خلال خلق الشركات الكبيرة المشتركة والمشاريع الصغيرة والمتوسطة التي ترفد الشركات الصناعية القائمة بمنتجاتها وخلق فرص عمل جديدة (11).

4. يعتمد الاقتصاد العراقي على سياسة استيراد معظم المواد الاستهلاكية والتنموية. وبسبب ارتفاع أسعارها المتزايد في الاسواق العالمية، تعمل الحكومات العراقية المتعاقبة على دعم الاكثر الاستهلاكا من بينها من العوائد النفطية الضخمة، الأمر الذي يتطلب ضرورة إعطاء الاولوية للاستثمارات التي تكون مؤثرة في الصناعات الاستهلاكية، لتوفير السلع اللازمة والضرورية للمواطنين.

5. تساعد هذه الاستثمارات ايضا على تقليل حجم استيرادات العراق التي تزيد على (60%) من مجموع الطلب بعد عام 2007 (12)، من البضائع والمواد من الخارج في المدى المنظور، وفي توفير العملات الاجنبية للبلد، وتقليل ظاهرة الفساد وغسيل الاموال المتواجدة فيها، وفي تطوير القطاع المنتج للسلع الذي يمثل الطريق الطبيعي لاستيعاب الأعداد المتزايدة من قوة العمل وتأهيلها وتدريبها ومن ثم امتصاص البطالة الواسعة.

6. يعتبر القطاع الزراعي من القطاعات المهمة في الاقتصاد العراقي، باعتباره يوفر الاغذية للسكان، والمواد الأولية النباتية والحيوانية للصناعات العراقية، وممكن ان يؤمن حاجة البلد من المنتجات الزراعية، ويوفر ايضا الفائض منها للتصدير في المدى المنظور. اما اليوم فيعاني القطاع الزراعي من التخلف والاهمال وضعف الادارة والتنظيم وبدائية أساليب الانتاج وفي الخدمات التسويقية للمنتجات، وأيضا ضعف كبير في البنى التحتية، وشح الكفاءات في الاجهزة والمؤسسات الزراعية، إنخفاض مستويات الانتاجية، سواء بالنسبة للفرد العامل في القطاع الزراعي، و/أو إنتاجية الدونم الواحد من

المحاصيل الزراعية، كذلك تراجع الدعم المادي والمعنوي له من الحكومة، فضلا عن استشراء الفساد الاداري والمالي فيه. هذا بالاضافة الى ضعف مساهمة القطاع الزراعي في الناتج المحالي الاجمالي حتى بلغت (4.1%) في عام 2014، كما جاء في جدول رقم (1)، بعدما كانت هذه النسبة تمثل (25%) مطلع الخمسينيات من القرن الماضي (13). وهذه مساهمة متواضعة تتجلى، بدورها، في اعتماد العراق على قطاع النفط في تمويل معظم الاستهلاك والاستثمار. ومن هنا نرى ضرورة تنويع وتحديث وسائل إنتاجه وإدخال الادارة والتقنيات الحديثة (في العمل والانتاج والنقل والمواصلات والمخازن والتسويق، وذلك بهدف رفع الانتاج والانتاجية. كما هناك ضرورة لتفعيل دور الحكومة في الدعم المتنوع للقطاع من المكائن والاسمدة والبذور والقروض بفوائد رمزية، وتسويق وتسديد أثمان المنتجات في مواعدها، والعمل على زيادة الموارد لادارة المياه والطرق الريفية والمرافق والتخزين، والابحات والارشاد، وذلك من خلال تأسيس شركات ضخمة متخصصة بهذا المجال من دون ان يؤثر ذلك على الوحدات الزراعية الصغيرة، وباشراك القطاع الخاص والتعاوني فيها. يمثل انتاج الحبوب في التسعينيات، نسبة بحدود (85.7%) من مجموع الاراضي الزراعية، مما يتطلب توجيه الاستثمار لزيادة حجم الانتاج من خضراوات التي تشكل فقط بحدود(9.7%)، والمحاصيل الصناعية (2.7%) (14). ولا شك ان تحفيز دور القطاع الخاص في هذا المجال، سيكون له أثر على زيادة دخل القطاع الزراعي في السنوات المقبلة (15).

7. يشهد العراق أزمة سكن حقيقية، وبخاصة بالنسبة للفئات محدودة الدخل والفقيرة. ورغم حدوث بعض التطور النسبي لهذا القطاع، حيث ارتفعت نسبة مساهمته في الناتج المحلي الاجمالي من (3.5%) عام 2010 الى (7.8%) عام 2014، كما جاء في الجدول رقم (1)، وايضا بحسب تقديرات وزارة التخطيط، فان العراق لا يزال بحاجة الى مليوني وحدة سكنية.

لقد تبنىت الهيئة الوطنية للاستثمار في العراق برنامج الاسكان الوطني في عام 2012، لانجاز مشروع مليون وحدة سكنية في مختلف أرجاء البلاد، على أساس شراكة حقيقية بين المواطن والمصارف الحكومية والمستثمر. ولتنفيذ ذلك، أطلقت الهيئة مشروع مدينة بسماية الجديدة بواقع (100.000) الف وحدة سكنية لـ (600.000) الف نسمة. وأحيل المشروع الى شركة (هانوا) من كوريا الجنوبية، وبكلفة (7.75) مليارات دينار، على ان يتم إنجازه خلال (7) سنوات، اي في عام 2019، بما فيه أعمال التصميم والتطوير. ولكن لم ينجز منها لحد الآن عدا (3000) وحدة سكنية وتمثل فقط (3%) (16).

تعرض المشروع الى انتقادات شديدة من قبل المواطنين والمهندسين والمختصين في مجال البناء والاعمار والباحثين الاقتصاديين والاجتماعيين والمصارف الحكومية من حيث: تصاميم السكن كونها قديمة، وكلفتها مرتفعة والتأخير في الانجاز وأسلوب توزيع الوحدات المنجزة، فضلا عن استشراء الفساد الاداري والمالي فيه، مما يتطلب إعادة دراسة هذا المشروع وتقييمه بعناية وشفافية عالية، والإسراع في انجازه بالمدة المحددة.

ومن الضروري جدا الاهتمام بهذا المجال وبالتعاون مع المصارف المختصة والقطاع الخاص وتشجيع الافراد أنفسهم على المساهمة الفعالة فيه، بحيث يتسنى للنشاط الحكومي التوجه نحو عناصر البنى التحتية الاخرى كالطرق والجسور والانفاق ووسائل الاتصال الحديثة وتخطيط المدن، وغير ذلك الذي هو في تزايد مستمر.

8. الاهتمام بالسياحة والفندقة أمر ضروري، وخاصة ان العراق يمتلك أماكن سياحية عديدة موزعة على رقعته الجغرافية للترفية والاستجمام و/أو للسياحة الدينية في العتبات والاماكن المقدسة، وغيرها. تعرضت هذه المناطق، السياحية والأثرية، عبر الزمن الى الاهمال والتخريب والسرقات نتيجة الحروب ومشاكل الداخلية. تتوفر الامكانيات المالية والايدي العاملة التي تحتاج الى التدريب والتأهيل في هذا القطاع. وتتطلب هذه المسألة قبل كل شيء توفير الامن والاستقرار في ربوع البلاد، ومنح المحفزات المادية والمعنوية والدعم الحكومي لتأمين الركائز الاساسية من البنى التحتية المادية والخدمات الاجتماعية والثقافية، وبناء منتجعات عصرية وحديثة بكامل خدماتها. هذا بالإضافة الى تنشيط القطاع الخاص المحلي والاجنبي للاستثمار في هذا القطاع الحيوي، مما له أثر كبير في تنشيط الاقتصاد الوطني، من خلال مشاركته في الناتج المحلي الاجمالي، والتي تساهم في نمو الاقتصادي العراقي.

9. كما أن هناك فوضى كبيرة في مجال الطرق والمواصلات الداخلية والخارجية، ومع تزايد مستمر في عدد السيارات، وسوء تنظيم المرور والشوارع والانفاق والجسور. هذا اضافة الى عدم تنظيم أمور سيارات الاجرة الداخلية والخارجية من حيث نصب العدادات وتحديد التعريفة ومراقبة إجازات السوق وغيرها. وكذلك هناك نقص في أماكن وقوف السيارات، ومعظمها أهلية وتعمل بشكل عشوائي بدون مراقبة ولا قانون. وايضا سوء وعدم عناية بصيانة الطرق السريعة وإكمال وإنشاء الطرق الجديدة لربط مراكز المدن في ما بينها، وربط العراق مع الدول المجاورة. هذا بالاضافة الى تدني نسبة مساهمة القطاع في الناتج المحلي الاجمالي من (11.2%) في عام 2010 الى (5.8%) عام 2014، اي حوالي (50%)، كما جاء في الجدول رقم (1). وما عدا ذلك لا بد من إعادة تأهيل وبناء شبكة خطوط السكك الحديدية الداخلية والخارجية بطريقة عصرية، تواكب شبكات السكك الحديدية العالمية، والاهتمام بالموانئ وصيانتها واستغلال طاقتها المتاحة، والاستفادة من القطاع الخاص في تقديم الخدمات لنشاط الموانئ. ومن الضروري كذلك الاهتمام بالمطارات وتأهيل الموجود منها، وإنشاء مطارات جديدة وفق المواصفات الدولية، وخاصة في المدن الكبيرة والمناطق السياحية، وغيرها من مرافق النقل والمواصلات. اي بمعنى آخر هناك خلل في إعادة تصميم المدن بحيث تستوعب المتغيرات الكبيرة التي حدثت في مجالات الاعمار والتزايد السكاني والمحافظة على البيئة، من خلال تقليل عدد السيارات وتشجير المدن وتخصيص أماكن للحدائق والمنتزهات.

10. خلق بيئة قانونية مواتية للشراكة بين الشركات والمؤسسات الخاصة والعامة بما في ذلك الامتيازات وعقود

المشاركة وادارة المشاريع وتعزيز دور القطاع الخاص لضمان المشاركة الفعالة والمنافسة العادلة في السوق.

ب. القطاعات الخدمية:

1. وضع إستراتيجية واضحة وشفافة متوسطة وبعيدة المدى للتنمية البشرية من شانها ان تشكل الاساس للبناء والتطوير في القطاع المنتج للسلع، ولقطاعات الخدمات ايضا. وهذا أمر له صلة بسياسات التعليم التي لا بد ان تنال الاهتمام الخاص والكبير في اطار عملية الاستثمار والتنمية الشاملة والمستدامة. في الوقت الذي يعاني قطاع التربية والتعليم العالي مشاكل كبيرة أسوة بقطاعات الخدمية الاخرى. وهناك مؤشرات غير إيجابية باتجاه تطويره وتطور مدخلاته و/أو مخرجاته. فالبيانات تشير لنا الى وجود نقص كبير في عدد المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ورداءة الابنية وساحات اللعب، وإرتفاع نسبة المدارس ذات الدوام المزدوج والثلاثي، ووجود المدارس الطينية التي لا تصلح للعملية التعليمية وخاصة في القرى والارياف. وإنخفاض معدل الالتحاق بالمدارس (85%) للذكور و(82%) للاناث. كذلك هناك توجه نحو الإلغاء التدريجي لمجانية التعليم في بعض المراحل الدراسية، في الوقت الذي كان متاحا للجميع. أما في مجال التعليم العالي، فهناك مؤشرات على تزايد التوسع الافقي في عدد الجامعات وخاصة الاهلية منها، باتجاه التطور الكمي على حساب التطور النوعي، ما سبب خللا بين مخرجات النظام التعليمي وحاجة سوق (17).

2. النقص الحاد والتردي المريع في تقديم الخدمات الصحية للمواطنين من طرف المستشفيات الصحية الرسمية؛ اذ تعاني هذه المؤسسات من نقص كبير في عدد الاسرّة والمعدات اللازمة للفحص والتشخيص وإجراء العمليات الجراحية، وشح الادوية فيها وإستيراد الادوية من دول الجوار، وهي ذات نوعية رديئة وقديمة. ومقابل ذلك يلاحظ التزايد المستمر للمستشفيات الاهلية والصيدليات، التي أصبح عددها يزيد على المستشفيات الرسمية! والتي تتصف بانها تقدم خدمات رديئة وروتينية مقابل أسعار باهضة، ولا يصل إليها إلا حفنة من ذوي الدخول العليا من تجار السوق السوداء والمتنفذين السياسيين والاداريين. وإزاء هذه الحالة، فثمة ضرورة لوجود الرعاية والاهتمام الجديين بهذه المسالة، لما لها صلة مباشرة بضمان صحة المواطنين ومستقبل الاجيال.

ج. القطاعات المالية:

أثّر انخفاض أسعار النفط في أواخر عام 2014 على السياسة المالية والنقدية وتبعياتها على الموازنة الاتحادية، وخاصة النفقات الاستثمارية منها، وكالاتي:

- بلغ العجز في الموازنة الاتحادية لعام 2016 (30) ترليون دينار، وتمثل (26.5%) من اجمالي نفقات الموازنة البالغ (113) ترليون دينار، مما اضطر العراق الى اللجوء الى الاقتراض من صندوق النقد الدولي، كما اشرنا اليه في مكان اخر من هذه الدراسة، وكذلك إصدار سندات قرض حكومي - داخلي وخارجي - لهذا الغرض.

ومن المعروف ان هناك تضاربا في الآراء بين الاقتصاديين العراقيين حول مسالة تخفيض سعر الدينار العراقي أو بقائه

على سعره الحالي، مقابل الدولار الامريكي (18). وتتطلب هذه المسالة دراسة دقيقة قبل الإقدام عليها، لما لذلك من تأثير مباشر على التضخم، وميزان مدفوعات التجاري، والموازنة الاتحادية، وسعر الفائدة وتأثيره على الاستهلاك وقرارات الاستثمار، وغيرها.

وعلى اية حال، فان الحل الصحيح لهذا الموضوع يبقى دائما مرهونا بتنسيق جيد والادارة العقلانية وبشفافية عالية بين الجهات المختصة (وزارة المالية، وزارة التجارة، وزارة التخطيط والبنك المركزي)، في رسم السياستين المالية والنقدية على المدى المنظور والمتوسط. إذ أن هناك فشلا واضحا لدى وزارة المالية في ضبط الانفاق العام وجباية الضرائب وتحصيل الرسوم الجمركية، بالاضافة الى تنشيط دور وزارة التجارة في ضبط الاستيرادات السلعية والمعدات، ومحاسبة المتلاعبين بالكميات والاسعار والجودة، فضلا عن وزارة التخطيط التي قصرت في توثيق إحصاءات التجارة الخارجية والداخلية، مع وجود ظاهرة غسيل الاموال وتهريب رأس المال (النقد الاجنبي) من خلال مزادات العملة الاجنبية للبنك المركزي. كذلك ضرورة التأكيد ايضا على التوجه نحو تنويع مصادر الدخل من خلال اعادة هيكلية مساهمة انشطة القطاعات الاقتصادية المتنوعة في الناتج المحلي الاجمالي، وخاصة للقطاعات الانتاجية والخدمية – الانتاجية.

- تتجه الانظار اليوم الى الاستثمار في سوق العراق للاوراق المالية (البورصة) (19). اذ يرى كثير من الاقتصاديين ان هناك نسبة من المدخرات النقدية "مكتنزة" لدى القطاع العائلي ويمكن توظيفها في تلك السوق لتمويل النشاط الاستثماري، وبخاصة للقطاع الخاص. وهكذا تصبح السوق بمثابة قناة مباشرة لتمويل النشاطات الاقتصادية للمؤسسات التي يجري شراء اسهمها.

- ونظرا لهيمنة قطاع المصارف على هذا السوق وتشكل نسبة اسهمها (64%) منها، فان إخراج هذه المكتنزات وتوظيفها في البورصة من شأنه زيادة رؤوس أموال قطاع المصارف وبالتالي تعزيز قدرته علي تقديم القروض، وبخاصة لتمويل استثمارات القطاع الخاص (20). وهكذا تصبح سوق الاوراق المالية، بصورة غير مباشرة، في خدمة عملية التنمية الاقتصادية في البلاد. ولكنها مع ذلك تبقى كاقتصاد إفتراضي اكثر من كونها اقتصادا حقيقيا، لا يمكن الرهان عليها كثيرا في النمو الاقتصادي.

- كما ان هذا الاستثمار يمكن ان يسير جنبا الى جنب مع توجه البنك المركزي لدعم القطاع الخاص بعد تخصيص (6.5) ترليون دينار للمصارف العراقية لتمويل المشاريع الصغيرة والمتوسطة، وبفائدة (8%) لمدة سنتين (21).

- ومن الممكن الاهتمام بسوق الاوراق المالية من خلال تهيئة المقومات الإدارية والتقنية المعلوماتية والقانونية لتطوير السوق. وكذلك رفع درجة الوعي والثقافة لدى الافراد وتنويرهم بان التوظيف في البورصة يعود بالفائدة عليهم وعلى البلد في وقت نفسه، وذلك بدلا من اكتناز أموالهم في بيوتهم، مما يمكن ان يعرضها لمخاطر السرقة او الحريق أو تآكل جزء من قوتها الشرائية بسبب التضخم.

- ومن الضروري الارتقاء بمستوى السوق الى المستوى القياسي العالمي من

حيث جودة المنتج والتصميم وتقديم الخدمات المتنوعة عبر استخدام تقنيات النشر الالكتروني. ان إعادة النظر بقوانين وتشريعات الشركات وسوق العراق للأوراق المالية، بما يتلاءم مع مثيلتها في البورصات العربية والعالمية، من شانه جذب المستثمرين الاجانب لتلك السوق.

- في حال طرح الحكومة سندات قرض محلية على المواطنين في الدخل والخارج، يمكن شراؤها وبيعها في سوق الاوراق المالية و/أو رهنها للقروض، مما يساعد على امتصاص الاموال المدخرة والمكتنزة من قبل المواطنين واستثمارها في هذه السندات التي تكون عادة قابلة للتداول في سوق الاوراق المالية، وتساعد على تغطية جزء من عجز موازنة الدولة، وتساهم ايضا في تنشيط الاقتصاد.

- إصلاح وإعادة هيكلة الجهاز المصرفي وتوسيع المعاملات المصرفية لتوفير التمويل اللازم للاستثمار، وتوفير آليات فعالة للحد من المخاطر عبر تفعيل دور شركة (ضمان الودائع)، مهمتها تعويض المودعين الصغار والمتوسطين في المصارف الخاسرة بعد ان تجمع راس المال اللازم بذلك، لان معظم المصارف الخاصة تعاني اليوم من (شح السيولة)، نتيجة عجز المقاولين والمستوردين عن دفع ما بذمتهم لها.

- انعدام الشفافية في سياسة التصرف بالمال العام. ووفقا لتقرير منظمة الشفافية العالمية لعام 2015 (22)، فإن مؤشر شفافية الموازنة في العراق لا يتعدى الـ (3%)، وهي حالة متخلفة حتى بالنسبة لبعض الدول العربية كالاردن والمغرب والمصر، ولا تتناسب مع وظيفة افصاح واطلاع الجمهور على سياسة إدارة المال العام. وفي هذه الحالة يقتضي الامر تفعيل قانون الادارة المالية رقم (95) لعام 2004، حول مراعاة الشفافية في إعداد وتنفيذ الموازنة الاتحادية وفق المعايير الدولية.

ثالثا: الخاتمة وبعض المقترحات:

يتيح العرض السابق بمفاصله المختلفة الاستنتاج بأهمية وضرورة توجيه السياسة الاستثمارية على القطاعات الاقتصادية المتنوعة، بحيث تضمن معدلات مقبولة للنمو والاداء الاقتصادي وزيادة الانتاج والانتاجية، وتهدف الى إشباع الحاجات الاساسية الملحة والمتنامية للمواطنين في المستقبل المنظور، وتخفيف حدة البطالة وتقليص حجم الفئة الفقيرة وتحت خط الفقر، وتحسين المستوى المعيشي للمواطنين، وتطبيق مبدأ العدالة الاقتصادية والاجتماعية من خلال تقليص التفاوت الكبير في مستويات الدخل وتراكم الثروات بين الافراد وبين مناطق البلاد، ومحاربة الفساد الاداري والمالي على كافة المستويات الحزبية والادارية، وتحقيق الرفاهية والتقدم في المجتمع.

ولتحقيق ذلك فان الامر يتطلب جملة من الاجراءات، من بينها:

- ضرورة انتقال اقتصاد العراق تدريجيا من اقتصاد ريعي احادي الجانب ذي طابع إستهلاكي، معتمدا بالدرجة الرئيسية على النفط، الى اقتصاد متنوع ذي صفة إنتاجية من خلال إعادة الهيكلية الاقتصادية لصالح القطاعات الانتاجية، ليكون إقتصادا منتجا للقيمة المضافة.

• توجيه الاستثمار بالدرجة الرئيسية نحو القطاعات الانتاجية، وخاصة الزراعة والصناعة والتشييد والسياحة والنقل والاتصالات وغيرها، وتامين البني التحتية والتكنولوجيا الحديثة اللازمة لها، وذلك لتنويع القطاعات الاقتصادية للمشاركة في تكوين الناتج المحلي الاجمالي، والتامين الدائم لمصادر تمويل الموازنة العامة للدولة من خارج القطاع النفطي.

• زيادة مساهمة الصناعات التحويلية وخاصة الصناعة الاستهلاكية منها في تكوين الناتج المحلي الاجمالي، بهدف توفير السلع اللازمة والضرورية للمواطنين. وكذلك زيادة نسبة تشغيل العمالة في المنظومة الصناعية.

• إتباع سياسة مالية رشيدة في اعداد الموازنات الاتحادية وفق الاهداف والبرامج تعتمد على قياس كفاءة الاداء والانتاجية، وتحسين آليات متابعة الاداء الاداري والمالي والتنفيذي لمشروعات الموازنة، والتحكم بالموارد المالية المتاحة بشكل عقلاني في خدمة التنمية الوطنية الشاملة.

• التنسيق والعمل المشترك بين الادارات والمؤسسات المسؤولة عن السياسة النقدية، والدور المميز للبنك المركزي لكونه المسؤول الاول عن هذه المهمة. اضافة طبعا الى التنسيق بين السياستين المالية والنقدية.

• الحد من سياسة الاستيراد المفتوح والاقتصار على ما هو ضروري من المنتجات والسلع المختلفة المطلوبة للانتاج والاستثمار والاستهلاك والمستلزمات الوسيطة للقطاعات الانتاجية. إضافة الى تأهيل الانتاج الوطني وحمايته من خلال إعادة بناء المؤسسات الانتاجية الحكومية، وتشجيع القطاع الخاص للمساهمة في الاستثمارات الانتاجية، وتفعيل قانون التعريفة الكمركية رقم (22) لسنة 2010.

• تفعيل دور القطاع الخاص الوطني وتشجيعه للمساهمة في زيادة الاستثمار والانتاج والتشغيل، من خلال التمويل الميسر للصناعات الصغيرة والمتوسطة. والاستفادة من القطاع الاجنبي بشكل عقلاني ومدروس، للاستثمار في القطاعات التي تضم الصناعات الكبيرة ذات التكنولوجيا المتقدمة والمتطورة التي تتطلب الخبرة والمهارة العاليتين غير المتوفرتين لدى الكادر الوطني.

ونرى ان مناقشة هذه الآراء والملاحظات واغناءها مسالة مهمة لبلورة رؤية واستراتيجية واضحة وشفافة وموضوعية قابلة للتطبيق من اجل النهوض بعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة والمستدامة، تنسجم مع الامكانيات المادية والبشرية والواقع السياسي والاقتصادي والامني للعراق الراهن وفي المستقبل.

إن إعادة الهيكلية الاقتصادية لصالح القطاعات الانتاجية، تتطلب التوجه نحو تطبيق نموذج (موديل) اقتصادي متوازن، تحدد فيه الاهداف والبرامج والاولويات لتتناسب والتطورات الجديدة في الحالة العراقية، وتحديد مستلزمات وآليات فعالة وعملية لتحقيق الاهداف، مستندا على دور ومهام كل من القطاع العام والخاص والمشترك والتعاوني والتطوعي في هذه العملية، فهذه كلها عناصر مهمة لبلورة استراتيجية تنمية مستدامة وتحقيق الانتقال الذي اشرنا الية اعلاه.

الهوامش :

(1) http://iraqieconomists.net/ar/2016/06/20/

(2) قانون الاصلاح الاقتصادي الاتحادي لسنة 2013.

(3) التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام 2014، ملحق الجداول الاحصائية، جدول رقم (6/- 2)، ص4.

(4) د. محمود محمد داغر، الخطيئتان المقيدتان للموازنة العامة، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2015.

(5) د.حسن عبدالله ود. صباح قدوري، لماذا لا يؤدي الانفاق الاستثماري دوره في تطوير وتحويل الاقتصاد العراقي، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2016.

(6) موقع الهيئة الوطنية العراقية للاستثمار.

(7) قانون الاصلاع الاقتصادي الاتحادي لسنة2013.

(8) أنظر: المدي برس/ بغداد، بتاريخ 19 /05 /2016.

كذلك، أنظر: د. صادق حسين الركابي، ما هي اسرار اقتراض العراق من صندوق نقد الدولي، 2016، موقع ميدل ايست اونلاين.

(9) أنظر، موقع وكالة الصحافة المستقلة.

(10) د. احمد ابريهي علي، "التنمية والتمويل في العراق عام 2014 وافاق المستقبل"، 2014.

(11) د. صالح ياسر، ملاحظات أولية حول استراتيجية التنمية الصناعية حتى عام 2030. مقال منشور على "موقع الطريق على الانترنيت"، 2014.

(12) د. حاتم جورج حاتم: "دور سعر الصرف في تحديد المستوى العام للأسعار واشكالية السياسة النقدية في العراق"، مجلة بحوث اقتصادية عربية ، العددان 59 ـ 60، صيف ـ خريف، 2012.

(13) أحمد أبريهي، المصدر السابق. خطة تنمية القطاع الزراعي للسنوات 2010 ـ 2014، وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ دائرة التخطيط الزراعي، بغداد، 2009.

(14) وزارة التخطيط والتعاون الانمائي/ دائرة التخطيط الزراعي، مصدر سابق.

(15) د.صباح قدوري، د. حسن عبدالله بدر "بعض التصورات حول الاصلاح الاقتصادي في اقليم كردستان العراق"، بحث منشور على موقع الشبكة الاقتصاديين العراقيين بتاريخ، 2015.

(16) صفحة موقع الالكتروني للمشروع.

(17) وزارة التخطيط، خطة التنمية الوطنية 2010 ـ 2014.

(18) أنظر على سبيل المثال: د.حاتم جورج حاتم، استقرار الدينار العراقي مقابل الدولار: هل هو حقا ضرورة تنموية؟ شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2016.

كذلك: د. عبد الحسين العنكبي، سعر صرف الدينار العراقي.. ثقب يبتلع احتياطي النقد الاجنبي، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2015.

(19) أنظر، ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(20) د. سمير النصيري، دور سوق العراق للاوراق المالية في جذب الاستثمار، شبكة الاقتصاديين العراقيين، 2016.

(21) البنك المركزي العراق.

(22) موقع منظمة الشفافية الدولية.

التصحر يتمدد في العراق بصمت

عادل عبد الزهرة شبيب

عادل عبد الزهرة شبيب، بكالوريوس تربية جغرافية، جامعة البصرة 1969 – 1970، عضو النقابة الوطنية للصحفيين العراقيين، كاتب مقالات في الصفحة الاقتصادية لجريدة "طريق الشعب".

يعتبر التصحر من الظواهر البيئية الخطيرة التي تهدد حياة المجتمعات الاقتصادية والمعيشية حيث تتحول الاراضي الزراعية الخصبة الى أراض جرداء قاحلة وما يترتب على ذلك من تداعيات عديدة تمس حياة الانسان واقتصاد البلاد. ولأهمية وخطورة موضوع التصحر، فقد اختارت الأمم المتحدة يوم 17 حزيران من كل عام للاحتفال باليوم العالمي لمكافحة التصحر والجفاف.

وعموماً فالبيئة الجغرافية لا تخلو من مفهوم الجفاف والظروف الصحراوية. والصحراء هي جزء أساسي من مكونات البيئة الطبيعية (النظام البيئي)، ولكن أين يكمن خطر الصحراء؟ ولماذا نتخوف منها؟ ألم تكن جزءاً من بيئتنا الطبيعية؟ ومتى يبدأ خطر الصحراء؟ ثم ماذا يعني التصحر؟ وهل الصحراء تعني التصحر؟ وما هو تعريف الامم المتحدة له؟ وماهي اسباب التصحر وخصوصا في العراق؟ وماهي طرق مكافحته؟ وهل للوزارات العراقية المختصة كالزراعة والموارد المائية دور في مكافحة التصحر ومعالجة أسبابه؟ وهل للتصحر آثار اجتماعية واقتصادية على البلاد؟ وماهي الاجراءات الحكومية لوقف زحف الصحراء على أراضينا الزراعية، وتحويل العراق الى عراق أخضر؟ وهل انضم العراق الى الاتفاقية العالمية لمكافحة التصحر؟.. أسئلة ومحاور عديدة ستتم الاجابة عليها.

يتلخص الموضوع بغزو التصحر لبعض المناطق الزراعية في العراق، وتأثير ذلك عليه وعلى الثروة الحيوانية من خلال تدهور النبات الطبيعي وانعدامه. وما أثر ذلك على غذاء الانسان والامن الغذائي للدولة؟ وما أثر غزو التصحر على فقدان الارض لتربتها وتعرضها للتعرية وهل للتصحر أثر على نشاط الانسان وفعالياته وعى هجرته الى مناطق المدن بسبب تدني انتاجية الارض وقسوة العوامل المناخية؟ في البدء من الضروري التعرف الى معنى التصحر وأسبابه بصورة عامة وفي العراق بشكل خاص وطرق مكافحته والاجراءات الحكومية الخاصة بذلك، اضافة الى التعرف الى مناطق التصحر في العراق وحالاته وأشكاله.

الصحراء:

قبل التطرق الى موضوع التصحر من الضروري التعرف الى الصحراء ونشأتها وسماتها وخصائصها العامة وأهم أنواعها.

لقد وضع العرب نحواً من أربعين اسماً للصحراء منها: (بادية، برية، بيداء، سبسب، عراء، فدفد، فلاة، فيفاء، قفر، مفازة، هيماء وغيرها ...) (1). وفي معجم المعاني الجامع ورد معنى (الصحراء) باعتبارها: "أرض فضاء واسعة فقيرة الماء". وتصحر المكان أي "تحول الى صحراء". تنتشر ظاهرة التصحر بسبب الجفاف – تصحر الاراضي الزراعية يمثل خطراً على اقتصادنا (2).

وتقع الصحاري ضمن الاقاليم الجافة والتي تعّرف بأنها المناطق التي تتميز بندرة الماء والجفاف وقلة الغطاء النباتي أو انعدامه. وقد عرف معجم المصطلحات الجغرافية الصحراء بأنها "المنطقة التي تكون الهواطل فيها ضئيلة جداً تخلو من المجاري المائية الدائمة، شبه قاحلة، شبه جرداء، تغطيها سهب متفاوتة الكثافة، فقر حيواني ونباتي، وتكون الحياة الموجودة فيها متكيفة ومتأقلمة مع ظروفها الصعبة".

ويبلغ معدل سقوط الامطار في مثل هذه المناطق نحو (25) سم أو أقل من ذلك سنويا وبالتالي تكون خالية من الغطاء النباتي والذي بدوره لا يساعد على وجود عدد ملموس من السكان. والصحاري عبارة عن بقاع تغطيها الرمال والحصى كما في الصحراء الغربية في العراق وصحراء الربع الخالي، أو تكون مغطاة بالركامات الجليدية كما في الصحاري القطبية.

كيف نشأت الصحاري:

كيف نشأت الصحاري، ولماذا يتركز وجودها في المناطق الواقعة بين خطي العرض 30 درجة شمالا و30 درجة جنوب خط الاستواء بالذات؟

يعتقد علماء الجغرافية بوجود ارتباط تكون حزام الصحاري العالمي بحركة الهواء الذي يندفع من خط الاستواء باتجاه القطبين الشمالي والجنوبي؛ حيث تصل منطقة خط الاستواء كمية كبيرة من أشعة الشمس طيلة أيام السنة، لذلك فإن الهواء في هذه المنطقة يسخن ويرتفع الى أعلى في الجو وبارتفاعه للطبقات الجوية العليا يبرد، فتتجمع الابخرة التي تحتوي عليها لتتكون الغيوم وتنزل أمطارا غزيرة في منطقة خط الاستواء، ما أدى ذلك الى نمو غابات كثيفة في المنطقة. وبعد أن يتخلص الهواء من حمولته من البخار تتجه حركته نحو القطبين، وفي منطقة خط عرض 25 درجة وبسبب حركة دوران الارض يبدأ الهواء بالهبوط باتجاه الارض وفي طريق هبوطه يسخن مما يحول دون تكون الغيوم لذلك ففي هذه المنطقة من الكرة الارضية من طرفي خط الاستواء تتكون مناطق جافة تعرف بالصحاري.

السمات والخصائص العامة للصحراء:

تتميز المناطق الصحراوية عموما ببعض السمات والخصائص من أهمها:

1. قلة الرطوبة وندرتها.
2. ارتفاع درجات الحرارة (كما في صحراء الربع الخالي) أو الانخفاض الشديد في درجة الحرارة (كما في الصحاري الجليدية كصحراء انتاركتيكا القطبية).
3. قلة الامطار.

4. ندرة الغطاء النباتي وانعدامه احيانا.
5. تميز معظم المناطق الصحراوية بأنها ذات تصريف مائي داخلي وذلك يعني ان المياه فيها تتسرب الى جوفها ونادرا ما تصل الى البحار المفتوحة عن طريق السيول.
6. تتميز الصحاري بوجود الرمال اضافة الى الحصى والصخور الرسوبية احيانا كما في الصحاري الحارة، أوفي الصحاري الباردة القطبية؛ حيث الركام الجليدي يغطي السطح.

أهم أنواع الصحاري:

على الرغم من انتشار الصحاري في جميع قارات العالم الا أنه توجد اختلافات بينها في التضاريس ودرجات الحرارة. ولذلك فقد وضعت عدة تصنيفات للصحاري من قبل العلماء الذين تناولوا هذه المادة بالدراسة، واشهر التصنيفات هو التصنيف الذي بني على أساس درجة الحرارة حيث قسمت الصحاري بموجبه الى ثلاثة اصناف:

1. الصحاري الحارة: وهي تلك التي يزيد فيها متوسط درجات الحرارة على (18 درجة مئوية)، ويتميز هذا النوع بأنه اكثر الانواع جفافا؛ حيث تقل الامطار فيها وتسقط بصورة فجائية، وتتميز أيضا بقلة غطائها النباتي أو يكون معدوما أحيانا. أما درجات الحرارة فتكون مرتفعة فيها كما في الصحراء الكبرى في افريقيا وصحراء الربع الخالي في شبه الجزيرة العربية والصحراء الاسترالية وصحراء المكسيك... الخ.
2. الصحراء المعتدلة: وهي تلك التي يقل متوسط درجات الحرارة عن (18 درجة مئوية) وتسقط الامطار بمتوسط أقل من (25 سم)، ويتميز مناخها بالبرودة في فصل الشتاء، وقد يتساقط الثلج وتصل الحرارة في الصيف الى مستويات عالية، في حين يتراوح معدل الرطوبة بين 5% و30% مثل صحراء بتاجونيا في امريكا الجنوبية وصحراء كازاخستان وصحراء جوبي في منغوليا.
3. الصحاري الباردة (الجليدية): وهي الصحاري التي يغطيها الجليد وتنخفض فيها الحرارة الى مستويات قياسية دون الصفر المئوي بكثير كما سجل ذلك في القطب الجنوبي. وتتميز هذه الصحاري بالجفاف حيث تكون الرطوبة محتبسة في التراكمات الجليدية ونادرا ما يحدث ذوبان للجليد. ومن الامثلة على ذلك صحراء انتاركتيكا في القطب الجنوبي وصحراء جرينلاند والصحاري الباردة في ألاسكا. ويلاحظ انحسار نسبي في الصحاري الباردة وزيادة في الصحاري الحارة بسبب ارتفاع درجات حرارة الارض، بفعل طبقة الاوزون والنشاط الصناعي واثره في رفع درجات الحرارة (3).

طرق تحديد المناطق الجافة:

تعتبر العناصر المناخية المتمثلة بدرجات الحرارة والتساقط المطري والتبخر من أهم العناصر المعتمدة في تحديد المناطق الجافة. ومن هذه التصنيفات: معيار مؤشر المطر (طريقة لانج) الذي اعتمد على مؤشر عامل المطر ضمن معادلة معينة، وهو يساوي المتوسط السنوي للتساقط بالمليمترات مقسوما على المتوسط الحراري السنوي بالدرجات المئوية وتصنف المناطق حسب النتائج، فاذا كانت النتيجة (صفر – 10) تعد المناطق شديدة الجفاف، واذا كانت (10 – 40) تعد مناطق جافة، واذا كانت (40 فأكثر) فتعد

مناطق رطبة. وهناك معيار (دي مارتون) الذي عدّل المعيار السابق واعتمد الحرارة والمطر، وهناك معيار خط المطر المتساوي حيث اعتبرت المناطق الشديدة الجفاف تلك التي تستلم معدل تساقط امطار سنويا بأقل من 25 ملم والجافة من 25 – 200 ملم، والرطبة من 200 – 500 ملم. كما يوجد تصنيف منظمة الغذاء والزراعة للأمم المتحدة (الفاو) حيث حددت المنظمة مناطق الجفاف وفق ضروريات الامن الغذائي العالمي الى مناطق شديدة الجفاف، نسبة التساقط السنوي فيها اقل من 80 ملم، والمناطق الجافة التساقط السنوي فيها من 80 – 150 ملم، والمناطق شبه الجافة من 200 – 250 ملم (4).

مفهوم التصحر:

اختلف الباحثون حول تعريف (التصحر) حيث عرفه (هورن مشينج) بأنه "امتداد مكاني للظروف الصحراوية في اتجاه المناطق الرطبة وشبه الرطبة"، وكما نرى من التعريف انه لم يشمل المناطق الجافة وشبه الجافة في حين انها اكثر المناطق عرضة للتصحر. أما (كنث هار) فعرف التصحر بأنه "افقار وتدهور للقدرة البيولوجية للنظام الايكولوجي البيئي". وفي هذا التعريف نقص أيضا حيث لم يشمل العوامل الطبيعية والبشرية كمسبب للتصحر (4).

وفي كتابه الموسوم: (التصحر في الوطن العربي) أورد المؤلف د. محمد رضوان الخوالي تعريفاً للتصحر بأنه "قابلية الصحراء والظروف شبه الصحراوية للامتداد واكتساح الأحزمة الخضراء والخصبة وتحويلها الى أراضي جافة".

أما في ويكيبيديا ـ الموسوعة الحرة فقد تم تعريف التصحر بأنه "تعرض الارض للتدهور في المناطق القاحلة وشبه القاحلة والجافة وشبه الرطبة، مما يؤدي الى فقدان الحياة النباتية والتنوع الحيوي بها، ويؤدي ذلك الى فقدان التربة الفوقية ثم فقدان قدرة الارض على الانتاج الزراعي ودعم الحياة الحيوانية والبشرية" (5).

ويعتبر هذا التعريف أفضل من سابقه كونه تناول المناطق القاحلة وشبه القاحلة والجافة وشبه الرطبة، ولكنه ركز فقط على العامل الطبيعي ولم يتناول تأثير العامل البشري في تدهور الارض وفقدانها الحياة النباتية والتنوع الحيوي بها.

أما بالنسبة للأمم المتحدة ومن خلال منظمة اليونيب (UNEP) فقد عرفت التصحر أثناء انعقاد مؤتمر نيروبي بأنه "انخفاض أو تدهور قدرة الانتاج البيولوجي للارض، مما يؤدي في النهاية الى خلق أوضاع شبه صحراوية". غير ان هذا التعريف غير كاف كما اعتبرته المنظمة لاحقا، لذلك تم اعتماد التعريف التالي أثناء انعقاد الاجتماع الاستشاري المعني بتقييم التصحر في نيروبي عام 1990 والذي نص على الآتي: "تدهور الارض في المناطق الجافة وشبه الجافة والمناطق القاحلة شبه الرطبة نتيجة لآثار بشرية معاكسة". غير أن هذا التعريف يعتبر غير شامل كونه أهمل العوامل الطبيعية التي تسبب وبالتضافر مع العوامل البشرية في نشوء التصحر وتفاقمه. لاحقا توصل مؤتمر الامم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية المنعقد في ريودي جانيرو بالبرازيل في حزيران عام 1992 الى التعريف الآتي: "التصحر: تدهور الاراضي في المناطق القاحلة وشبه القاحلة وشبه الرطبة الجافة نتيجة لعوامل مختلفة من بينها التقلبات المناخية

والنشاطات البشرية". وقد اقر التعريف كما هو في الاتفاقية الدولية لمكافحة التصحر (UNCCD) والتي بدورها اقرت عام 1996. ويعتبر تعريف الامم المتحدة الاخير افضل التعاريف كونه اقر بدور العامل الطبيعي والبشري في نشوء ظاهرة التصحر في المناطق القاحلة وشبه القاحلة وشبه الرطبة والرطبة. اذاً التصحر يعني: التدهور التدريجي في القدرة الانتاجية للتربة والغطاء النباتي في المناطق الجافة وشبه الجافة والرطبة وشبه الرطبة، حيث تتضافر العوامل الطبيعية من تقلبات مناخية وزحف الكثبان الرملية الى جانب النشاطات البشرية المؤثرة على التربة والغطاء النباتي في نشوء التصحر، والتي ابرز مظاهرها (6):

- تملح التربة.
- تعريتها.
- تكوين الكثبان الرملية وزحفها.
- قلة التنوع البيولوجي.

كما ان أهم المؤشرات الطبيعية للتصحر هي (7):

1. غزو الكثبان الرملية للأراضي الزراعية.
2. تدهور الاراضي الزراعية المعتمدة على الامطار.
3. تملح التربة.
4. ازالة الغابات وتدمير النباتات.
5. انخفاض كمية ونوعية المياه الجوفية والسطحية.
6. تدهور المراعي.
7. انخفاض خصوبة الاراضي الزراعية.
8. اشتداد نشاط التعرية المائية والهوائية.
9. زيادة ترسبات السدود والانهار واشتداد الزوابع الترابية وزيادة كمية الغبار في الجو.

ويعتبر التصحر اليوم مشكلة عالمية تعاني منها العديد من البلدان في كافة انحاء العالم وقد بلغ مجموع المساحات المتصحرة في العالم حوالي 46 مليون متر مربع؛ منها 13 مليون متر مربع تخص البلدان العربية، اي حوالي 28% من جملة المناطق المتصحرة في العالم.

أسباب التصحر:

يمكن أن نعزو أسباب التصحر الى مجموعتين من العوامل:

1. عوامل طبيعية.
2. عوامل بشرية.

حيث أن لتغيرات المناخ دورا مهما في نشوء التصحر، فارتفاع درجات الحرارة وقلة الامطار يساعدان على سرعة التبخر وتراكم الاملاح في الاراضي المزروعة. كما أن السيول تجرف التربة وتقتلع المحاصيل ما يهدد خصوبة التربة. وتعمل الرياح خاصة اذا كانت شديدة السرعة على تحريك وزحف الكثبان الرملية على المناطق الزراعية. ويعمل ارتفاع منسوب المياه الجوفية التي تزداد ملوحتها بمرور الوقت على رفع درجة ملوحة التربة وتصحرها. اضافة الى ذلك فان شدة الرياح تؤدي الى جفاف النباتات وذبولها الدائم خاصة اذا استمرت فترة طويلة كما انها قد تؤدي الى قلع النباتات وخاصة تلك ذات الجذور الضحلة ما يؤدي الى ازالة الغطاء النباتي. فعوامل الرياح والامطار الغزيرة والسيول تسبب انجراف التربة حيث يجرفان سنويا الاف الاطنان من جزيئات التربة التي تحتوي على المواد العضوية والنيتروجين والفوسفات والبوتاسيوم والكالسيوم والكبريت وغيرها من العناصر. كما

يعتبر انجراف التربة من اخطر العوامل التي تهدد الحياة النباتية والحيوانية في مختلف انحاء العالم. هذا ما يتعلق بالعوامل الطبيعية، اما بالنسبة للعوامل البشرية وتأثيرها في نشوء التصحر، حيث زاد النشاط البشري مؤخرا من عملية انجراف التربة نتيجة لمعاملات غير واعية مثل (8):

1. ازالة الغطاء النباتي.
2. الرعي الجائر خاصة في الفترة الجافة.
3. المعاملات الزراعية غير الواعية مثل حرث التربة في أوقات الجفاف غير المناسبة مما يؤدي الى تفكك الطبقة السطحية من التربة ويجعلها عرضة للانجراف.
4. ازالة الغابات التي تعمل على تماسك التربة.
5. الرعي الجائر يؤدي الى حرمان الارض من حشائشها وبالتالي تعرضها بسهولة الى الانجراف بفعل الرياح او الامطار والسيول.
6. اساليب الري الرديئة.

اما بالنسبة للأمم المتحدة فقد حدد تقريرها أربعة أنشطة بشرية تسبب التصحر وهي: الاستعمال المجحف للأراضي الزراعية ما يؤدي الى تدهور التربة واستنفاد خصوبتها، والرعي الجائر والمبكر الذي يؤدي الى تدهور الغطاء النباتي الرعوي الذي يحمي التربة، وازالة الغابات التي تعمل على تثبيت التربة وتحافظ على تساقط المياه والاسراف في الري وسوء الصرف الذي يؤدي الى زيادة نسبة ملوحة وتصحر الاراضي. وتشير تقارير الأمم المتحدة الى أن العالم يفقد سنويا حوالي 24 مليار طن من التربة السطحية، وأن حوالي 70% من اجمالي مساحة الاراضي الجافة المستخدمة في الزراعة في العالم، تضررت بدرجات متفاوتة من جراء عمليات التصحر (9).

التصحر في العراق:

هنالك علاقة بين التصحر في العراق وشح الموارد المائية فيه؛ حيث قلة الاراضي المستثمرة في الزراعة في معظم مناطق العراق بسبب تراجع الموارد المائية.

عوامل نشوء التصحر في العراق:

1. ان 90% من مساحة العراق تقع ضمن منطقة المناخ الجاف وشبه الجاف حيث يقع المناخ الصحراوي الحار والجاف في حدود منطقة السهل الرسوبي والهضبة الصحراوية الغربية (10)، ويمثل هذا المناخ حوالي 70% من مساحة العراق الكلية (11).
2. ارتفاع درجات الحرارة في الصيف التي تصل احيانا الى أكثر من 50 درجة مئوية (كما شهد هذا الصيف ذلك) مع ارتفاع نسبة التبخر وكذلك ارتفاع عدد الايام المشمسة والتي يصل معدلها السنوي الى 260 يوما.
3. هبوط نسبة تساقط الامطا، وتفاوت كمياتها بين 5 – 15 سم، متأثرة بنسبة التبخر العالية اذ تقل في اغلب مناطق العراق، ولا يتجاوز معدل الامطار في الجنوب 40 يوما وفي الشمال 70 يوما مع قلة الرطوبة التي تعتبر مهمة جدا في الدورة البيولوجية للتربة ونمو الاعشاب.
4. الرياح السائدة في العراق هي الرياح الشمالية الغربية الجافة والحارة وتعمل على نشر الغبار المحلي، ويرافقها صيف حار جاف وطويل. وهذا العامل له دور مهم في حدوث التصحر في العراق. هذا في ما

يتعلق بالعوامل الطبيعية، وهناك عوامل بشرية تتعلق بالإنسان والادارة ولها دورها في التصحر متمثلة بسوء استغلال الموارد الطبيعية والممارسات الخاطئة للإنسان، كما في القطع الجائر للأشجار والشجيرات، والرعي الجائر؛ حيث قطعت أعداد كبيرة من الاشجار والشجيرات في مناطق العراق المختلفة ابان فترة الحصار والنقص الحاد في الوقود فترة التسعينات من القرن الماضي. كما تعرضت غابات شمال العراق الى التلف، بسبب القطع العشوائي والحملات العسكرية للقضاء على الحركات الكردية، أيام حكم النظام المقبور، وما رافقها من احراق الاف القرى؛ حيث تراجعت مساحات الغابات في فترة وجيزة. كذلك تراجعت اعداد النخيل من حوالي 30 مليون نخلة الى حوالي 12 مليون نخلة، بسبب الحرب مع ايران وقلة المياه والآفات الزراعية والإهمال. كما اسهم النظام السابق في تغيير التوازن البيئي من خلال تجفيفه الاهوار والدمار البيئي الذي لحق بهذه المنطقة بحياتها النباتية والحيوانية.

حالات التصحر في العراق

العراق من البلدان الزراعية القديمة في التاريخ والذي نشأت فيه اولى الحضارات الانسانية، ومنذ ذلك الوقت والى اليوم، فانه يعاني من مشكلة الملوحة؛ حيث انتشرت في العديد من الاراضي الزراعية الخضراء، والحقت الضرر بها وتقليصها، في الوقت الذي يزداد فيه عدد سكان العراق. ومن حالات التصحر في العراق:

1. تملح التربة: بسبب ارتفاع درجات الحرارة وخاصة في فصل الصيف، والتي قد تصل الى 50 درجة مئوية واكثر احيانا، ما يؤدي الى زيادة نسبة التبخر في المياه السطحية وترسب الاملاح وزيادتها والتي اخذت تهدد الاراضي الزراعية والصالحة للزراعة، وتبقى مشكلة تملح التربة من ابرز المشاكل التي تعاني منها التربة.

2. انجراف التربة: ويظهر انجراف التربة في المناطق الجبلية الشديدة الانحدار في شمال وشمال شرق العراق؛ حيث تساعد الامطار والثلوج في هذه المنطقة في تعرض التربة الى الانجراف من المرتفعات الى الجهات المنخفضة. وتقدر نسبة التصحر بهذا النوع بـ 13%.

3. الزحف الصحراوي: تعاني الاراضي الزراعية خاصة في منطقة الفرات الاوسط واعالي الفرات من تعرضها للرمال المتحركة؛ اذ تقدر مساحة الكثبان الرملية في العراق بأكثر من 6 مليون دونم، تتوزع على جهات العراق المختلفة والممتدة من جنوب البصرة وحتى النجف بمساحة تقدر بـ(1684000 دونم). وهناك نطاق ثاني يمتد من شمال غرب كربلاء وحتى الانبار والذي تقدر مساحته بـ(38000 دونم). أما بالنسبة للنطاق الثالث من الزحف الصحراوي فيقع شرق نهر دجلة ضمن منطقة علي الغربي في محافظة ميسان.

4. الزحف الصحراوي: تعاني الاراضي الزراعية خاصة في منطقة الفرات الاوسط واعالي الفرات من تعرضها للرمال المتحركة؛ حيث تقدر مساحة الكثبان الرملية في العراق بأكثر من 6 ملايين دونم؛ تتوزع على جهات العراق المختلفة والممتدة من جنوب البصرة وحتى النجف بمساحة تقدر بـ (1684000 دونم). وهناك نطاق ثاني يمتد من شمال غرب كربلاء وحتى الانبار والذي تقدر مساحته بـ(38000 دونم). أما بالنسبة للنطاق

الثالث من الزحف الصحراوي فيقع شرق نهر دجلة ضمن منطقة علي الغربي في محافظة ميسان.

وفي العراق تتسارع ظاهرة التصحر؛ اذ تقدر نسبة الاراضي المعرضة للتصحر بأنها تتجاوز 92% من مجموع المساحة الاجمالية، ونلاحظ الاراضي المتصحرة في محافظة بابل في منطقة الشوملي/ المدحتية، وفي محافظة صلاح الدين حيث توجد في تكريت وبيجي بينما توجد في الديوانية في منطقة عفك. اما في محافظة الانبار فاغلب اراضيها صحراوية وتتعرض لتدهور الغطاء النباتي بسبب قلة الامطار والرعي الجائر والتحطيب.

وفي الناصرية توجد في جنوب البطحاء ومركز الناصرية الى البصرة، كذلك توجد في البصرة وواسط وفي نينوى وكربلاء والمثنى؛ حيث التصحر اصاب مناطق واسعة من افضل الاراضي الزراعية (12).

لقد اخذت مشكلة التصحر في العراق بالتفاقم في مطلع السبعينيات من القرن الماضي، بسبب شح المياه وظهور العواصف الترابية الى جانب العمليات العسكرية ودور الانسان السلبي في تجريد الارض من تربتها وغطائها النباتي (13).

اثار التصحر على الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

يؤثر التصحر على تدهور الارض وعلى انتاج الاغذية والمواد الزراعية الاخرى ويؤدي الى:

1. تبوير الاراضي وما ينتج عنها.
2. تزايد هجرة سكان الريف والرعاة نحو المدن طلبا للعمل ولحياة أفضل حيث يقوم المهاجرون بإنشاء ابنية سكنية عشوائية على الاراضي الزراعية المحيطة بالمدن ما يؤدي الى فقدان جزء من مساحة الاراضي الزراعية.
3. خسارة القوى العاملة في الريف ما يؤدي الى نقص الايدي العاملة في الريف ويولد ضغط الهجرة الى المدن الكثير من المشاكل الاجتماعية مثل انخفاض المستوى المعيشي، البطالة، الخدمات الصحية، قلة السكن، التوترات والنزاعات العشائرية، الاخلال بالأمن.
4. احداث سلسلة من اوجه الخلل في العمليات التربوية.
5. نقل العادات والتقاليد العشائرية السلبية الى المدن كما حصل في العراق.
6. الاضرار الكبيرة التي يحدثها التصحر، تحتاج الى استصلاح الاراضي الزراعية والتي تكون مكلفة ماليا، وقد يكون ذلك غير مجد اقتصاديا، اضافة الى ان الدول الفقيرة غير قادرة على مثل هذه الاجراءات.

مكافحة التصحر:

من الضروري جدا العمل على ازالة أسباب التصحر ووقاية الاراضي الخصبة قبل تدهورها وفقا لمبدأ "الوقاية خير من العلاج"، وذلك من خلال:

1. تنظيم الرعي وتنمية المراعي والحد من الرعي الجائر.
2. العمل على تثبيت الكثبان الرملية عن طريق انشاء الحواجز العمودية على اتجاه الرياح من خلال الحواجز النباتية وخاصة تلك التي لها القدرة على تثبيت الرمال، فالتشجير هو الافضل في عملية التثبيت. وكذلك من الضروري اقامة الاحزمة الخضراء حول المدن لحمايتها من العواصف الترابية.

3. الحواجز الصلبة: وذلك باستخدام الحواجز الساترة من الجدران او جذوع الاشجار القوية والمتشابكة مع بعضها البعض.
4. الطرق الكيميائية مثل استخدام مشتقات النفط وتكون على شكل رذاذ يلقى على التربة السطحية، ولكن لهذه الطريقة اخطارها مثل تلوث التربة والمياه وتأثير ذلك على النباتات.
5. صيانة الموارد المائية وحمايتها، وذلك بحسن استغلالها واستخدام الطرق الحديثة في الري.
6. تطوير القدرات البشرية، وذلك باستخدام التكنولوجيا الحديثة وتدريب المختصين عليها مثل الاستشعار عن بُعد، والتصوير الجوي وتحديد تواجد المياه الجوفية في باطن الارض.
7. نشر الوعي البيئي بين المواطنين خاصة المزارعين واصحاب المواشي والرعاة.
8. اتباع الدورات الزراعية، واقامة المحميات الطبيعية، والعمل على تنمية المناطق الصحراوية.
9. الاهتمام بالمراعي الطبيعية وتوفير الغطاء النباتي لمنع تعرية وانجراف التربة (14).

في العراق تتطلب عملية مكافحة التصحر، جملة من الاجراءات من بينها:

1. الحوار والدبلوماسية مع الجانب الايراني والتركي والسوري لضمان حصة العراق المائية وفقا للمواثيق الدولية الخاصة بالدول المتشاطئة، والاستعانة بهيئة الامم المتحدة لضمان حقوق الشعب العراقي في المياه.
2. زراعة الاحزمة الخضراء حول المدن كمصدات للرياح الغربية السائدة في العراق الى جانب زراعة الاشجار داخل المدن المحايدة للصحراء الغربية.
3. منع قطع الاشجار والشجيرات بموجب تشريع قانوني.
4. العمل باستمرار على تحسين البيئة من خلال زراعة الاشجار عند السدود والبحيرات والوديان للتخفيف من ارتفاع درجات الحرارة العالية وتلطيف الجو.
5. تثبيت الكثبان الرملية في المناطق الصحراوية واطرافها عند مدن الناصرية والديوانية والسماوة والبصرة وكربلاء والنجف والكوت والانبار وصلاح الدين.
6. حفر الابار في المناطق الصحراوية للاستفادة من المياه الصالحة لأغراض الزراعة والري مع استخدام الطرق الحديثة في الري.
7. معالجة ملوحة التربة واستصلاح الاراضي الزراعية وانشاء المبازل وصيانة القائم منها.
8. منع تحويل مناطق الرعي الى مناطق زراعية وخاصة تلك التي يقل فيها معدل الامطار عن (250 – 300 ملم)، اي المناطق التي يقل فيها المطر عن حاجة النبات.
9. زيادة الدعم المالي للهيئات المتخصصة، لكي تتمكن من مكافحة التصحر ووضع البرامج لذلك.
10. الدعوة لتعاون الوزارات والهيئات ذات العلاقة لمواجهة ظاهرة التصحر الخطيرة، والعمل على تشجيع البحث العلمي في مجال تطوير الزراعة والري.
11. ضرورة انشاء سد على شط العرب لتوفير المياه واعادتها الى الاراضي العراقية، بدلا من القائها في الخليج العربي، وسيسهم ذلك في احياء العديد من الاراضي الصالحة للزراعة.

12. العمل على زراعة المناطق الصحراوية غرب العراق وجنوبه حيث سيخلص ذلك العراق من العواصف الترابية وبنسبة 50%.

دور الوزارات العراقية المتخصصة في مواجهة التصحر:

أولت وزارة الموارد المائية اهتماما خاصا في مجال استصلاح الاراضي وانشاء مشاريع الري والبزل في مناطق متفرقة بوسط وجنوب العراق، اضافة الى صيانة المبازل والجداول، كما تقدم المشورة لوزارة الزراعة في تحديد المواقع التي تتوفر فيها المياه الجوفية الصالحة لأغراض الزراعة وخاصة في المناطق الصحراوية. وحسب بيانات وزارة الموارد المائية فقد شملت مكافحة التصحر زراعة نحو 500 دونم في بابل والنجف والكوت والعمارة والانبار والعظيم، وزرعت هذه المساحات بأشجار الزيتون والحمضيات والكمثري ونباتات الزينة والكالبتوس والاشجار المثمرة.

أما بالنسبة لوزارة الزراعة فقد وضعت خطة لمكافحة التصحر الذي يغطي اكثر من 4 ملايين دونم من الاراضي في العراق. وتشمل الخطة غرس شتلات الزيتون عالي الزيت في الواحات الصحراوية، بواقع 30 ألف شتلة في عشر واحات، وتسقى بأسلوب الري بالتنقيط، اضافة الى القيام بتثبيت الكثبان الرملية في الناصرية، وفتح طريق ترابي بطول 1500 متر داخل الكثبان، كذلك تتضمن الخطة خلط الرمال بالتربة الطينية الثقيلة بنسب محسوبة لتثبيتها ووقف زحف الكثبان الرملية.

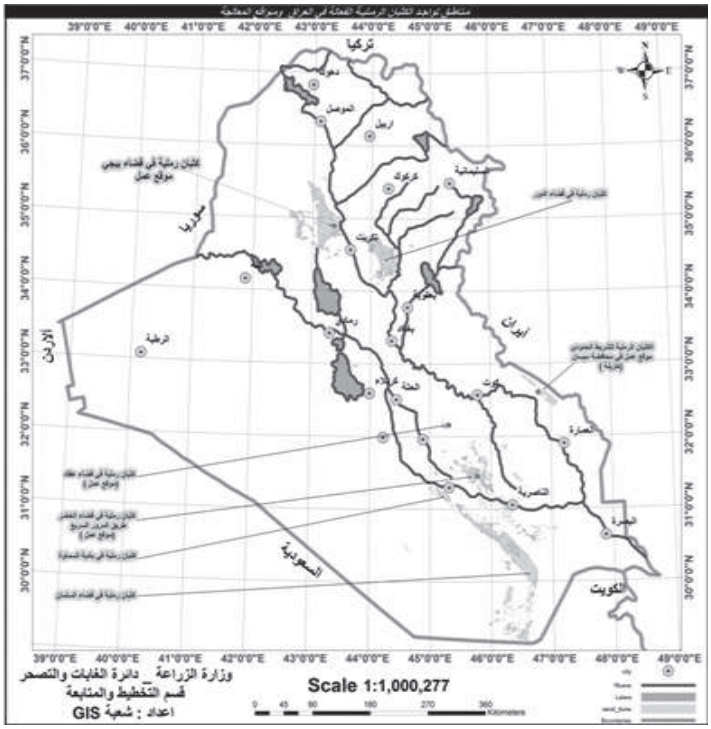

الهوامش:

(1) معجم المعاني / مرادفات كلمة صحراء في قاموس المعاني.

(2) معجم المعاني الجامع.

(3) سام، ويريل ابشتين، كل شيء عن الصحراء، ترجمة د. مصطفى بدران، دار المعارف، القاهرة، 1976.

(4) علي غليس ناهي، المفهوم والمنظومة الجغرافية لظاهرة التصحر، مجلة ميسان للدراسات الاكاديمية، المجلد الثامن العدد الخامس عشر كانون الاول 2009.

(5) ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(6) علي غليس ناهي، المفهوم والمنظومة الجغرافية لظاهرة التصحر، مصدر سابق.

(7) عن الوحدة التعليمية العاشرة / تصحر الاراضي.

(8) ظاهرة التصحر... أسباب التصحر.. طبيعة التصحر في العالم، منتدى الادارة العامة للتعليم بمنطقة القصيم.

(9) التصحر المرض الفتاك في كوكبنا، منتدى طلاب الجيولوجيا في جامعة تشرين.

(10) طالب العنزي، التصحر في العراق تسبب بفقدان 100 ألف دونم من الاراضي الزراعية وهجرة اصحابها للمدن، جريدة المؤتمر، العدد 2983 في 5 حزيران 2014.

(11) د. جاسم محمد الخلف، جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، القاهرة 1965، ص 118.

(12) د. هاشم نعمة، مشكلة التصحر وابعادها الاقتصادية والاجتماعية في العراق، دراسة منشورة على الانترنت على الرابط الآتي: http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=10989

(13) عن الجزيرة نت – بغداد، التصحر يهدد العراق.

(14) الموسوعة البيئية، طرق مكافحة التصحر، 21 تشرين الثاني 2011 .

يمكن مراسلة الكاتب عبر البريد الالكتروني على العنوان الآتي: adelshibeeb@ymail.com

نشوء آلية حق المرأة في الانتخاب وفق الدساتير العراقية

جاسم هداد

جاسم هداد من مواليد مدينة السماوة في عام 1951، تخرج من معهد الهندسة التطبيقية العالي/ جامعة بغداد عام 1970، ماجستير في القانون الدستوري بإمتياز من معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة، صدر له "حقوق المرأة السياسية في الدساتير العراقية" عن دار الرواد المزدهرة- بغداد- 2015.

تمهيد

الانتخاب هو توكيل ونيابة وهو: (اختيار الأمة لوكلاء ينوبون عنها في التشريع، ومراقبة الحكومة، والمرأة في الإسلام ليست ممنوعة من أن توكل إنسانا بالدفاع عن حقوقها والتعبير عن إرادتها، كمواطنة في المجتمع) (1)، أو هو: (الوسيلة الديمقراطية لإسناد السلطة السياسية، والتي يتحقق عن طريقها تكوين الهيئات النيابية) (2).

بعض الفقهاء الدستوريين يعتبرون الانتخاب حقا شخصيا يتمتع به كل مواطن؛ بحيث يعطى لكل فرد باعتباره من الحقوق السياسية التي لا يجوز حرمان أحد منها (3).

ومن الاعتراضات التقليدية على إتاحة حق الانتخاب للمرأة:

1. أن المرأة ليست ملزمة بالخدمة العسكرية مثل الرجل.

2. عدم تحمل المرأة الأعمال الشاقة، ومكانها الطبيعي المنزل ورعاية الأطفال.

3. اشتغال المرأة بالسياسة يسبب المشاكل داخل الأسرة.

4. ليس من حق المرأة الترشح أو التصويت في الانتخابات أو تقلد الوظائف العامة، لأن الآية الكريمة "الرجال قوامون على النساء" حصرت القوامة بالرجال.

وهذه الحجج قد فندها فقهاء القانون، ومنهم: الدكتور ثروت بدوي، والدكتور عبد الحميد متولي، والدكتور محمد أنس قاسم جعفر، وأود القول: إن بعض الدول لا يوجد فيها نظام الخدمة العسكرية الإلزامية، كالعراق مثلاً ودول الخليج. وأن بعض المهن التي تمتهنها المرأة أكثر مشقة من العمل النيابي. أما رعاية الأطفال والمنزل فالعدالة الإنسانية والاجتماعية تتطلب التعاون بين الزوجين لإنجازها. وحدوث مشاكل عائلية بسبب اشتغال المرأة بالسياسة فهي فرية غير مبررة، لأن المشاكل العائلية إن حدثت، فيمكن أن

تحدث لأتفه الأسباب أحياناً.
واتفق مع الرأي القائل بأن المقصود بالقوامة، هو قوامة الرجل الأسرية، ومسؤوليته تجاه أسرته، ولا علاقة لها بتمتع المرأة بحقوقها السياسية.
أما الشروط الواجب توافرها في الناخب فيكاد يكون هناك اتفاق عليها في أغلب قوانين الانتخابات، والتي تتلخص بشروط الجنسية والسن والأهلّية العقلية والأدبية.
بعد دخول الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى الى جانب ألمانيا، وبخسارتها للحرب تم احتلال العراق ودخول القوات البريطانية بغداد 3/11/ 1917، وتم حكم العراق حكماً عسكرياً وبقوانين عسكرية لغاية 20 /11 /1920؛ حيث تفجرت ثورة شعبية مسلحة سميت بـ "ثورة العشرين" في 30 /6 /1920، واستمرت لستة شهور أجبرت المحتل البريطاني على تأسيس الحكم الوطني في العراق؛ حيث تشكلت في بادئ الأمر حكومة مؤقتة في 25 /10 /1920 برئاسة عبد الرحمن الكيلاني (4)، اعدت لتتويج فيصل ابن الحسين ملكا على العراق في 23 /8 /1921، ويعتبر بداية تاريخ الحكم الوطني في العراق. وسوف يتم تقسيم التاريخ السياسي للعراق وفق الآتي:

المبحث الأول

العهد الملكي: 23 /8 /1921 – 14/7/ 1958

سيتم تناول المراحل التاريخية للعهد الملكي في اربعة مطالب:

المطلب الأول

عهد الملك فيصل الأول: 23 /8 /1921 – 8 /9 /1933

يعتبر تاريخ تتويج الملك فيصل بن الحسين ملكاً على العراق تاريخاً لبداية العهد الملكي في العراق، وهذه الدولة الجديدة تطلبت وجود دستور أو قانون أساسي ينظم السلطات فيها، ومجلس نواب يقر هذا الدستور الجديد. وعليه بدأت الدولة الفتية بتنظيم أول انتخابات شهدها العراق الجديد لانتخاب المجلس التأسيسي، والتي بدأت في 25 /2 /1924، وانتهت في آذار 1924، والتي أجريت بموجب "النظام المؤقت لانتخابات المجلس التأسيسي العراقي"، والذي نصت المادة السادسة منه على أن: (يبدأ في كل قضاء عند ورود الأمر بتنظيم دفتر أساسي يحتوي على جميع أسماء نفوسه الذكور الحائزين حق الانتخاب) (5)، وكذلك نصت المادة "18" على أنه: (يعتبر كل العراقيين الذكور منهم منتخبين أوليين ما عدا من ذكر في المادة العشرين...) (6)، ونص المادتين أعلاه واضح وصريح فحق الانتخاب مقتصراً على الذكور، أي: دون الإناث، وحددت المادة "20" الشروط الواجب توافرها في من يحق له الانتخاب فنصت على أنه: (لا حق في الانتخاب لمن لم يكمل سن الحادية والعشرين ولمن كان ساقطاً من الحقوق المدنية، ولمن كان تابعاً لدولة أجنبية أو مدعياً بتابعيتها أو محكوماً عليه بالإفلاس، ولم يعد اعتباره أو محجوراً عليه، ولم يفك حجره، أو محكوماً عليه بجناية مهما كانت، أو جنحة تمس بالشرف كالسرقة أو الرشوة وسوء استعمال الأمانة والتحريف والتزوير والاحتيال، وما شاكل ذلك، أو كان لا يؤدي للحكومة أو للبلدية ضريبة كثرت أو قلت والساكن في دار تؤدي ضريبة للبلدية أو للحكومة يعتبر كالذي يؤديها رأساً) (7).
ولقد تم افتتاح المجلس التأسيسي الذي

تألف من "100" عضو في 27 /3 /1924، وحددت له ثلاث مهام هي إقرار المعاهدة البريطانية ـ العراقية لعام 1922، وتشريع القانون الأساسي العراقي، وقانون انتخاب مجلس النواب. كما جاء في خطاب العرش الذي القاه الملك فيصل الأول عند افتتاح المجلس، والذي جاء فيه: (إن الأمة قد انتدبتكم أيها النواب إلى النظر في أمور جوهرية هي الأسس المتينة التي يشاد عليها بنيان نظامها واستقلالها:

أولاً: البت في المعاهدة العراقية ـ البريطانية لتثبيت سياستها الخارجية.

ثانياً: سن الدستور العراقي لتأمين حقوق الأفراد والجماعات، وتثبيت سياستها الداخلية.

ثالثاً: سن قانون الانتخاب للمجلس النيابي، الذي يجتمع لينوب عن الأمة، ويراقب سياسة الحكومة وأعمالها) (8).

ولقد أنجز المجلس التأسيسي مهامه في:

1. التصديق على المعاهدة؛ حيث صادق عليها في 10 /6 /1924 بأغلبية "37" صوتا مقابل "24" معارضا. وتحفظ "8" اصوات؛ حيث كان الحضور "69" نائباً من مجموع "100" نائب عدد أعضاء المجلس التأسيسي (9).

2. وتشريع القانون الأساسي العراقي "الدستور" في 10 /7 /1924، والذي بدأ العمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية في 21 /3 /1925، والذي يعد اول وثيقة دستورية للدولة العراقية التي تأسست عام 1921 (10).

3. تشريع قانون انتخاب مجلس النواب في 2 /8 /1924، وتم نشره في 22 /10 /1924 وتم تعيين يوم 15 /11 /1924 تاريخاً لإجراء الانتخابات.

وبعد أن أنجز المجلس التأسيسي المهام التي تم انتخابه من أجلها تم حله في 3 /8 /1924، لم يمنح القانون الأساسي المرأة حقوقها السياسية، أي: حرمها من حق التصويت والترشيح، برغم أن المادة "6" من القانون الأساسي لسنة 1925 نصت على أنه: (لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون وأن اختلفوا في القومية والدين واللغة) (11)، وكذلك المادة "18" نصت على أن: (العراقيين متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة أو الدين...) (12).

ولكن المادة "36" من القانون الأساسي تنص على أن: (يتألف مجلس النواب بالانتخاب بنسبة نائب واحد عن كل عشرين ألف من الذكور) (13)، وهذه المادة الدستورية أغلقت الباب بوجه المرأة، وحجبت عنها ممارسة حقوقها السياسية.

أما الشروط الواجب توافرها في الناخب فاقتصرها قانون انتخاب النواب لسنة 1924 على الذكر الذي أكمل العشرين من عمره، وكان اسمه مدوناً في سجل الناخبين؛ حيث نصت المادة الثالثة على أن كل عراقي مدون اسمه في سجلات الانتخاب (كما جاء في المادة "10" يعتبر منتخباً أولاً إلا:

أولاً: من لم يتم العشرين من عمره.

ثانياً: من كان ذا جنسية أو حماية أجنبية أو يدعمهما.

ثالثاً: من كان محكوماً عليه بالإفلاس ولم يعد اعتباره قانوناً.

رابعاً: من كان محجوراً عليه ولم يفك حجره.

خامساً: من كان ساقطاً من الحقوق المدنية.

سادساً: من كان محكوماً عليه بجناية مهما كانت أو جنحة تمس الشرف كالسرقة والرشوة والاختلاس والتزوير والاحتيال، وما أشبه ذلك.
سابعاً: من كان لا يؤدي الى الحكومة أو البلدية ضريبة كثرت أو قلت. والساكن في دار أو محل تؤدى عنه ضريبة إلى الحكومة أو البلدية يعتبر كالذي يؤديها رأساً.
ثامناً: من كان مجنوناً أو معتوهاً).
تم إجراء الانتخابات وأعلن عن نتائجها في 23/6/ 1925 وتألف المجلس من "88" عضواً، وعقد أول اجتماع له "الدورة الانتخابية الأولى" في 16/7/ 1925.
تم تكليف عبد المحسن السعدون برئاسة الوزارة، فاشترط حل البرلمان، وإجراء انتخابات جديدة لضمان مجيء اغلبية برلمانية مريحة له، فتم حله في 18/1/ 1928 وجرت انتخابات جديدة في 9/5/ 1928 ووصل المجلس "66" نائباً من أنصار الحكومة من أصل "88" نائباً، وعقد المجلس دورته الانتخابية الثانية في 19 /5 /1928.
وفي 23 /3 /1930 تم تكليف نوري السعيد برئاسة الوزارة، ومن أجل تمرير الإتفاقية البريطانية العراقية الجديدة في عام 1930، استجاب الملك لطلب نوري السعيد بحل مجلس النواب، وتم ذلك في 1 /7 /1930، وجرت الانتخابات في 20 /10 /1930، واستطاع نوري السعيد كونه رئيس الوزراء ووزير الداخلية تأمين وصول "74" من أنصاره إلى مجلس النواب من أصل "88" نائباً، وبذلك ضمن تمرير المعاهدة، وعقد المجلس دورته الانتخابية الثالثة في 1 /11 /1930.
وبعد دخول العراق عصبة الأمم المتحدة عام 1932، قام الملك بحل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة في 10 /12 /1932، وعقد المجلس دورته الانتخابية الرابعة في 8 /3 /1933.
ويمكن ملاحظة أن العراق شهد في عهد الملك فيصل الأول 1921 – 1933 إجراء خمس عمليات انتخابية، أسفرت عن مجلس تأسيسي وأربعة مجالس نيابية (14).

المطلب الثاني

عهد الملك غازي الأول: 8/ 9/ 1933 - 4/ 4/ 1939

1. توج الملك غازي ملكاً على العراق في 9/8/ 1933 بعد وفاة والده الملك فيصل الأول، وتم تكليف علي جودت الأيوبي بتشكيل الوزارة، الذي سارع بطلب حل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة، والتي تمت في أوائل كانون الأول 1934، وعقد المجلس دورته الانتخابية الخامسة في 29 /12 /1934.
2. وعندما شكل ياسين الهاشمي الوزارة في 17 /3 /1935 طلب من الملك حل مجلس النواب، وتم إجراء انتخابات جديدة في 4 /8 /1935، وتمت زيادة عدد أعضاء المجلس إلى "108" أعضاء بدلاً من "88" عضواً. ولقد اتبعت وزارة الهاشمي نفس الأساليب التي اتبعتها الوزارات السابقة في انتخابات المجالس النيابية السابقة في تأمين وصول أغلبية من انصاره لعضوية مجلس النواب (15)، وعقد المجلس دورته الانتخابية السادسة في 8 /8 /1935.
3. إثر الانقلاب العسكري الذي قام به الفريق بكر صدقي رئيس أركان الجيش في 29 /10 /1936، وهو أول انقلاب عسكري في العراق وفي الشرق الأوسط، تم تكليف حكمت سليمان برئاسة الوزارة، وتم حل مجلس النواب في 31 /10

/1936، وجرت انتخابات لمجلس النواب في 20 /2 /1937، وعقد المجلس دورته الانتخابية السابعة في 27 /2 /1937.

4. إثر اغتيال بكر صدقي في 11 /8 /1937 قدم حكمت سليمان استقالة حكومته في 17 /8 /1937، وتم تكليف جميل المدفعي بتشكيل الحكومة، والذي كان من أولويات حكومته حل مجلس النواب وإجراء انتخابات جديدة، والتي تمت في 18 /12 /1937، وكسابقاتها كان تدخل الحكومة سافراً وواضحاً، وعقد المجلس دورته الإنتخابية الثامنة في 23 /12 /1937.

ويمكن ملاحظة: أن العراق شهد في عهد الملك غازي الأول 1933 – 1939 إجراء أربع عمليات انتخابية، ولم يتم أي مجلس دورته الانتخابية. وإن حل المجلس وإجراء انتخابات جديدة أصبحت سنّة تسير عليها كل وزارة عند تشكيلها. وإن كل وزارة تريد ان يكون لها مجلسها، وتمت زيادة أعضاء مجلس النواب إلى 108 أعضاء بدلاً من 88 عضواً.

المطلب الثالث

عهد الوصي عبد الإله بن الملك علي: 4/ 4/ 1939 - 2/ 5/ 1953

عند وفاة الملك غازي الأول فإن وريثه الملك فيصل الثاني لم يبلغ سن الرشد؛ لذا أصبح وصياً على الملك خاله عبد الإله بن الملك علي. عقد مجلس النواب دورته الانتخابية التاسعة في 12 /6 /1939، أكمل المجلس ولأول مرة دورته الانتخابية التاسعة واستناداً إلى المادة "38" من القانون الأساسي (16)، تم حل المجلس في 9 /6 /1943، وتم اجراء انتخابات جديدة في 5 /10 /1943، وانعقد المجلس في 11 /10 /1943 في دورته الانتخابية العاشرة، وتم حله في 21 /11 /1946.

وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، صدر قانون انتخاب النواب رقم 11 لسنة 1946، وكالقانون الذي سبقه لم يقر للمرأة بحقها في الانتخاب، وحدد بصراحة اقتصار حق التصويت على الرجل الذي أكمل العشرين من عمره، وكان اسمه مدوناً.

في سجل الناخبين؛ حيث نصت المادة الثانية من القانون على أنه: (يعتبر ناخباً كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره، ودون اسمه في سجل الانتخابات...) (17)، وأكد استثناء المرأة من مباشرة حقوقها السياسية ما نصت عليه المادة الخامسة/ الفقرة الأولى من أن: (تتشكل المناطق الانتخابية في الأقضية على أساس عدد الذكور المسجلين في دفاتر النفوس...) (18)، وما نصت عليه المادة السادسة/ الفقرة الأولى من القانون: (على وزير الداخلية أن يجلب جداول مصدقة من مديرية النفوس العامة تحتوي على عدد الذكور المسجلين في كل قضاء وناحية ومحلة ويقدمها إلى رئيس مجلس النواب خلال شهر واحد بعد تاريخ تنفيذ هذا القانون...) (19).

وبموجب القانون الجديد تم تقسيم اللواء "المحافظة" إلى عدة دوائر انتخابية، وزيادة عدد الأعضاء إلى "138" عضواً، وتضمن اسساً جديدة في الترشيح والتزكية ووضع التأمينات (20)، وحددت المادة الثانية الشروط الواجب توافرها في الناخب بأن: (يعتبر ناخباً كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره ودون اسمه في سجل الانتخابات كما جاء في الفصل الثاني، إلا من كان:

اولاً: محكوماً عليه بالإفلاس ولم يعد اعتباره قانوناً.
ثانياً: محجوراً عليه من محكمة ولم يفك حجره.
ثالثاً: محكوماً عليه بالسجن لمدة لا تقل عن سنة لجريمة غير سياسية أو محكوماً عليه بالسجن لسرقة أو رشوة أو غير ذلك من الجرائم المخلة بالشرف بصورة مطلقة ما لم تعد إليه حقوقه الممنوعة.
رابعاً: مجنوناً أو معتوهاً) (21).
انعقد مجلس النواب الجديد في 17 /3 /1937 في دورته الانتخابية الحادية عشرة، وتم حله في 22 /2 /1948، وانتخب مجلس نواب جديد اجتمع في 21 /6 /1948 في دورته الانتخابية الثانية عشرة، وأكمل المجلس مدته القانونية فوجب حله، وتم ذلك في 27 /10 /1952.
صدر المرسوم رقم 6 في كانون الأول 1952، اعتمد فيه الانتخاب المباشر بدلاً من الانتخاب بدرجتين كما في القانون السابق. ولقد جعل حق الانتخاب والترشيح حكراً على الذكور كالقانون السابق؛ حيث تم تعريف الناخب بالمادة الثانية من المرسوم التي نصت على أن: (الناخب كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره، وسجل اسمه في قوائم الناخبين، إلا من كان:
1. محكوماً عليه بالإفلاس ولم يعد اعتباره.
2. محجوراً عليه ولم يفك حجره.
3. محكوماً عليه بالحبس مدة لا تقل عن سنة لجريمة غير سياسية أو كان محكوماً عليه بالحبس لسرقة أو رشوة أو ما يماثلها من الجرائم المخلة بالشرف، ما لم تعد إليه حقوقه الممنوعة مجنوناً أو معتوهاً) (22).
4. وتم إجراء الانتخاب وفق القانون الجديد في 17 /1 /1953، فانعقد مجلس النواب في دورته الثالثة عشرة في 24 /1 /1953.
شهد عهد الوصي عبد الإله خمس عمليات انتخابية، وأكمل المجلس النيابي دورته الإنتخابية لمرتين، في الدورة التاسعة (1939 – 1943)، والثانية عشرة (1948 – 1952)، كما تم زيادة أعضاء مجلس النواب إلى 138 عضواً بدلاً من 108 أعضاء.

المطلب الرابع

عهد الملك فيصل الثاني: 2/ 5/ 1953 – 14/7/ 1958

تولى الملك فيصل الثاني سلطاته الدستورية في 2 /5 /1953؛ لبلوغه سن الرشد القانونية (23)، وتقتضي الأصول الدستورية أن تقدم الوزارة استقالتها، وهذا ما حصل؛ حيث قدمت الوزارة استقالتها، وتم تكليف رئيس الوزارة السابق بتشكيل الحكومة للعهد الملكي الجديد وتم حل مجلس النواب في 29 /4 /1954، وتم إجراء الإنتخابات في 9 /6 /1954، وعقد المجلس دورته الانتخابية الرابعة عشرة في 26 /7 /1954، ونظراً لفوز عشرة نواب من المعارضة، فتم حل مجلس النواب في 3 /8 /1954، وتم إجراء الانتخابات في 12 /9 /1954، وعقد المجلس دورته الخامسة عشرة في 1 /12 /1954 (24).
في 3 /6 /1956 صدر قانون انتخاب النواب رقم 53 لسنة 1956، ولقد أعاد القانون في مادته الثانية في ما يخص الشروط الواجب توافرها في الناخب نفس الشروط الواردة في قانون رقم 11 لسنة 1946 أو مرسوم رقم 6 لسنة 1952، أي: أنه اقتصر

أيضاً حق الانتخاب على الذكور دون الإناث، أي: أن القانون لا يزال مستمراً في حرمانه المرأة من حق التصويت.

بعد إعلان الاتحاد العربي بين العراق والأردن في 14 /2 /1958، أصبح لزاماً إجراء تعديل (25) على القانون الأساسي للدولة العراقية، وصدر التعديل الثالث في 11 /5 /1958 (26)، واستناداً لنص المادة "119" من القانون الأساسي العراقي (27)، فوجب حل مجلس النواب، وقد تم ذلك في 28 /3 /1958 ، وتم إجراء انتخابات جديدة في 5 /5 /1958، وتمت زيادة عدد النواب إلى "148" نائبا (28)، وعقد المجلس دورته الانتخابية السادسة عشرة في 10 /5 /1958، وكانت الدورة الانتخابية الأخيرة للمجلس؛ حيث قامت بعدها بحوالي شهرين ثورة 14 تموز 1958، وتم إعلان النظام الجمهوري وسقوط النظام الملكي.

إن التعديل الثالث للقانون الأساسي في 11 /5 /1958 قد أضاف مادة مؤقتة بفقرتين إليه؛ حيث جاء في الفقرة الثانية، منها: (يجوز تعديل القانون الأساسي خلال سنة من تاريخ تنفيذ هذا القانون، بما في ذلك منح المرأة المتعلمة الحقوق السياسية) (29)، ولكن هذه المادة الدستورية قد سقطت بعد حوالي شهرين بإقامة النظام الجمهوري الذي ألغى العمل بالدستور السابق، والقانون نفسه لم يحدد المستوى التعليمي المقصود بالمرأة المتعلمة، كما أنه لم يفرض هذا الشرط على الرجل.

شهد عهد الملك فيصل الثاني ثلاث عمليات انتخابية، ولم يتم أي مجلس دورته الإنتخابية، وتمت زيادة أعضاء مجلس النواب إلى 148 عضواً بدلاً من 138 عضوا.

وصدرت في العهد الملكي أربعة قوانين للانتخاب وهي قانون انتخاب مجلس النواب الصادر عام 1924، والذي استمر نافذاً إلى سنة 1946؛ حيث حل محله قانون انتخاب النواب رقم 11 لسنة 1946، ثم أعقبه مرسوم انتخاب النواب رقم 6 لسنة 1952، ثم قانون انتخاب مجلس النواب رقم 53 لسنة 1956، وظل نافذاً لحين سقوط النظام الملكي عام 1958 (30).

المبحث الثاني

العهد الجمهوري: 14 /7 /1958 - 9 /4 /2003

سيتم تناول المراحل التاريخية للعهد الجمهوري في ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

الجمهورية الأولى 14/7/ 1958 - 8 /2 /1963

استفاق العراقيون صبيحة الرابع عشر من تموز 1958 على نداء (هنا إذاعة الجمهورية العراقية) (بيان الثورة الأول)؛ حيث قام الضباط الأحرار بقيادة الزعيم عبد الكريم قاسم بانقلاب عسكري في 14 /7 /1958، سرعان ما تحول إلى ثورة شعبية من خلال خروج المظاهرات الجماهيرية التي ملأت شوارع بغداد وباقي المدن العراقية مساندة وتأييداً له؛ (فلقد أدت الانطلاقة العارمة لجماهير الشعب فور إعلان البيان الأول للثورة في فجر الرابع عشر من تموز من قبل الضباط الأحرار الذين سيطروا على أوكار الخيانة، وأعلنوا عن القضاء على النظام الملكي وقيام الجمهورية العراقية، وذلك التدفق الهائل للطاقات الجماهيرية إلى تحقيق الإنتصار الخاطف على النظام الملكي) (31)، وبنجاح الثورة بدأ العهد الجمهوري، الذي

قام بإلغاء القانون الأساسي لسنة 1925، ومجلسي النواب والأعيان.
في 27 /7 /1958 صدر الدستور المؤقت في العهد الجمهوري، الذي أعلن في مقدمته سقوط نظام الحكم الملكي وقيام الجمهورية العراقية، ونصت المادة الأولى على أن (الدولة العراقية جمهورية مستقلة ذات سيادة كاملة) (32)، كما جاء في المقدمة (فإننا باسم الشعب نعلن عن سقوط القانون الأساسي العراقي وتعديلاته كافة منذ 14 تموز سنة 1958) (33).
وبخصوص الحقوق والواجبات العامة نصت المادة التاسعة منه على أن: (المواطنون سواسية أمام القانون في الحقوق والواجبات العامة، ولا يجوز التمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة) (34)، ولأول مرة يتم إلغاء التمييز بسبب الجنس، وهذا يعني: إلغاء التمييز بين الرجل والمرأة، وأن المشرع قد ساوى بينهما في ممارسة الحقوق السياسية التي حرمت منها المرأة في ظل النظام الملكي، ومنها حق الانتخاب وتولي المناصب السياسية، ولأول مرة في العهد الجمهوري للعراق تصبح المرأة العراقية دستورياً ذات مكانة اجتماعية وتمنح حقوقاً لمشاركتها في الحياة العامة لتحمل أعباء المسئولية الاجتماعية والسياسية من خلال الواجبات التي تؤديها، كما أن لها حقوقاً مساوية مع الرجل، اعترافاً من الدستور بوجودها الإنساني ومكانتها الاجتماعية، ولقد ضمنت المادة التاسعة من الدستور العراقي المؤقت للمرة الأولى في تاريخ العراق الحديث حق المرأة في المشاركة السياسية ناخبة ومرشحة (35)، ولكن على الصعيد العملي فطيلة فترة حكم عبد الكريم قاسم 1958 – 1963 لم يشهد العراق أي انتخابات، ولم يكن أي برلمان منتخب. ومن الجدير بالذكر أن الدستور المؤقت لم يتم إقراره من قبل مجلس منتخب أو استفتاء شعبي، بل صادق عليه مجلس الوزراء نفسه.

المطلب الثاني

الجمهورية الثانية 8 /2 /1963 - 17 /7 /1968

سيتم تناول هذه المرحلة التاريخية في ثلاثة فروع:

الفرع الأول

العهد البعثي الأول: 8 /2 /1963 - 18 /10 /1963

في الثامن من شباط 1963 قام حزب البعث العربي الاشتراكي بالتعاون مع أطراف التيار القومي بانقلاب عسكري، وأصدر النظام الجديد دستوراً مؤقتاً في 4 نيسان 1963 تحت اسم (قانون المجلس الوطني رقم 25 لسنة 1963)، والذي أناط السلطة التشريعية بالمجلس الوطني لقيادة الثورة بموجب المادة الثانية ـ الفقرة الأولى التي نصت على أن (يتولى المجلس الوطني لقيادة الثورة: 1 ـ السلطة التشريعية، فله حق وضع القوانين والأنظمة وتعديلها وإلغائها) (36) وتسمية قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة بدستور 4 نيسان هي تسمية مجازية، ولم يكن دستوراً بالمعنى المألوف (37)، فهو تناول أسلوب ممارسة السلطة السياسية فقط، وهذا يعني: أن دستور 27 /7 /1958 المؤقت لم يسقط، وإنما تم إلغاء المواد المتعلقة بتنظيم ممارسة السلطة (38). ولم ترد في هذا الدستور المؤقت أية إشارة إلى الحقوق السياسية للمرأة، أي: أن المرأة متساوية مع الرجل في ممارسة الحقوق السياسية،

وكالفترة السابقة لم تشهد أي انتخابات ولم يكن أي برلمان منتخب، وصدر قانون المجلس الوطني موقعا من قبل المجلس الوطني لقيادة الثورة نفسه.

الفرع الثاني

العهد العارفي الأول: 18 /10 /1963 - 13 /4 /1966

في 18 /11 /1963 قام رئيس الجمهورية عبد السلام عارف بانقلاب عسكري على حلفائه في السلطة من البعثيين مستغلاً الخلافات التي حصلت بين قياداتهم، وتم إصدار البيان الأول للانقلاب موقعاً من قبل رئيس الجمهورية، والذي نصب نفسه رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة. ويعد البيان وثيقة دستورية لتناوله الوضع الجديد لتركيب السلطة السياسية وأسلوب ممارستها، وبقي لفترة حوالي ستة أشهر الوثيقة الوحيدة لممارسة السلطة (39)، وفي 22 /4 /1964 صدر قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 61 لسنة 1964، والذي ألغى قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 25 لسنة 1963 بموجب المادة "14" (40)، وأريد به تنظيم ممارسة المجلس الوطني لقيادة الثورة للسلطة (41).

وصدر دستور 29 نيسان 1964 المؤقت "الثالث" موقعاً من قبل رئيس الجمهورية والوزراء، ولقد استمدت لجنة الدستور الكثير من نصوص دستور 25 مارس 1964 في الجمهورية العربية المتحدة. والمواد التي تتعلق بالحقوق والحريات تتطابق مع نصوص دستور الجمهورية العربية المتحدة (42). ولقد نصت المادة "19" منه على أن: (العراقيون متساوون في الحقوق والواجبات العامة بلا تمييز بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو أي سبب آخر...) (43)، أي أن: المادة الدستورية لم تفرق بين المرأة والرجل، كما أن المادة "39" من الدستور اكدت على أن: (الانتخاب حق للعراقيين على الوجه المبين في القانون ومساهمتهم في الحياة العامة واجب وطني عليهم) (44)، وكالمرحلة التاريخية السابقة لم تشهد أي انتخابات، ولم يكن أي برلمان منتخب، وقانون انتخاب اعضاء مجلس الأمة لم يصدر إلا في عام 1967.

الفرع الثالث

العهد العارفي الثاني: 17 /4 /1966 - 17 /7 /1968

بعد وفاة رئيس الجمهورية عبد السلام عارف في حادث طائرة غامض، واستناداً إلى المادة "55" من قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 61 لسنة 1964، والتي تنص على أنه: (عند خلو منصب رئيس الجمهورية لأي سبب كان تعقد جلسة مشتركة من مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الوطني برئاسة رئيس الوزراء لانتخاب رئيس الجمهورية بأغلبية من ثلثي المجموع الكلي للأعضاء خلال مدة لا تتجاوز أسبوعاً واحداً من تاريخ خلو المنصب، وذلك ممن تتوافر فيهم الشروط المذكورة في المادة "41" من هذا الدستور) (45)، اجتمع مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الوطني وتم انتخاب عبد الرحمن عارف رئيساً للجمهورية (46)، وفي 8 /2 /1967 صدر قانون انتخاب أعضاء مجلس الأمة رقم 7 لسنة 1967؛ حيث نصت المادة الأولى منه على أن: (لكل ذكر وأنثى حق انتخاب عضو مجلس الأمة متى توافرت فيه الشروط الآتية:

أولاً: أن يكون عراقياً.
ثانياً: أن لا يقل عمره عن ثماني عشرة سنة ميلادية.
ثالثاً: أن يكون متمتعاً بكامل حقوقه المدنية.
رابعاً: أن لا يكون محكوماً عليه بالحبس مدة سنة فأكثر لجريمة غير سياسية أو بالحبس مطلقاً لجريمة مخلة بالشرف ما لم يكن قد رد إليه إعتباره) (47).
أي: أن قانون الانتخاب منح المرأة حقها السياسي في التصويت، ولكن المادة الثانية من القانون جعلت التصويت اختيارياً للإناث المسجلة اسماؤهن، بينما جعلته إجباريا للذكور؛ حيث نصت المادة على أنه: (يجب على كل من سجل اسمه من الذكور في جدول الانتخاب أن يشترك في الانتخاب، ولا يجوز ذلك لغير من سجل اسمه فيه، ويكون الاشتراك في الانتخاب اختيارياً للمسجلة أسماؤهن فيه من الإناث) (48). وواضح تأثير قانون مباشرة الحقوق السياسية رقم 73 لسنة 1956 المصري على القانون، من خلال المادة "17" بفقرتيها الثانية والثالثة والتي نصت على: (2ـ يمثل العمال والفلاحون نسبة لا تقل عن 25% من عدد النواب المنتخبين)، و(3ـ لرئيس الجمهورية أن يعين عدداً من الأعضاء لا يزيد على خمسة عشر عضواً ممن تقضي مصلحة الوطن تعيينهم، ويتم هذا التعيين بمرسوم جمهوري) (49).

المطلب الثالث
الجمهورية الثالثة 17 /7 /1968 - 9 /4 /2003

قام حزب البعث بالتعاون مع بعض العسكريين (آمر الحرس الجمهوري ومعاون مدير الاستخبارات العسكرية وغيرهم) بانقلاب عسكري في 17 /7 /1968، وفي البيان الثاني لمجلس قيادة الثورة تم إناطة السلطة التشريعية به، وفي 21 /9 /1968 صدر دستور النظام الجديد المؤقت، وتم إلغاء دستور 29 نيسان 1964، بموجب المادة "93" من الدستور المؤقت الجديد (50). وبموجب هذا الدستور تمت إناطة السلطة التشريعية بمجلس قيادة الثورة، كما نصت المادة "58" (51). على أن معظم نصوص الدستور مستمدة من دستور 25 مارس 1964 للجمهورية العربية المتحدة (52).
ويمكن القول إنه نسخة مكررة للدساتير العراقية السابقة في الكثير من أبوابه ومواده، وساوى الدستور الجديد بين المرأة والرجل في الحقوق والواجبات؛ حيث نصت المادة 21 على أن: (العراقيين متساوون في الحقوق والواجبات أمام القانون لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين...) (53)، ونصت المادة 40 على أن: (الانتخاب حق للعراقيين ينظمه القانون ومساهمتهم في الحياة العامة واجب وطني) (54).
وفي 16 /7 /1970 صدر دستور مؤقت، ونصت المادة 19 الفقرة أ على أن (المواطنين سواسية أمام القانون. دون تفريق بسبب الجنس أو العرق أو اللغة أو المنشأ الإجتماعي أو الدين) (55)، وكما في الدساتير المؤقتة التي سبقته في العهد الجمهوري، لم يميز بين الرجل والمرأة وساوى بينهما في الحقوق والواجبات، إلا أنه لم يشر إلى أي آليات يمكن أن تضمن أو تساعد على ضمان مشاركة المرأة سياسياً.
وبتاريخ 15 /3 /1980 صدر قانون المجلس الوطني رقم 55 لسنة 1980، وبصدوره ألغي قانون المجلس الوطني رقم

228 لسنة 1970 بموجب المادة "63" (56) من القانون الجديد، ونصت المادة الأولى على أن: (يتكون المجلس الوطني من 250 عضواً) (57)، ونصت المادة الثانية على أن: (يجري اختيار الأعضاء عن طريق الانتخاب الحر المباشر وبالاقتراع العام السري) (58)، ولقد ساوى القانون بين المرأة والرجل بممارسة حق التصويت والترشيح بشكل واضح وصريح؛ حيث نصت المادة 12 على أن: (لكل عراقي أو عراقية أن يكون ناخباً أو مرشحاً إذا توافرت فيه الشروط المنصوص عليها في هذا القانون) (59) ، والمادة "13" حددت الشروط الواجب توافرها في الناخب ذكراً أو أنثى: (يشترط في الناخب أن يكون عراقياً بلغ الثامنة عشرة من العمر) (60).

جرت أول انتخابات في العهد الجمهوري في 20 / 6 / 1980، بلغ عدد عضوات المجلس الوطني في دورته الأولى 16 عضوة من مجموع 250، أي: بنسبة 6.4%.

وفي انتخابات الدورة الثانية للمجلس الوطني التي جرت في تشرين الأول 1984 ارتفع عدد النساء إلى 33 عضوة من مجموع 250 عضواً، أي: بنسبة 13.2% ، وهي أعلى نسبة مشاركة في الوطن العربي (61). وفي الدورة الانتخابية الثالثة التي جرت في نيسان 1988، أصبح عدد العضوات 27 عضوة من 250، أي: بنسبة 10.8%.

وفي عام 1990 طرح مشروع لدستور جمهورية العراق، لكن لم يتم العمل به، وفي 27 / 12 / 1995 صدر قانون المجلس الوطني رقم 26 لسنة 1995، والذي بصدوره ألغى قانون المجلس الوطني رقم 55 لسنة 1980 بموجب مادته "90/ أولاً" (62).

ونصت المادة الأولى على أن: (يتكون المجلس الوطني من "250" مائتين وخمسين عضواً - ويتمتع بالشخصية المعنوية) (63)، ونصت المادة الثانية على أن: (يجري اختيار الأعضاء عن طريق الانتخاب الحر المباشر وبالاقتراع العام السري العام) (64)، ولقد ساوى القانون بين المرأة والرجل بممارسة حق التصويت والترشيح بشكل واضح وصريح حيث نصت المادة "13" على أن: (لكل عراقي أو عراقية أن يكون ناخباً أو مرشحاً إذا توافرت فيه الشروط المنصوص عليها في هذا القانون) (65)، والمادة "14" حددت الشروط الواجب توافرها في الناخب ذكراً أو أنثى (يشترط في الناخب أن يكون عراقياً بلغ الثامنة عشرة من العمر) (66).

وفي انتخابات عام 1996 دخل المجلس الوطني "19" امرأة من مجموع "250" عضواً، أي: بنسبة 7.6% .

أما في الدورة الخامسة للمجلس عام 2000 فقد بلغ عدد النساء 20 عضواً بنسبة 8%.

استنتاج

رغم كون المجلس الوطني مجلس منتخب، إلا أنه لم يكن برلماناً حقيقياً في جميع دوراته للأسباب الآتية:

1. أن الانتخابات لم تكن انتخابات حرة نزيهة.
2. لا يملك المجلس الوطني صلاحيات تشريعية حقيقية، بل كان يشاركه فيها مجلس قيادة الثورة، ودوره في التشريع صورياً من أجل إسباغ المشروعية على تصرفات مجلس قيادة الثورة وقراراته.
3. لم يكن له أي دور رقابي على الحكومة، وبذلك فقد إحدى مهامه؛ لأن دور البرلمان

الهوامش:

(1) د. مصطفى السباعي، المرأة بين الفقه والقانون، المكتبة العربية بحلب، ط2، ص155.

(2) د. إبراهيم عبد العزيز شيحا، مبادئ الأنظمة السياسية، دار المعارف، الإسكندرية، 2003، ص155.

(3) د. عبدالغني بسيوني، النظم السياسية، الدار الجامعية، لبنان، بيروت، 1992، ص210.

(4) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية ،ج1، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط7، 1988، ص 18.

(5) النظام المؤقت لانتخاب المجلس التأسيسي العراقي، المادة 6؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2004 ، ص 254.

(6) النظام المؤقت لانتخاب المجلس التأسيسي العراقي، المادة 18؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 256.

(7) النظام المؤقت لانتخاب المجلس التأسيسي العراقي، المادة 20؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 257.

(8) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، مصدر سابق، ص 214.

(9) نفس المصدر السابق، ص 236.

(10) مروج هادي الجزائري، الحقوق المدنية والسياسية وموقف الدساتير العراقية منها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية القانون، 2004، ص 63.

(11) القانون الأساسي العراقي لسنة 1925، المادة 6؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 278.

(12) القانون الأساسي العراقي لسنة 1925، المادة 18؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص279.

(13) القانون الأساسي العراقي لسنة 1925، المادة 36، المصدر السابق، ص 285.

(14) علاء حسين الرهيمي، المعارضة البرلمانية في العراق في عهد الملك فيصل الأول، بيت الحكمة، بغداد، ط1، 2008، ص282.

(15) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج4، مصدر سابق، ص132.

(16) القانون الأساسي المادة 38 الفقرة 1: دورة مجلس النواب أربعة اجتماعات لكل سنة اجتماع يبدأ في أول يوم من شهر كانون الأول وإذا صادف ذلك اليوم عطلة رسمية فمن اليوم الذي يليها مع مراعاة ما جاء في الفقرة الثانية من المادة 26. (17) قانون انتخاب مجلس النواب رقم 11 لسنة 1946، المادة 2؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 321.

(18) قانون انتخاب مجلس النواب رقم 11 لسنة 1946، المادة 5/1؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 322.

(19) قانون انتخاب مجلس النواب رقم 11 لسنة 1946، المادة 6/1؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 323.

(20) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، مصدر سابق، ص 49.

(21) قانون انتخاب مجلس النواب رقم 11 لسنة 1946، المادة 2؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص321.

(22) مرسوم انتخاب النواب رقم 6 لسنة 1952، د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 337.

(23) القانون الأساسي المادة 22: سن الرشد للملك تمام الثمانية عشر عاماً ...).

(24) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج9، مصدر سابق، ص156، 158.

(25) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج10، مصدر سابق، ص217، وضع القانون الأساسي العراقي في 123 مادة عام 1922. وصادق عليه المجلس التأسيسي في آب 1924، ونشر في 21 /3 /1925، وقد أدخل عليه تعديلان: الأول في 29 /7 /1925 حين تناول بعض الأمور الطفيفة، والآخر في 27 /10 /1943 وقد تناول أموراً أساسية هامة.

(26) نفس المصدر السابق، ص 216، 217.
(27) القانون الأساسي العراقي المادة "119": كل تعديل في القانون يجب أن يوافق عليه كل من مجلسي النواب والأعيان بأكثرية مؤلفة من ثلثي أعضاء كل من المجلسين المذكورين، وبعد الموافقة عليه، يحل مجلس النواب وينتخب المجلس الجديد.
(28) عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية، ج10، مصدر سابق، ص218.
(29) د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 305.
(30) فائز عزيز أسعد، انحراف النظام البرلماني في العراق، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1975، ص 180.
(31) د. سعاد خيري، ثورة 14 تموز بعد اربعة عقود، أول تريك السويد، ستوكهولم، 1998، ص 86.
(32) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958، المادة 1، د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 375.
(33) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958، المقدمة.
(34) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958، المادة 9، د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 376.
(35) د. نهلة النداوي، الأداء البرلماني للمرأة العراقية، مطبعة الطباع بغداد، ط1، 2010 ص 10.
(36) قانون المجلس الوطني لسنة 1963، المادة الثانية/ 1، د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص379.
(37) د. رعد الجدة وآخرون، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، بغداد، ط2، 2007، ص 361.
(38) د. منذر الشاوي، القانون الدستوري والمؤسسات الدستورية العراقية، بغداد، 1966، ص 11.
(39) د. رعد الجدة وآخرون، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مصدر سابق، ص 369، 370.
(40) د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 388؛ قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 61 لسنة 1964 المادة 14: (يلغى قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم "25" لسنة 1963).
(41) د. رعد الجدة وآخرون، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مصدر سابق، ص 371.
(42) نفس المصدر السابق، ص 383.
(43) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958، المادة 19؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 391.
(44) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958، المادة 39؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص392.
(45) قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 61 لسنة 1964، المادة 55؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 394.
(46) حنا بطاطو، العراق، الكتاب الثالث، منشورات فرصاد، إيران، قم، ط1، 2006، ص 377: يضم مجلس الدفاع الوطني 12 من قادة الجيش العراقي و16 وزيراً برئاسة عبد الرحمن البزاز الذي تنازل في الجولة الثانية من الانتخابات لصالح عارف؛ ففي الجولة الأولى من الإقتراع حصل عارف على 13 صوتا والبزاز على 14 صوتا، وصوت واحد لعبد العزيز العقيلي من مجموع 28 صوتا، ونظرا لأن ايا من المرشحين لم ينل أكثرية الثلثين المطلوبة، ولأن الضباط يرغبون في تعيين عارف فتمسكوا بخيارهم الأول ما أضطر البزاز لسحب ترشيحه لصالح عارف.
(47) قانون انتخاب أعضاء مجلس الأمة رقم 7 لسنة 1967، المادة الأولى؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 401.
(48) القانون السابق، المادة الثانية؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 401.
(49) القانون السابق، المادة 17 الفقرة الثانية والثالثة، نفس المصدر السابق، ص 405.
(50) دستور 21 /9 /1968 المؤقت المادة 93: يلغى الدستور المؤقت الصادر في 10 /5 /1964 وتعديلاته.

(51) دستور 21 /9 /1968 المؤقت المادة 58: يمارس مجلس قيادة الثورة السلطة التشريعية إلى حين انعقاد الجلسة الأولى للمجلس الوطني.

(52) د. رعد الجدة وآخرون، النظرية العامة في القانون الدستوري والنظام الدستوري في العراق، مصدر سابق، ص 395.

(53) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1968، المادة 21؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 424.

(54) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1968، المادة 40؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 425.

(55) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1968، المادة 19/أ؛ د. رعد الجدة، نفس المصدر السابق، ص 437.

(56) قانون المجلس الوطني رقم 55 لسنة 1980، المادة 63: يلغى قانون المجلس الوطني رقم (228) لسنة 1970؛ د.رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 511.

(57) القانون السابق، المادة الأولى، نفس المصدر السابق، ص 491.

(58) القانون السابق، المادة الثانية، نفس المصدر السابق، ص 491.

(59) القانون السابق، المادة 12، نفس المصدر السابق، ص 495.

(60) القانون السابق، المادة 13، نفس المصدر السابق، ص 495.

(61) منال يونس عبدالرزاق الآلوسي، المرأة والتطور السياسي في الوطن العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989 ، ص 196.

(62) قانون المجلس الوطني رقم 26 لسنة 1995، المادة 90/أولاً: يلغى قانون المجلس الوطني ذو الرقم 55 لسنة 1980 وتستمر هيئة رئاسة المجلس المشكلة بموجبه في مزاولة أعمالها إلى حين انتخاب مجلس وطني جديد.

(63) القانون السابق، المادة الأولى؛ د. رعد الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 513.

(64) القانون السابق، المادة الثانية، نفس المصدر السابق، ص 513.

(65) القانون السابق، المادة 13، نفس المصدر السابق، ص 516.

(66) القانون السابق، المادة 14، نفس المصدر السابق، ص 516.

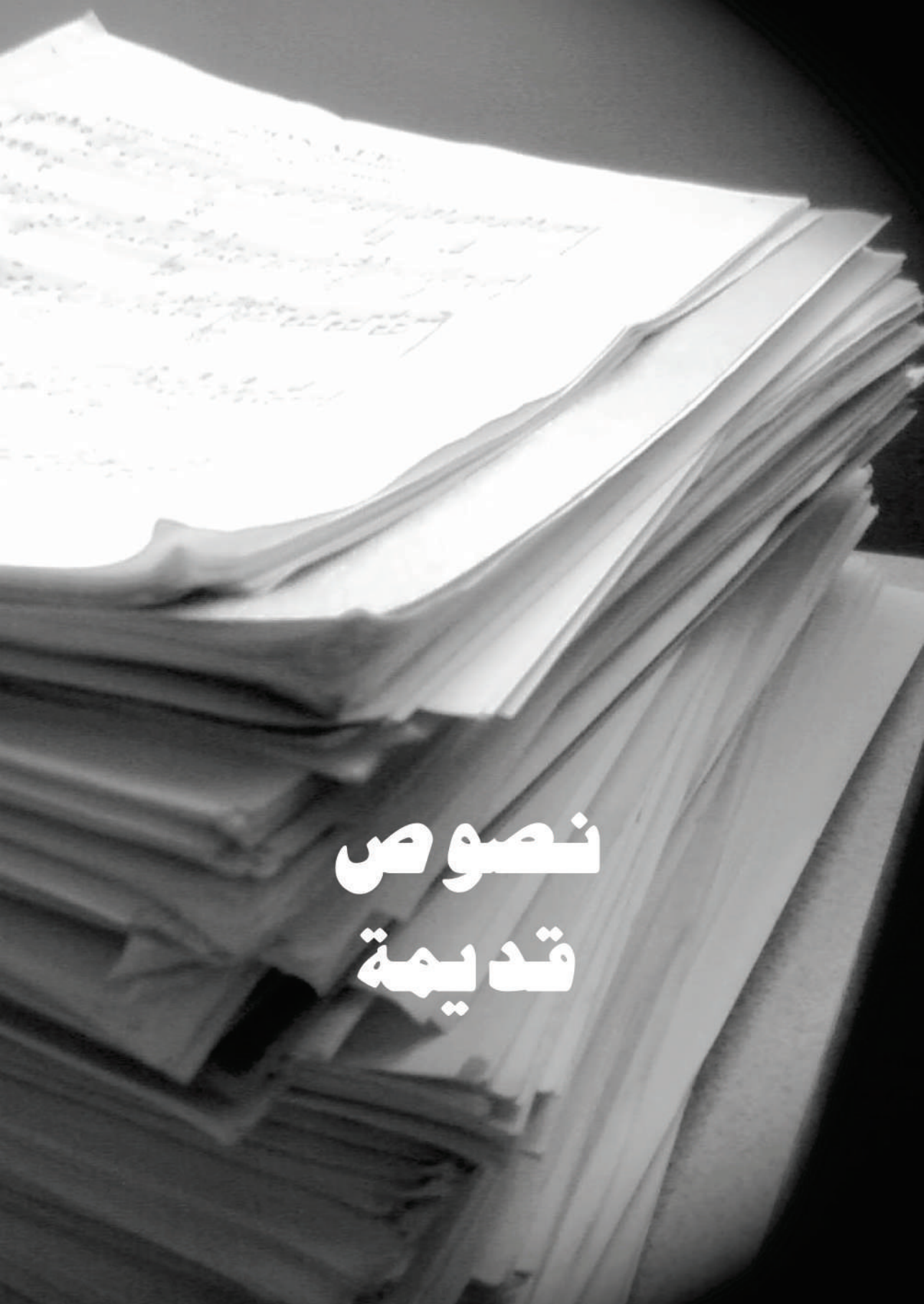
نصوص
قديمة

لنعد الى ماركس *

إلين مايكنس وود (1)
ترجمة: عماد عباس

سأبدأ مقالتي بزعم مثير يناقض كل الحكمة الدارجة، وهو الزعم بأن اللحظة التاريخية التي نمر بها الآن، هي اللحظة الافضل وليست الأسوأ، الأكثر وليست الأقل ملاءمة، للعودة الى ماركس من جديد. وسأدّعي أيضاً بأن هذه اللحظة بالذات هي التي ينبغي ويمكن لماركس أن يأخذ مكانته كاملة للمرة الأولى – دون أن نستثني من ذلك المرحلة التي عاش فيها بالفعل.

انني أزعم ذلك لسبب بسيط، هو اننا نعيش في اللحظة التي صارت فيها الرأسمالية لأول مرة نظاماً عالمياً حقاً. فهي عالمية، ليس بمعنى انها شملت العالم كله فحسب، وليس بمعنى ان كل ناشط اقتصادي في عالم اليوم تقريباً يعمل وفقاً لمنطق الرأسمالية فحسب – وبضمنهم حتى أولئك الذين يعيشون على هامش الاقتصاد الرأسمالي ويخضعون بطريقة أو باخرى لهذا المنطق –، بل ان الرأسمالية نظام عالمي أيضاً بمعنى ان منطقها – منطق التراكم، وتحويل كل شيء الى بضاعة، ومضاعفة الربح، والمنافسة – قد تغلغل في كل منحى تقريباً من مناحي حياة الانسان والطبيعة نفسها، وبأشكال لم تكن معهودة خلال العقدين أو الثلاثة عقود الاخيرة حتى في ما يسمى بالبلدان الرأسمالية المتقدمة. وهكذا فان ماركس أوثق صلة اليوم بالعالم مما كان في أي وقت، لأنه كرس حياته تكريساً لا يماثله فيه أي شخص آخر، الآن أو في الماضي، لشرح منطق عمل الرأسمالية كنظام.

ثمة في "البيان الشيوعي" صورة أخاذة ونبوئية، رسمها ماركس وانجلز للرأسمالية وهي تكتسح العالم، محطمة كل "الاسوار الصينية". إلا ان ماركس عندما كتب "رأس المال" شدد – بصواب – على خاصية الرأسمالية باعتبارها ظاهرة شديدة الخصوصية كانت آنذاك محلية أيضاً. وهو لم يقصد بالطبع عدم وجود آثار عالمية للرأسمالية، حينئذ عن طريق السوق العالمي والكولونيالية وغيرها، ولكن النظام نفسه كان بعيداً كل البعد عن أن يكون عالمياً. ستنتشر الرأسمالية حتماً، لكنها كانت يومذاك محلية جداً – اقتصر وجودها على أوربا وأمريكا الشمالية، ولم تكن موجودة بشكلها الصناعي الناضج إلا في بلد واحد بالذات هو بريطانيا. بل انه وجد نفسه مضطراً الى أن يبين للألمان او هم سيحذون يوماً حذو الانكليز، وحذرهم وكأنه يقول لهم بتعبير آخر: ربما تظنون انها قصة الانكليز وحدهم، لكنها قصتكم انتم

أيضاً، سواء عرفتم ذلك أم لا.
يستمد كتاب "رأس المال" سمته المميزة اذن من حقيقة بسيطة هي انه يتناول نظاماً رأسمالياً واحداً، كما لو كان نظاماً قائماً في حدوده، ويتناول أيضاً المنطق الداخلي لهذا النظام. وسأعود الى هذا بعد قليل، والى المفارقة التي تجعل تحليل ماركس ذا الطبيعة المحلية أكثر، وليس أقل، راهنية في وضعنا الحالي، رغم ان الرأسمالية غدت عالمية بالدرجة الحالية، بل وبسبب هذه العالمية تحديداً. إلا انني أريد الحديث أولاً عن تطور الماركسية بعد ماركس، وعن الاشكال الجديدة لليسار المعارض للماركسية التي جاءت لاحقاً.
النقطة الاساسية التي أود الاشارة اليها هي ان كل التطويرات الهامة تقريباً للماركسية في القرن العشرين كانت تتناول ما هو غير رأسمالي أكثر من تناولها للرأسمالية. ويسري هذا خصوصاً على النصف الأول من القرن العشرين، إلا ان الاتجاه المذكور قد ترك أثره على الماركسية منذ ذلك الحين. وأعني بذلك ان جميع النظريات الماركسية الهامة استندت، مثل ماركس، الى الافتراض ان الرأسمالية بعيدة عن أن تكون عالمية؛ ولكن بينما ابتدأ ماركس من انضج نموذج للرأسمالية وعمم من هذا النموذج منطق الرأسمالية كنظام، ابتدأ خلفاؤه الرئيسيون، ان صح القول، من النهاية الاخرى. لقد انصب اهتمامهم الاساسي – بفعل أسباب سياسية وتأريخية ملموسة جداً – وعلى الظروف التي لم تكن رأسمالية بمجملها. كما كان هناك اختلافات أكثر اساسية: فمهما كان اعتقاد ماركس بشأن الانتشار العالمي للرأسمالية، او الحدود الممكنة لهذا الانتشار، فان ذلك لم يكن شاغله الرئيس. لقد انصب اهتمامه بالاساس على المنطق الداخلي للنظام وقدرته المميزة على نشر نفسه، متغلغلاً في كل أوجه الحياة حيثما ثبت جذوره. وانطلق الماركسيون المتأخرون بشكل عام، الى جانب اهتمامهم برأسماليات أقل نضجاً، من الافتراض بأن الرأسمالية لا بد ان تنهار قبل نضوجها، أو بالتأكيد قبل ان تصبح عالمية وشاملة؛ وكان شاغلهم الرئيسي هو المسلك الذي ينبغي أن يسلكوه ضمن العالم غير الرأسمالي الأوسع.
تأملوا فقط المعالم الهامة للنظرية الماركسية في القرن العشرين. فقد وضعت أبرز نظريات الثورة، على سبيل المثال، في بلدان كانت الرأسمالية بالكاد موجودة فيها، أو انها لم تكن متطورة، وحيث لم تكن توجد بروليتاريا عالية التطور، وكان على الثورة أن تعتمد على تحالفات أقلية عمالية مع جماهير فلاحية خصوصاً، وهي جماهير ما قبل رأسمالية. أما النظريات الماركسية الكلاسيكية عن الامبريالية فهي تثير قدراً أكبر من الدهشة. ومن اللافت، في الواقع، ان تحل نظرية الامبريالية في اوائل القرن العشرين محل نظرية الرأسمالية أو أن تصبح هي نظرية الرأسمالية، أي بكلمات اخرى، أن يصبح موضوع النظرية الاقتصادية الماركسية ما يمكنك أن تدعوه بالعلاقات الخارجية للرأسمالية، أي تفاعلها مع ما هو غير رأسمالي، والتفاعل بين الدول الرأسمالية في علاقتها بالعالم غير

الرأسمالي.
ورغم عمق الاختلافات بين النظريين الماركسيين الكلاسيكيين حول الامبريالية، فقد جمع بينهم افتراض أساسي واحد، هو ان الامبريالية ستضع نهاية لتوطد الرأسمالية في عالم لم يكن – ولن يكون أبداً – رأسمالياً بالكامل، ولا حتى رأسمالياً بصفة غالبة. خذ على سبيل المثال فكرة لينين الأساسية بأن الامبريالية تمثل "أعلى مراحل الرأسمالية". كان هذا التعريف يقوم على الافتراض بأن الرأسمالية قد وصلت مرحلة لا بد فيها من أن يكون المحور الرئيسي للصراع الدولي والمواجهة العسكرية هو صراع في ما بين الدول الامبريالية. لكن ذلك الصراع كان حسب التعريف تزاحماً على اقتسام واعادة اقتسام العالم، وهو عالم غير رأسمالي في غالبيته. فكلما انتشرت الرأسمالية بوتيرة متباينة، كلما ازدادت حدّة التنافس بين القوى الامبريالية الكبرى، والتي سيكون عليها ان تواجه مقاومة متزايدة في الوقت نفسه. خلاصة القول – وهو السبب في كون الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية – ان الامبريالية كانت المرحلة الختامية، بما يعني ان الرأسمالية ستنتهي قبل أن يتسنى لها ان تبتلع بشكل كامل ونهائي ضحايا الامبريالية من أطراف العالم غير الرأسمالية.
لقد طرحت روزا لوكسمبورغ تلك الفكرة بشكل بالغ الصراحة. فجوهر عملها الكلاسيكي في الاقتصاد السياسي، "تراكم رأس المال"، يكمن في طرحه كبديل عن مقاربة ماركس الخاصة. وقصدت منه أن يكون بالتحديد بديلاً عن تحليل ماركس للرأسمالية باعتبارها نظاماً قائماً في حدوده. وحجتها هي ان النظام الرأسمالي يحتاج الى منفذ في تكوينات غير رأسمالية، وهو السبب الذي يجعل الرأسمالية تقود لا محالة الى العسكرة والامبريالية. فرأت ان العسكرية الرأسمالية، بعد اجتياز مراحل مختلفة كان أولها الغزو لأراضي الغير، قد بلغت مرحلتها "الختامية" حينئذ "كسلاح في الصراع التنافسي بين البلدان الرأسمالية على مناطق من العالم غير الرأسمالي". إلا ان أحد التناقضات الأساسية للرأسمالية، كما تقول روزا لوكسمبورغ، هو انها "رغم سعيها الى أن تصبح عالمية، وبسبب من هذا السعي في الحقيقة، لا بد أن تنهار. فهي تعاني من عجز متأصل عن أن تتحول الى شكل عالمي للإنتاج". إنها أول نمط للإنتاج يسعى الى اكتساح العالم كله، إلا انها في الوقت نفسه أول نمط لا يستطيع أن يحيا بمفرده، لأنه "يحتاج الى أنظمة اقتصادية اخرى كبيئة وتربة له" (2). وحسب هذه النظريات عن الامبريالية إذن، تفترض الرأسمالية، حسب تعريفها، وجود بيئة غير رأسمالية. ولا تعتمد الرأسمالية في بقائها، في الحقيقة، على وجود هذه التشكيلات غير الرأسمالية فحسب، بل أيضاً على أدوات ما قبل رأسمالية تماماً من قسر "فوق اقتصادي"، وإكراه عسكري وجيوبوليتيكي، وعلى أشكال اخرى من الحرب الاستعمارية والتوسع الاقليمي.
تسير الامور على هذا المنوال في جوانب اخرى من النظرية الماركسية

أيضاً. وربما كانت تصورات تروتسكي عن التطور المترابط غير المتساوي، وما تبعها من فكرة الثورة الدائمة، تعني ان الانتشار العالمي للنظام الرأسمالي سيتوقف برحيل الرأسمالية ذاتها. أما غرامشي فكان يدرك إدراكاً شديداً أنه يكتب في بيئة رأسمالية أقل تطوراً، تسودها ثقافة فلاحية ما قبل رأسمالية. وهذا بالتأكيد ما يفسر الى حد كبير الأهمية التي علقها على الايديولوجيا والثقافة، وعلى المثقفين، بسبب شعوره بالحاجة الى شيء يدفع بالصراع الطبقي خارج حدوده المادية، شيء يجعل الثورة الاشتراكية ممكنة حتى في غياب الشروط المادية الناضجة لرأسمالية كبيرة التطور وبروليتاريا متقدمة. وينطبق الشيء نفسه على ماوتسي تونغ، وإن بصورة مختلفة وهكذا دواليك.

ما أريد قوله إذن هو ان الاحوال غير الرأسمالية أو ما قبل الرأسمالية تتخلل جميع هذه النظريات عن الرأسمالية. وإذ حققت جميع هذه النظريات الماركسية استنارة عميقة بطرق مختلفة، فيبدو ان من الثابت وقوعها في الخطأ في ناحية واحدة، وهي ان الرأسمالية قد صارت عالمية بالفعل. فقد توسعت بتركيز وبشمول على السواء. انها عالمية في اتساعها، وهي تخترق القلب والروح من الحياة الاجتماعية ومن الطبيعة. وبالمناسبة، فإن هذا لا يعني بالضرورة اختفاء الدولة القومية، بل ربما يؤدي فقط الى ايجاد أدوار جديدة للدول القومية، ما دام منطق المنافسة يفرض نفسه ليس فقط على الشركات الرأسمالية وإنما على كامل الاقتصادات الوطنية، التي تلجأ، وبمساعدة دولها، الى الأساليب "الاقتصادية" الخالصة في المنافسة أكثر من لجوئها الى الأساليب القديمة "مافوق الاقتصادية" والعسكرية. وحتى الامبريالية لها الآن شكل جديد، يميل الناس الى ان يطلقوا عليه اسم "العولمة"، لكن هذه كلمة إصطلاحية ليس إلا، وهي كلمة مضللة من حيث انها تطلق على نظام يغدو فيه منطق الرأسمالية عالمياً الى هذا الحد أو ذاك، وحيث تحقق الامبريالية غاياتها ليس بالاعتماد كثيراً على أشكال التوسع العسكري بل بإطلاق عنان السوق الرأسمالية والتلاعب بدوافعها التدميرية. ومهما يكن، وبالرغم من ان هذا التعميم العالمي للرأسمالية يكشف بالتأكيد عن بعض التناقضات الأساسية في النظام الرأسمالي، فإن علينا التسليم بعدم وجود أية علامة على أننا سنشهد رحيله في المستقبل القريب.

هل من استجابة نظرية لهذا الواقع الجديد إذن؟ يمكننا القول، بداية، إن ثمة مفارقة حقيقية هنا، ذلك انه بقدر ما تزداد عالمية الرأسمالية بقدر ما كانت الناس تتخلى عن الماركسية الكلاسيكية واهتماماتها النظرية الرئيسية. وينطبق هذا بالتأكيد على نظريات ما بعد الماركسية وأتباعها، مع انكم قد تعترضون بأن ذلك يسري بالدرجة نفسها على الصيغ الأحدث للماركسية، مثل مدرسة فرانكفورت، أو على تقاليد الماركسية الغربية عموماً. فيبدو، على سبيل المثال، ان التحول المعروف عن الانشغال الماركسي التقليدي بالاقتصاد السياسي الى

الانشغال بالثقافة والفلسفة يعود في بعض هذه الحالات الى القناعة بأن تأثيرات تعميم الرأسمالية قد تغلغلت في جميع مناحي الحياة والثقافة، وان الطبقة العاملة بدورها تهيمن عليها الثقافة الرأسمالية تماما. (وبالمناسبة، فإنني أفكر أحياناً باحتمال وجود سبب آخر لهذا التحول فليست له صلة بعالمية الرأسمالية وإنما، على العكس بالطرق التي ما زالت فيها الاشكال ما قبل الرأسمالية تسود وعي مفكرين مثل أصحاب مدرسة فرانكفورت. إلا ان الوقت لا يتسع للتعمق في ذلك هنا، وأنا على كل حال لست قادرة على إعطاء الموضوع حقه) (3) .

هناك كما اعتقد طريقتان للاستجابة لعالمية الرأسمالية. مفاد الاولى ان الرأسمالية تغدو، رغم كل التوقعات، عالمية بدلاً من أن تنهار قبل ان تتمكن من تعميم نفسها، وان هذه هي النهاية حقاً، ولا يمكن أن يكون ذلك سوى النصر النهائي لهذا النظام. إن هذه الاستجابة الانهزامية، والتي تمثل الوجه الآخر لأيقونة الانتصار الرأسمالي، هي الاستجابة التي تسيطر اليوم على اليسار عموماً .

هذا ما وصلت إليه نظريات ما بعد الماركسية. وأعتقد ان من المفيد لكي نفهمها أن ننظر إليها على خلفية النظريات الماركسية التي أشرت إليها. وإذا القينا نظرة على تاريخ ما يدعى بما بعد الماركسية، فسنجد أنها انطلقت من الافتراض بأن الرأسمالية صارت عالمية فعلاً. وفي الواقع، كانت عالمية الرأسمالية بالنسبة لما بعد الماركسيين هي بالتحديد السبب وراء تخليهم عن الماركسية. ستعتقد أن هذا غريب نوعاً ما، إلا انهم يفكرون على النحو الآتي تقريباً: إن الرأسمالية المعولمة في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية قد هيمنت عليها الديمقراطية الليبرالية ونزعة استهلاكية ديمقراطية، وكلتاهما تفتحان ميادين جديدة تماماً للمعارضة والنضال الديمقراطيين، هي أكثر تنوعاً بكثير من الصراع الطبقي التقليدي والنتيجة الضمنية – مع انها تطرح بصراحة أكبر أحياناً – هي ان هذه النضالات لا يمكنها أن تكون ضد الرأسمالية في الواقع، لأن الأخيرة بلغت حداً من الشمول بحيث لا يوجد بديل واقعي لها، كما انها على أية حال قد تكون الأفضل من كل الأنظمة الاخرى المحتملة في العالم. وهكذا لا يمكن ان توجد في ظل هذا النظام العالمي للرأسمالية سوى أشكال من النضالات الخاصة المتفرقة التي لا تخرج عن نسيج الرأسمالية.

وتذهب خطوة أبعد نظريات ما بعد الماركسية، وربما ما بعد الحداثة. فلم تعد القضية الآن ان الرأسمالية عالمية وحسب، بل أن الرأسمالية عندهم هي على درجة من الشمول بحيث انها غير مرئية أساساً، مثل الهواء بالنسبة لنا بني البشر، أو مثل الماء بالنسبة للأسماك. فقد تسرح كما شئت في أنحاء هذا الوسط غير المنظور، بل وقد يمكنك أن تجد لنفسك فسحة أو صومعة صغيرة لممارسة العزلة والانفراد والحرية، لكنك لن تجد مهرباً من هذا الوسط الشامل، ولن تتمكن حتى من رؤية حدوده.

هل هذا اذن هو الاستنتاج الصحيح

الذي يمكن الخروج به من عالمية الرأسمالية؟ لا اعتقد انني سأفاجئ أحداً اذا ما عبرت عن قناعتي بأنه الاستنتاج الخاطئ بالضبط. وأحياناً أتصور بأن الميل الى الخروج بهذا الاستنتاج وثيق الصلة بالجذور التاريخية للجيل الذي ينتج هذه التلاوين من ما بعد الماركسية وما بعد الحداثة (ولأعترف بأنه جيلي أنا أيضاً). وتؤثر هنا كثيراً حسبما أرى حقيقة ان هؤلاء الناس ما زالوا مشدودين الى العصر الذهبي لفترة الرخاء الطويلة التي أعقبت الحرب العالمية. وإني لبعض الوقت كثيرة التأثر من الدرجة التي طبعت فيها مزاعم رخاء ما بعد الحرب بطابعها منظري ما يسمى جيل الستينيات، بل أيضاً حتى تلامذتهم الذين كانت تجربتهم اللاحقة مختلفة جداً. وبتعبير آخر فإنهم لم يتعلموا حتى الآن الفصل بين عالمية الرأسمالية وبين مظاهر رأسمالية كالنمو والرخاء والنجاح، أو النجاح الظاهري، كما انهم يسلمون كلياً بسيطرتها الشاملة.

ولكن إذا ما بدا ان هذه النظريات تسلم بفكرة انتصار الرأسمالية، فإن هذا يعود جزئياً الى الخلفية الفكرية لماركسية القرن العشرين. فعلى تلك الخلفية وافتراضاتها ان للرأسمالية حدوداً لن تتخطاها، قد يكون من الصعب تصور أي مقياس آخر لنجاح الرأسمالية غير قابليتها على الانتشار في كل أنحاء العالم. ويبدو الأمر وكأن ليس هناك من مقياس للمديات القصوى للرأسمالية سوى مقياس حدود توسعها الجغرافي. فإذا ما أثبتت قدرتها على هدم هذه الحدود – وهي قد فعلت ذلك الآن بجلاء – لن يبقى لنا بالتأكيد إلا أن نعترف لها بالنجاح الساحق.

لكن لنفترض أننا عدنا الى ماركس، والى تحليله الداخلي للرأسمالية كنظام قائم في حدوده – وفي تصوري أن شمول الرأسمالية للعالم هو بالذات ما يؤهلنا عملياً أن نفعل ذلك – عندها يمكننا حقاً ان نبدأ النظر الى العالم ليس كعلاقة بين ما هو داخل الرأسمالية وما هو خارجها، بل باعتبار العالم مسرحاً لفعل القوانين الداخلية لحركة الرأسمالية. وسيسهل علينا ذلك أن ننظر الى عالمية الرأسمالية ليس فقط باعتبارها مقياساً للنجاح بل كمصدر للضعف. إن اندفاع الرأسمالية الى التعولم ليس محض تعبير عن القوة، إنه مرض، ورم سرطاني. فهو يمزق النسيج الاجتماعي مثلما يدمر الطبيعة. إنها سيرورة متناقضة وهذا ما كان ماركس يقوله عنها دائماً .

ربما لم يكن ما قالته النظريات القديمة حول الامبريالية دقيقاً تماماً في ما يتعلق بعدم قدرة الرأسمالية على أن تصبح عالمية، لكن من الصحيح بالتأكيد أن الرأسمالية لن تكون ناجحة ومزدهرة في جميع أنحاء العالم. يمكنها فقط أن تعمم تناقضاتها، والهوة التي تزيدها اتساعاً بين الأغنياء والفقراء، المستغِلين والمستغَلين. إن نجاحاتها هي إخفاقاتها ايضاً.

واليوم، لم تعد لدى الرأسمالية منافذ للهرب، لا صمامات أمان ولا آليات تصحيح خارج منطقها الداخلي ذاته. وحتى عندما لا تكون في حالة حرب، أو متورطة في الأشكال القديمة للصراع في ما بين الامبرياليين، فهي عرضة للتوتر الدائم والتناقضات الناشئة عن

المنافسة الرأسمالية. والآن وقد بلغت حدودها الجغرافية الى هذا المقدار أو ذاك، وأتمت توسعها المكاني الذي كان دعماً لنجاحاتها المبكرة، لم يعد بإمكانها إلا ان تتغذى على نفسها؛ فكلما حققت مزيداً من النجاح حسب معاييرها – بعبارة اخرى، كلما زادت من مضاعفة الارباح والنمو كما تسميه – كلما كانت تقضي بذلك على ثروتها البشرية والطبيعية.

ربما آن الأوان إذن بالنسبة لليسار لكي ينظر الى عالمية الرأسمالية ليس كمجرد هزيمة لنا، بل كفرصة أيضاً. وهي طبعاً، وقبل كل شيء، فرصة جديدة لذلك الشيء الذي صار خارج الموضة وهو الصراع الطبقي.

* (الثقافة الجديدة)، العدد 285 تشرين الثاني – كانون الأول 1998، ص 45 - 52

الهوامش:

(1) محرر في مجلة Monthly Review وقد قدمت هذه المقالة أصلاً في مؤتمر المفكرين الاشتراكيين لعام 1997 ونشرت في عدد حزيران 1997 من المجلة نفسها .

(2) روزا لوكسمبورغ، تراكم رأس المال (لندن 1963)، ص 467.

(3) بودي أن أقدم للقراء القلائل الذين قد تستهويهم هذه المسألة فكرة عامة فقط عما أقصده. فأنا أعتقد مثلاً، ان عقلية مدرسة فرانكفورت كانت مشغولة بالمجتمع البرجوازي أكثر من انشغالها بالرأسمالية (وليسا الشيء نفسه بالنسبة لي). وهكذا، فإن التحول الشهري من الاقتصاد السياسي الى الثقافة والفلسفة ربما لم يكن وطيد الصلة بتحول المفكرين من التركيز على المادي الى الايديولوجي فحسب، بل يتحول هذا التركيز الى واقع مادي مختلف. فهو على الأقل لم تكن له صلة بمشهد المجتمع الذي لا يمر محور الانقسام الرئيسي فيه بين رأس المال في مقابل العمل، بل بين البرجوازية غير الرأسمالية (وخاصة برجوازية من المثقفين والبيروقراطيين كما في النموذج الالماني) في مقابل الجماهير، وما يزيد القضية بعد ذلك تعقيداً هو حقيقة ان نقاد المجتمع والثقافة البرجوازية، الذين ينتمون أنفسهم الى نوع خاص جداً من البرجوازية كانوا مشبعين بثقافتها، بل ويشاركونها أحياناً نظرة الاحتقار للجماهير . فإذا وضعنا هذا التعقيد جانباً، تبقى المسألة هي ان هذا الشكل من النظرية ربما لا ينظر الى الرأسمالية من زاوية مختلفة وحسب، بل قد تكون إحدى عينيه مشدودة الى واقع اجتماعي مختلف، ما قبل رأسمالي .

نصوص مترجمة

من أرشيف الكومنترن (8)
رسائل في أرشيف الحزب الشيوعي العراقي في الكومنترن *

ترجمها عن الروسية د .عبد الله حبه

رسالة رقم (٨)
سياسة واجراءات حكومة حكمت سليمان في العراق

شرعت حكومة حكمت سليمان التي تولت السلطة بنتيجة الانقلاب في 29 اكتوبر 1936 بتنفيذ برنامج واسع من الاصلاحات التقدمية. وحصل العراق لأول مرة بشخص حكمت سليمان على حكومة وطنية ديمقراطية تحظى بالتعاطف والتأييد من قبل الجماهير الشعبية الواسعة وكذلك الاكراد واليهود وغيرهم من ابناء الأقليات القومية وتتمتع بكافة المقومات لكي يحصل بواسطة تحقيق مصالح الشعب وتقدم البلاد على وضع الاستقلال الذي منح للعراق شكليا بعد الغاء الانتداب وعقد المعاهدة البريطانية – العراقية في عام 1930.

لقد تنامى سخط الناس في فترة حكومة ياسين الهاشمي البائدة تناميا شديداً. وتصاعد الاستياء والغضب بسبب استمرار تدهور الوضع الاقتصادي للجماهير، وتعمق وضع التبعية لدى الحكومة الى الامبرالية البريطانية. وسارت حكومة الهاشمي من اجل اخماد هذا الاستياء في طريق الارهاب الغاشم. ومن نافل القول الاشارة الى انه خلال 18 شهراً اندلعت 6 انتفاضات فلاحية، جرى قمعها بواسطة الجيش والقصف الجوي للقرى.

وتحولت الى العمل السري المعارضة المؤلفة من العناصر اليسارية المعادية للإمبريالية بزعامة الديمقراطي التقدمي حكمت سليمان.

وعلى صعيد السياسة الداخلية تتبع الحكومة سياسة التوطيد الشامل للدولة العراقية. ويتعزز الجيش الوطني والطيران. ومن المقرر اصلاح جهاز الشرطة وتطوير الروح النضالية في المنظمات الشعبية الجماهيرية، بغية ان تصبح كافة هذه الوسائل جاهزة لصد اي عدوان خارجي، وكذلك لقمع الرجعية الداخلية. وتعتبر الحكومة الجديدة العراق كقاعدة لدعم حركة التحررالوطني في الشرق العربي بأسره.

اما في مجال السياسة الخارجية فيتم توطيد علاقات الصداقة مع الجارتين تركيا وايران وجميع الدول الاخرى.

وتدعم حكومة سليمان تلاحم ووحدة كافة

العناصر التقدمية والديمقراطية والمعادية للإمبريالية في البلاد. وتضمن الاصلاحات التقدمية والديمقراطية التي تنفذها الحكومة، دعم البرجوازية الوطنية وكذلك اوسع جماهير الشعب والفلاحين والطبقة العاملة. ويجري توزيع الاراضي الاميرية على الفلاحين والتي تشكل ثلث الاراضي الصالحة للزراعة. ويجري تطهير جهاز الدولة من المرتشين وغيرهم من العناصر الاجرامية والفاسدة الاخرى.

ان حكومة حكمت سليمان التي اعتمدت نهج تعزيز وحدة كافة العراقيين على اساس المساواة بين القوميات القاطنة في العراق، تدعو في الوقت نفسه بصفتها حكومة وطنية عربية الى دعم نضال كافة الشعوب العرابية في سبيل التحرر الوطني والوحدة. وتدل على ذلك بيانات وتصريحات قادة الحكومة الجديدة وكذلك الاستقبال الودي جداً الذي ابدته الحكومة العراقية لفوز القاوقجي قائد القوات المسلحة لعرب فلسطين ضد الامبريالية البريطانية والصهيونية في فلسطين الذي وصل الى العراق مع رفاقه. وقد استقبلت حكومة حكمت سليمان القاوقجي ورفاقه دون اعتبار بنود واحكام المعاهدة البيريطانية – العراقية التي تلزم العراق بصفته حليفاً لبريطانيا بعدم القيام بذلك.

ويجري تشكيل محاكم خاصة لمحاكمة الوزراء السابقين الذين أثروا من نهب أموال الدولة. وكان الفساد ونهب اموال الدولة قد ازدهرا في العراق إبان سلطة جميع الحكومات السابقة وتم دوماً تجاهل مصالح البلاد واتباع سياسة الاستسلام التام للإمبريالية البريطانية. فقد تحول ياسين الهاشمي في اثناء وجوده في السلطة الى أكبر ملاكي الأراضي وصاحب مزارع شاسعة تستخدم فيها شبكة الري التابعة للدولة. وأرسل الوزراء السابقون في طائرات انكليزية الى خارج البلاد، واغلقت حكومة حكمت سليمان لمدة سنة واحدة الصحيفتين الرجعيتين العراقيتين "العقد" و"الطريق" المرتبطتين بالعناصر الفاشية الاجنبية، اللتين كانتا تدافعان عن الوزراء السابقين.

ويمارس الطابع الديمقراطي الحق للحكومة الجديدة تأثيره في دعمها لنضال الشعب الاسباني ضد العدوان الفاشي.

*****

رسالة من العراق 3 /7 /1937

تحياتنا.

انقلب الوضع السياسي في العراق من وضع ديمقراطي بعض الشيء فيه بعض الحريات الديمقراطية الى حكم عسكري فاشستي النزعة، يستمد وحيه من المانيا مباشرة وتركيا (بوضع خاص) وذلك على أثر استقالة أربعة وزراء شعبيين ديمقراطيي النزعة كانوا ركناً وطيداً يؤمل ان يكونوا سبباً بتحسين الحريات الديمقراطية وتوسيعها، وكان يؤمل فيهم ان يقوموا بمشروعات اقتصادية وعمرانية تخفف وطأة الضرائب عن كاهل الفقراء وتزيدها على الاغنياء (كما قدموا فعلاً قانوناً كهذا ولقي معارضة عنيفة)، "لابد ان يكون منهجهم لديكم". كما انهم حاولوا ان يضربوا بقوة على الاستغلال الفظيع ويقوموا ببعض التحسينات الاجتماعية التي تقتضيها الاحوال. وقد كتبنا تقريراً مفصلاً في الصيف الماضي من سورية عنهم وعن مدى اتصالنا بهم وتأثيرنا عليهم. وتوحيد جبهتنا معهم على أسس شعبية، وذلك قبل ان يأتوا الحكم بقليل.. استقال هؤلاء الوزراء الاربعة وهم

كامل الجادرجي الشعبي وزير الاقتصاد والمواصلات وجعفر ابو التمن وزير المالية وهو شعبي ايضاً ويوسف ابراهيم وزير المعارف وصالح جبر وزير العدلية. وقد نشروا استقالتهم على الشعب قبل قبولها، ومضمون الاستقالة هو (انهم جاءوا الى الحكم متضامنين يسيرون على نهج شعبي معين ويتحملون سوية المسؤولية. ولكنهم وجدوا ان اعمال تقتيل وتخضيع ابناء الشعب يقوم بها الجيش بأمر من رئيس الاركان وهم لا يعلمون بها، ولذا ان بقوا في الحكم فان بقاءهم بهذا الشكل الذي يكون في البلد فيه سياستان؛ سياسة عسكرية في كل شيء تعمل بدون استشارة احد، وسياسة اخرى حكومية لا شأن كبيرا لها فما دام نفوذ "الفئة" العسكرية كبيرا. وهذا خروج على السياسة الرشيدة والاخلاص ولهذا قدموا استقالتهم). والواقع فان تدخل الجيش في السياسة تدخلا عظيما عن طريق حكمت سليمان رئيس الوزراء، شلّ اعمال الوزراء من جهة ولم يعد الناس يطمئنون اليهم ويحترمونهم، وذلك لانهم يرون ان ما يريد الفريق بكر صدقي رئيس اركان الجيش هو الذي ينفذ دون غيره. وذلك عدا عن ان بكر صدقي نفسه مارس ومن وزير المانيا المفوض (وايلد ليا) وهو على اتصال قام بهما وبمساعدة بعض العناصر الشوفينية، قاموا بدعاية واسعة ضد الوزراء الديمقراطيين، وهذه الدعاية هي الادعاء منهم بانهم شيوعيون وانهم ينفذون سياسة شيوعية وان جريدتهم الاولى شيوعية.. الخ. فهذه الدعايات الاستفزازية التي هيأت الطبقة الممولة بيد الاستعمار والرجعية والدينية والعناصر القومية ضدكم وكان الكل يعارضون اعمالهم وينظرون اليهم نظرتهم الى اعمال عدو جاء يهدم نفوذ الطبقة الممولة. وقد تضافرت جهود هؤلاء جميعاً يساعدهم دعاة المانيا وراديو باري ضد الوزراء المذكورين في الوقت الذي لم يسمح لهؤلاء الوزراء بالاستمرار في التشكيل الحزبي وايجاد قاعدة جماهيرية يستندون اليها، اضف الى ذلك ان استخبارات الجيش صارت من القوة لدرجة استولت على جميع مخابرات الافراد في الداخل والخارج (اي فتح البريد كله) لمعرفة الاشخاص الذين يشتغلون بالشعبية او الشيوعية، وما الى ذلك من دون علم الوزراء. أضف الى ذلك ان كثيراً من المتعلمين واشباههم واصحاب الصحف جميعاً عدا (الاهالي) كانوا يداً منفذة لبكر صدقي، رئيس اركان الجيش؛ ففي كل يوم (تنشر) فيها مقالات مدح من جهة وهجوم شديد على الجهات الشعبية في العالم والشيوعية وروسيا باشارة وبمساعدة من المانيا التي صار لها مكتب ترجمة كبير يزود الصحف كل يوم بالمقالات وبالاضافة الى ما ذكرنا توجد في الجيش تشكيلات ارهابية كانت تقف علناً وتهدد هذا وذاك وترتكب القتل عند الحاجة دون ان تهتدي المحاكم الى القاتل!

وحدث فعلاً ان قتل ضياء يونس سكرتير مجلس الوزراء سابقاً دون ان يعرف من القاتل، قتل رئيس تسوية الاراضي في دائرته واعفي عن القاتل بدعوى أنه مجنون.

إن تدخل بكر صدقي في الشؤون الصغيرة والكبيرة للوزارة ومعارضته لاعمال الوزراء المستقيلين لم تقف عند حد فهو يطلع مباشرة قبل كل احد على كل صغيرة وكبيرة وحلها يكون بيده.

لقد حدث أن تمردت عشائر السماوة لاسباب كثيرة وهي عدم قبول شيوخهم

ببناء مراكز للحكومة بين العشائر وعدم موافقتهم على اعطاء التجنيد الاجباري بسبب خلاف مع الحكومة حول الاراضي، فارسلت اليها قوة من الجيش بكل وسائل التدمير من دون ان يعرف احد ومن دون ان يعارضوهم ويقاضوهم (للعشائر) فابادتهم عن بكرة ابيهم إبادة شنعاء. وجاء الجيش بجثث القتلى ورمى بها في وسط بلدة السماوة وكلهم من الفلاحين دون ان يمس الشيوخ بأذى وشنت ايضاً بعشائر اخرى كانت على وشك الثورة بسبب اعمال الجيش.. كل ذلك من دون اذن الوزراء ومعرفتهم. وكان هذا الحادث آخر حادث استقال عنده الوزراء الاربعة. واصل بكر صدقي بارادته اربعة وزراء آخرين من اشد الناس شوفينية وخدمة لمصلحة الشركات والطبقة الرأسمالية، وهكذا انقلبت السياسة (علناً) بين عشية وضحاها وسدت جريدة الاهالي ونصح للشعبيين بترك العراق فتركوه (وإلا لو بقوا لقتلوا) وذلك بارشاد عنصر شعبي من ضباط الجيش، مطلعين على قوائم الاسماء المعدة للفتك بهم او سجنهم.

وبقيت الصحف كلها فاشية النزعة في كل منها ـ كل يوم ـ مقالان على الاقل لمهاجمة الشيوعيين وحتى الديمقراطيين وتهاجم الحكومة الاسبانية ومهاجمة الجبهات الشعبية، ومقالات اخرى للتمجيد بالمانيا وايطاليا واليابان ورجع الارهاب فلا توضع بعد الاستقالة بساعات وراء كل من يشتهون من عدد من الجواسيس وبدأت المافيات والقي القبض حالاً على (سئيموف)، واخذت افادته ثم اطلق سراحه، بعد ان تعهد بعدم قبول احد ممن يشتبه بهم في محل عمله ووضع عليه اربعة رقباء.. وهكذا الامر مع الآخرين وقد بدأ حالاً بفصل كافة الاشخاص الذين عينوا من قبل الوزراء الاربعة من وظائفهم وأبعد بعضهم الى خارج بغداد.

ولكن تأثير كل هذه الاعمال كان سيئاً جداً. والرأي العام باكثريته صار يكره الجيش وحكمه ولكن يخشى ان يعمل شيئاً. وقد ينتظر الفرص ولا نظن ان هذا الامر سيتم ليكن على هذا المنوال، بل سيتدهور حتماً لأن الشعب العراقي نفسه شديد اليأس من جهة، ومن جهة اخرى تمت مع الاسف نعرات ممقوتة كانت قد سكنت في زمن الوزراء الاربعة وخصوصاً بان جعفر الجلبي ابو التمن هو زعيم وطني محترم ومقبول من قبل الشيعة بصورة خاصة وانه هو شخصية غير طائفية. ويعتبر هذا الفريق من الشيعة ان الحملة موجهة ضدهم مباشرة كما ان نعرة العرب والاكراد صارت تشتد لأن كل كردي يدعي ان حكمت غير عربي، لا بد أن يتمخض الزمان غير البعيد باحداث مؤلمة للشعب العراقي. اضف الى ذلك ان الاستعمار الانكليزي أخذ يلعب دوره لمكافحة النفوذ الالماني، وصارت الاسلحة تهرب الى الاكراد في الشمال بكميات كبيرة. كما ان سيل الاسلحة لا ينقطع للعشائر والقبائل في الجنوب.

كما ترون ان الظرف الذي مر به العراق دقيق جداً، ويحتاج الى شيء كثير من التبصر والحكمة لمعالجته.

كتبت لكم سابقاً حول بعض الاعمال الادبية الحزبية وحول طرد بعض الاعضاء بقرار من مؤتمر عام الحزب. وقد كان من نتيجة ذلك ان قام هؤلاء المطرودون بانشقاق في صفوف الرفاق في بغداد وخصوصاً في صفوف رفاق الجيش ودعايات اخرى تروتسكية النتائج، وقد استغلوا وجود عناوين مخابرة مع سورية عندهم وقد

يخابرونكم ايضاً فنرجو عدم الانصات اليهم. ثم أنا ارسلت رفيقاً الى سوريا وهو استاذ سوري في بغداد حملناه تفاصيل الموضوع، والجهد مبذول لتلافي الخطر في مثل هذا الظرف الدقيق الارهابي، كما علمنا بان الاخر المرسل على وشك الوصول وقد تنتهي كثير من المشاكل بوصوله.

الاخطار التي نتوقعها من الوضع الارهابي قد تصيب بعض الرفاق المعروفين الذين اشتغلوا علناً في بغداد. ولا نظن ان الجيش سيتأخر من القضاء على بعض الرفاق الذين يرى فيهم الخطر، ولكن ذلك لا يسري كثيراً على الرفاق في غير بغداد ولا خوف عليهم هناك. اما التوقيف والسجن فأمر بسيط قد اعتاده الرفاق في الخارج، وان كان من المستحسن الابتعاد عنه.

لقد ترك العراق مضطراً عبدالقادر اسماعيل صاحب جريدة الاهالي وهو عنصر طيب ولا نظن انه يستطيع الرجوع للعراق، ما دام الحكم العسكري باقيا، فاذا ما طلب اليكم مساعدته كلاجئ سياسي فلا نرى بأساً في مساعدته وقبوله عندكم، وهو من اشد الناس محاربة للفاشية ولجريدته الفضل فقط في ذلك، عدا انه كان ينشر لنا كل يوم مقالاً او مقالين.

لقد تركت العراق مضطراً الى ايران واما الآن في كرمانشاه (بمعرفة الرفاق) وقد كان بودي ان اسافر الى فرنسا او سوريا للاشتغال هناك، ولكن الظروف المالية كانت شديدة ولم استطع (رغم اني منفي من سوريا ولبنان).

– انتظر اشارة من الرفاق في بغداد فان اشاروا بالسفر اليكم، فانا فاعل لا بأس من مخابرتي بواسطة كاتب القنصلية العراقية في كرمانشاه، لانه رفيق امين وكاتب بسيط جداً، ذلك اذا رأيتم في ذلك حاجة وهو وحده يعرف أين اسكن واسمي عنده.

ارجو ان تشيروا مع الرفاق في سوريا الى قطع كل المخابرات مع العراق، لان كل كتاب يفتح على الاطلاق.

---

* من وثائق الكومنترن

حـــــــــــوارات

حوار مع الرفيق رائد فهمي، سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي بمناسبة انتهاء أعمال المؤتمر الوطني العاشر

(الثقافة الجديدة) تحاور سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي، الرفيق رائد فهمي (أبو رواء)، بمناسبة انتهاء اعمال المؤتمر الوطني العاشر للحزب، الذي انعقد خلال الفترة 1 – 3 /12/ 2016.

نرحب بكم، رفيقنا العزيز (أبو رواء)، باسم هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)، ونشكركم على تفضلكم بإتاحة الفرصة للقاء والتحاور حول المؤتمر الوطني العاشر.

وبمناسبة الاحتفال بهذا الحدث الهام، ثمة أسئلة كثيرة يمكن ان تطرح من زوايا مختلفة، ولكن المؤكد، هو ضرورة إعادة السؤال الجوهري الى المواجهة؛ لماذا انعقاد المؤتمر وما هي ضروراته؟ وما هي دروسه وخلاصاته الكبرى؟

للإجابة على هذا السؤال المركب وتعميقا له، توجهنا للرفيق (أبو رواء) وأجرينا معه الحوار الآتي:

١. الثقافة الجديدة:

كما هو معروف، كان المؤتمر الوطني العاشر الذي تم خلال الفترة ١-٢٠١٦/١٢/٣ ليس ابن ظروفه الصعبة والمعقدة ولحظته الراهنة بل تتويجا للسياسة التي انتهجها الحزب بعد المؤتمر الوطني التاسع والآليات التي اعتمدها لوضع تلك السياسة موضع التطبيق. وسؤالنا المنطلقي هنا هو: هل بالإمكان ان نبدأ حوارنا بأوضاع الحزب والمجتمع قبل انعقاد المؤتمر وانعكاساتها على التحضير إليه؟ ثم ما هي خلفيات القرار بعقد المؤتمر برغم ما كانت تشهده البلاد (ولا تزال) من اضطراب سياسي، وانشغال البلاد بحرب ضروس مع قوى الارهاب، وفي مقدمتها الدولة الإسلامية (داعش)، والضرورات السياسية والفكرية والتنظيمية لهذا القرار؛ كي يمكن فهم المغزى العميق لعقد المؤتمر في هذه اللحظة المتوترة من تطور البلاد؟

والآن وقد انهى المؤتمر اعماله، فانه يمكن تقييمه برأس بارد، لذا يهمنا هنا طرح السؤال الآتي الذي يشكل امتدادا للسؤال السابق: هل كان المؤتمر حقا محطة نوعية اخرى جديدة أم مجرد رقم في عداد أرقام المؤتمرات الحزبية الدورية، كما ينافح الخصوم وعشاق المناكدات؟

رائد فهمي (أبو رواء):

إن عقد المؤتمر هو استحقاق تنظيمي، ينص عليه النظام الداخلي للحزب. وقد حرص الحزب اشد الحرص منذ المؤتمر الوطني الخامس، وفي اطار نهج الديمقراطية والتجديد، الذي انطلق حينئذ وتكرس كوجهة وممارسة متواصلة ومتجددة، على الالتزام بتنفيذه. كما ان مؤتمر الحزب يعتبر المحطة او الحلقة الأرأس التي تتجسد فيها الديمقراطية الداخلية، ويتحقق من خلالها تحكيم العقل الجماعي في فحص وتقييم مسيرة الحزب، واستخلاص الدروس من نجاحاتها وإخفاقاتها، ورسم السياسة العامة للحزب في ضوء الدروس المستخلصة، والتحليل الدقيق لأوضاع البلاد وتطوراتها المستجدة على مختلف الصعد السياسية والاجتماعية – اقتصادية، وانتخاب هيئته القيادية – اللجنة المركزية، ولجنة الرقابة المركزية.

ولم يأت قرار المضي في عقد المؤتمر من دون دراسة وتقييم للظروف الصعبة التي يمر بها البلد، خصوصاً الحرب الضروس التي تخوضها قواتنا المسلحة والقوى الشعبية المساندة لها ضد قوى الارهاب وتنظيم داعش الاجرامي، والتحديات الكبيرة الناشئة عنها أو المرتبطة بها، لا سيما على الصعد الأمنية والسياسية.

لقد حقق المؤتمر الوطني العاشر نجاحا متميزا في انجاز أعماله وإقرار الوثائق المقدمة له، وانتخاب لجنة مركزية جديدة، تحققت فيها نسبة عالية من التجديد قاربت ٤٢ بالمائة، وضمت دماء وطاقات شابة زادت على ثلث قوامها. كما تعززت المشاركة النسوية فيها بانتخاب رفيقة إلى عضوية المكتب السياسي للحزب لأول مرة منذ تأسيسه. ولا شك ان قرار سكرتير اللجنة المركزية، الرفيق حميد مجيد موسى (ابو داود)، بعدم إعادة ترشيح نفسه، جاء مؤكدا للبعدين الديمقراطي والتجديدي لهذا المؤتمر، ومؤشرا في الوقت نفسه تعافي الحزب وسلامة حياته الداخلية وصلابة وحدته. وكان لمساهمة الرفيق ابو داود وقيادته الحزب خلال

فترة عاصفة بالنسبة للعراق وللحزب، دور اساسي في انضاج شروط هذا النجاح، وتهيئة الأجواء الصحية التي مكنت الحزب من تحقيق نقلة جديدة في اطار عملية الديمقراطية والتجديد.

وواضح ان هذه التغييرات في تركيبة الهيئة القيادية للحزب، على أهميتها، ما كانت كافية لتجعل من المؤتمر الوطني العاشر محطة نوعية، لولا أنها اقترنت بعناصر نجاح أخرى تؤسس بمجموعها لاعتباره كذلك، ومنها الحضور والمشاركة النوعيان المتميزان على المستويين الشعبي والرسمي في حفل افتتاح المؤتمر، والتغطية الاعلامية الواسعة له من طرف عدة فضائيات وقنوات إعلامية أخرى، بما فيها التابعة للدولة. إلا أن أهمها يتمثل في الأصداء الايجابية الواسعة للمؤتمر في اوساط واسعة في المجتمع وقواه السياسية وتنظيماته الشعبية والمدنية ونخبه المهنية والثقافية. وقد قوبل شعار المؤتمر "التغيير.. دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية"، بارتياح وترحيب واسعين. ووجد الكثيرون من الوطنيين غير الشيوعيين، الطامحين للإصلاح والتغيير، في أعمال المؤتمر ووثائقه والمناقشات العلنية التي دارت حولها، وفي النتائج التي خرج بها والتجديد في قيادته لصالح مشاركة أكبر للشباب والنساء، ومضات أمل وثقة في امكانية استنهاض وتجميع القوى المدنية الديمقراطية، وتوحيد عملها بما يعزز مكانتها وتأثيرها السياسيين. وتلقى الحزب اشارات ودعوات لتوسيع وتكثيف نطاق عمله ونشاطه، وفيها تعويل على دوره السياسي والفكري والجماهيري، وهذه موضع اعتزاز كبير وهي تضع الحزب أمام مسؤولية أكبر في الارتقاء بعمله وأدائه وانفتاحه على الجماهير. وسيكون ذلك هاجسا دائما لعمله القادم في جميع الميادين.

٢. الثقافة الجديدة:

كيف تصفون، أيها الرفيق العزيز (أبو رواء)، ابرز النتائج التي انتهى إليها المؤتمر الوطني العاشر للحزب، وما هي اهم المجالات التي شهدت التغييرات الضرورية سواء من الناحية التنظيمية ام السياسية ام الفكرية؟

رائد فهمي:

لقد اشرت في اجابتي على السؤال السابق إلى التغييرات التنظيمية المهمة في الهيئة القيادية للحزب، التي خرج بها المؤتمر، اضافة إلى عدد من التدقيقات والتعديلات في النظام الداخلي باتجاه تعميق الديمقراطية، ابرزها تحديد انتخاب سكرتير اللجنة المركزية لدورتين متتاليتين فقط.

وعلى الصعيد الفكري والسياسي، تم تقديم تحليل معمق لمختلف اسباب وأبعاد ومظاهر الأزمة العامة في البلاد، التي تشمل منظومة الحكم وبناء الدولة والطابع الريعي للاقتصاد الوطني، كما تتجلى تداعياتها، تأثيراً وتأثراً، في الثقافة والوعي والمنظومة الأخلاقية والسلوكية الاجتماعية. وفي ضوئه خلص المؤتمر إلى الاستنتاج، أن استمرار نهج المحاصصة الطائفية والإثنية سوف يعمق الأزمة. فهو يعجز عن تقديم حلول جدية لمشاكل البلاد، مما يزيد من تدهور الأوضاع المعيشية لفئات وشرائح واسعة من السكان، من العاطلين عن العمل والمهمشين والكادحين

وذوي الدخول الواطئة، ومن النازحين والمهجرين والشرائح الاجتماعية الهشة كالأرامل واليتامى وغيرهما. وستمتد آثار الأزمة لتصيب مختلف فئات الفلاحين في الريف، وما يوصف "بالفئات الوسطى" في المدن. وسيترك كل ذلك انعكاسه على الحالة الأمنية، وعلى تماسك المجتمع والثقة والتعايش بين أطيافه، فضلا عن تمادي التدخلات الخارجية في شؤونه. كما ان من شأن نهج المحاصصة تحجيم الانتصارات العسكرية الباهرة، التي حققها المقاتلون البواسل في القوات المسلحة والقوات المساندة لها على اختلاف مسمياتها، والحيلولة دون تحولها إلى انتصار سياسي حاسم ضد الارهاب ومنابعه، يضع العراق على سكة التعافي وإعادة الأمن والاستقرار في ربوعه.

وقد وجدت محصلة التغييرات الفكرية والسياسية التي جاء بها المؤتمر الوطني العاشر، تعبيرها المكثف في تصدر "التغيير" شعار المؤتمر، لأن الانتقال من دولة المكونات المتشظية القائمة على تقاسم السلطة ومنافعها ومغانمها بين من يحتكرون تمثيل هذه المكونات، إلى دولة المواطنة المدنية الديمقراطية الاتحادية، بات ضرورة ملحة للخلاص من حكم الطائفية السياسية، المسؤول عن توالي الفشل واستشراء الفساد. وقد وجد هدف "التغيير" في تواصل الحراك الجماهيري على مدى سنة ونصف السنة رافعة له، فيما حفز قوى مجتمعية متزايدة الاتساع على تقبل مفاهيم الاصلاح والتغيير والشعارات والحلول المدنية، وابداء الاستعداد للمشاركة في الفعل الاجتماعي والسياسي؛ فالتغيير لم يعد مجرد هدف عائم نرنو إليه، وإنما غدا إمكانية قائمة، عمد المؤتمر إلى تحديد سبل تحقيقها بالفعل عن طريق توحيد عمل الطيف الواسع وغير المنظم من القوى والمنظمات والشخصيات المدنية الديمقراطية.

وتوقف المؤتمر عند الواقع الاجتماعي والاقتصادي، واشر عملية الفرز والتمايز في المصالح والتبلور المتزايد وضوحا لمعالم الانقسام الطبقي داخل المجتمع، والتي لم يكتمل تشكلها بعد بسبب طبيعته الانتقالية. إلا أن الفرز والاستقطاب في الدخل والثروة يزدادان وضوحا وتعمقا، حيث تتراكم الثروات الفاحشة لدى مجموعة صغيرة من الفئات البرجوازية البيروقراطية والطفيلية ولدى كبار التجار، مقابل انتشار الفقر والعوز على نطاق واسع. كما يؤشر ذلك ارتفاع نسبة من لا تصل مواردهم الى مستوى خط الفقر لتبلغ حوالي ٣٠ بالمائة، فيما يناهز عدد ساكني العشوائيات ستة ملايين مواطن أو أكثر، ويزيد عدد النازحين على ثلاثة ملايين، وهذا ما حدا بالمؤتمر إلى تثبيت "العدالة الاجتماعية" ضمن شعاره المركزي.

٣. الثقافة الجديدة:

"وثيقة التغيير" التي اقرها المؤتمر الوطني العاشر، على كثافتها، تعتبر وثيقة مهمة تبلورت موضوعاتها، وأطروحاتها الكبرى، ومفاهيمها الجديدة، بعد مناقشات واسعة شهدها الحزب خلال الفترة التي سبقت انعقاد المؤتمر. وسؤالنا هنا هو: ما هي الموضوعات والأطروحات والمفاهيم التي يمكن اعتبارها جديدة في هذه الوثيقة، والتي تتيح القول ان الحزب قدم مقاربة جديدة للتغيير المطلوب ومضامينه الكبرى ضمن خطاب يريد تأسيس تمايزه

واستقلاليته وخصوصيته، ويؤكد جديّة الخطوات التي قام بها الحزب كي ترتقي الى القول بأنه يقدم مقاربة جديرة بالانتباه والسجال معها؟

رائد فهمي :

يطرح الحزب في هذه الوثيقة رؤيته للتغيير، باعتباره ضرورة. فالبلد لم يعد يتحمل مواصلة السير على ذات النهج في الحكم، ونفس نمط التفكير الذي قاد العراق إلى وضعه الحالي، محاصرا بالأزمات. والوثيقة توضح ملامح المشروع البديل لمشروع قوى الطائفية السياسية، الماسكة بزمام الأمور طوال السنوات الماضية وحتى وقتنا الراهن، الذي عمل على اقامة دولة المكونات واعتماد نهج المحاصصة الطائفية والاثنية. وهذا البديل هو مشروع الدولة المدنية الديمقراطية الاتحادية، القائم على مبدأ المواطنة وتحقيق اعلى وأفضل مستوى ممكن من العدالة الأجتماعية. كما تحدد الوثيقة شروط تحقيق التغيير، وتبين المسارات والوسائل والآليات السياسية اللازم اعتمادها والأهداف الواجب بلوغها، لتأمين شروط التغيير.

فالورقة تقدم تشخيصا وتوصيفا دقيقين لحالة البلاد ولمشاكلها المتفاقمة والمستعصية. حيث تؤكد تجربة السنوات العشر الماضية عجز منظومة الحكم القائمة ونهجها عن تقديم الحلول الناجعة للمشاكل والاستعصاءات، بل وتجد صعوبة متزايدة في إدارتها. لذا دخلت البلاد في ازمة شاملة ذات ابعاد بنيوية وسياسية. وتجذرت هذه الازمة بسبب الاستعصاءات لتصبح ازمة نظام حكم وسلطة سياسية، وازمة علاقات وغياب للثقة المتبادلة بين القوى والكتل المتنفذة، وتفاقمت آثارها بفعل المواجهة مع قوى الارهاب والحرب ضد داعش، وبفعل استشراء الفساد بتجلياته المختلفة، وأهمها التصاهر بين السلطة والمال، حتى اصبح يشكل تهديدا خطيرا للبلاد ولاستقرارها السياسي والاجتماعي.

ولم تنحصر موضوعات وتحليلات وثيقة التغيير ومعالجاتها في البنية الفوقية السياسية للمجتمع، وإنما تناولت بشكل مكثف ورصين التغيرات العميقة في اللوحة الاقتصادية – الاجتماعية، وتحديد ملامحها وهي في حالة سيرورة ولم تكتمل صورتها النهائية بعد. حيث اشرت الوثيقة عملية الفرز الاجتماعي والطبقي المشوه الجارية، والتي تترافق مع تنامي فئات وشرائح طفيلية وبيروقراطية وكومبرادورية، معرقلة لاستكمال بناء الدولة ولأي اصلاح جدي في بنائها السياسي والمؤسسي.

وأولت اعمال المؤتمر ووثائقه اهتماماً مكثفا للحراك الشعبي، الذي يتواصل من دون توقف منذ تموز ٢٠١٥، وتوقفت عند اسبابه وتمظهراته المختلفة وسماته وآليات عمله وتطورها، وطبيعة القوى متنوعة المشارب المشاركة فيه والمؤيدة والمتماهية مع مطالبه وشعاراته، الداعية إلى الاصلاح والتغيير والى المكافحة الجادة للفساد والفاسدين والمفسدين، والذي هو وهم أكثر اتساعا وعمقا في المجتمع. ورغم التذبذب في أعداد المشاركين في فعاليات الحراك الأسبوعية المنتظمة، فإننا نرى انه باشكاله المتعددة يزداد اتساعاً؛ حيث لا يكاد يمر اسبوع إلا وتشهد كل محافظة ومنطقة في العراق شكلا أو أكثر من أشكال

الاحتجاج الجماعي، في سبيل أهداف مطلبية أو دفاعاً عن الحريات أو اسناداً لقضية عادلة. كما أن عوامل انطلاق الحراك لا تزال قائمة، إن لم تكن قد تكاثرت مع اشتداد الأزمة المعيشية لفئات وشرائح السكان، ومع استمرار الخروق الأمنية والنزاعات في المدن والأرياف، بسبب الوجود الواسع للسلاح خارج الدولة وبعيدا عن سيطرتها، ونشاط جماعات مسلحة بعضها خارج عن القانون وبعض آخر ذو صلات وتواطؤات خفية، تسمح له بحرية حركة لافتة. فالحراك اذن، بدوافعه الحاضرة والمتجددة والمستجدة، والاحتمالات الموضوعية لاتساع قاعدته، تجعله مركزا معولاً عليه في عملية توحيد عمل القوى ذات المصلحة في الاصلاح والتغيير والطامحة اليهما، بعيدا عن الطائفية السياسية ولتحقيق البناء المدني الديمقراطي للدولة وتعزيز مرتكزاتها المجتمعية، ولوضع العراق على طريق التنمية المستدامة.

٤. الثقافة الجديدة:

كما معروف، شكل انعقاد المؤتمر والاحتفال العلني بافتتاحه وبحضور مجتمعي وسياسي واسع وملفت للنظر.. شكل حدثا نوعيا كبيرا وحظي باهتمام وتقدير اوساط سياسية واجتماعية وثقافية واسعة، وخلق ديناميكية جديدة في المشهد السياسي العراقي.

سؤلنا المحدد هنا هو: ما هي خطواتكم العملية لتوظيف هذا الزخم الكبير والرصيد الثري من أجل تعزيز مواقع الحزب وزيادة تأثيره في اوساط المجتمع وخصوصا ان الانتخابات العامة مواعيدها على الابواب؟

رائد فهمي:

هناك كما ألمحتم في سؤالكم اشارات متوالية ومتزايدة، تنطلق من اوساط ودوائر متنوعة تمتد على مساحة واسعة من المجتمع، وتعبر عن نظرة احترام وموقف ايجابي إزاء الحزب وسياسته ومواقفه ورموزه من جهة، ومن جهة أخرى إزاء القيم والأهداف والحلول التي يطرحها المشروع المدني الديمقراطي بمفرداته وعناوينه المختلفة. وليس من باب المبالغة والرغبوية أن نرصد في هذه الرسائل المنبعثة من المجتمع، مؤشرات امكانيات أكبر للقوى المدنية الديمقراطية، لأن تحصل على نتائج أفضل في الاستحقاقات الانتخابية القادمة لمجالس المحافظات ولمجلس النواب.

ويبدو أن هذا التشخيص لم يغب عن القوى المتنفذة حاليا، والتي راح بعضها يسارع لتحصين مواقعه بالتحرك في اتجاهات مختلفة، لا سيما عبر محاولات تمرير قانون انتخابات غير عادل يضمن استمرار هيمنته، ويزيد من معوقات دخول قوى جديدة إلى المجالس المنتخبة؛ تحمل مشروعا مدنيا بديلا عن الطائفية السياسية، وتدعو إلى نهج المواطنة، بدلا من نهج المحاصصة الطائفية والإثنية.

في ضوء هذا بات واجبا على القوى والأحزاب والقوى والشخصيات المدنية الديمقراطية، أن توحد عملها وتكثف جهودها المشتركة، كخطوة أولى نحو تعديل المنظومة الانتخابية وجعلها أكثر عدلا وإنصافا وشفافية. ونقصد بذلك العمل من أجل افشال محاولات تمرير تعديلات على قانون الانتخابات والنظام الانتخابي لمجالس المحافظات، تضيّق من قاعدتها التمثيلية وتقصي

القوى والشخصيات غير المنضوية تحت ائتلافات الكتل الكبيرة، القائمة بالأساس وفي الجوهر على الانتماء الطائفي والاثني. وهذا ما يرشح من معلومات عن السعي الى رفع قيمة معامل القسمة في نظام سانت ليغو لانتخابات مجالس المحافظات من واحد إلى ١،٧ وتقليص عدد اعضاء مجالس المحافظات إلى النصف، بحجة التخلص من الترهل في قوامها، والذي تتحمل مسؤوليته القوى المتنفذة ذاتها عندما وجدت فيه مصلحة لها.

ولعل التحدي الأكبر الذي يواجه الطيف الواسع للقوى والشخصيات المدنية الديمقراطية، هو تجاوز حالة التبعثر والتشتت في صفوفها، وخلق ديناميات تدفعها الى مزيد من التعاون والتنسيق والاتحاد في خطابها وحركتها وعملها، والى بلورة الاولويات في مطالبها وأهدافها كي يتم تركيز وتكثيف الجهود لتحقيقها.

ونحن نعتقد استنادا الى التجربة التاريخية للحركة الوطنية والديمقراطية، ان في تعافي الحزب الشيوعي وتعزز حضوره واتساع تأثيره ونفوذه، قوة لعمل القوى والأحزاب والشخصيات المدنية الديمقراطية، وزخما اضافيا لحركتها ونشاطها، ورافعة لحضورها وتأثيرها السياسيين في المجتمع.

وانسجاماً مع هذه الرؤية، اطلق الحزب نداءاته الثلاثة، الموجهة الى الرفاق المنقطعين عن الحزب لإعادة الصلة بهم، وللقوى والشخصيات المدنية الديمقراطية للقاء والتحاور من اجل تذليل معوقات التعاون وللتنسيق وتوحيد الجهود. ويبدي الحزب استعداده للانفتاح والتفاعل الايجابي مع اي مسعى أو مبادرة تصب في هذا الاتجاه، كما أنه عازم على المبادرة من جانبه الى الترجمة العملية لما ورد في النداءات. ويأتي في السياق نفسه النداء الثالث للمؤتمر الوطني العاشر، الموجه إلى المثقفين حاملي مشعل الفكر والثقافة التنويرية، دعما وإسنادا لدورهم في نشر الثقافة والأفكار والمفاهيم والقيم، التي تؤسس للمشروع السياسي والاجتماعي – الاقتصادي للقوى المدنية الديمقراطية.

وقد تبنى المؤتمر ايضاً وثيقة "مشروع التغيير نحو دولة مدنية ديمقراطية اتحادية وعدالة اجتماعية"، وسيقوم الحزب بتوزيعه على نطاق واسع ويطلق حوله نقاشات وحوارات مع القوى والأحزاب والمنظمات والشخصيات ضمن التيار المدني الديمقراطي. كما سيكون المشروع مطروحا للنقاش العام خارج التيار، في ندوات عامة او في لقاءات على نطاق أضيق.

وبموازاة هذا التحرك، سيكون الحزب مبادرا ومساندا ومشجعا لكل حراك وحملة وفعالية ذات طابع جماهيري عام، أو لمصلحة مطالب فئوية مشروعة وعادلة. ويندرج ضمن إطار مكافحة آفتي الإرهاب والفساد، ويهدف إلى تحقيق الإصلاحات السياسية والاقتصادية الجذرية، المنسجمة مع المشروع المدني الديمقراطي. إذ يسهم ذلك ليس فقط في زيادة الضغط لتحقيق المطالب المشروعة، وإنما يساعد أيضاً في إيجاد أشكال ملموسة من التعاون والتنسيق الميدانيين بين القوى المدنية الديمقراطية وأنصارها ومؤيديها، مما يعزز المساعي لتوحيد عملها وخلق ظروف انسب لإقامة الائتلافات الانتخابية.

وستتجلى الوجهة العامة لعمل الحزب ومنظماته وأصدقائه، في تكثيف الجهود وتطوير أساليب العمل في اتجاه مزيد من

الانفتاح والتواصل والحضور الجماهيري، والمشاركة في الحراك الشعبي بأشكاله المتنوعة وعلى مختلف الصعد، والاقتراب أكثر من الناس، خصوصاً في أوساط الشغيلة والكادحين وذوي الدخل المحدود في المناطق الشعبية في المدن والريف.
سيكون عملنا مركزا على ترجمة هذه التوجهات إلى مبادرات وفعاليات ونشاطات ملموسة، وفقا لظروف كل محافظة وكل منطقة.

٥. الثقافة الجديدة:

تضمن برنامج الحزب الجديد الذي صادق عليه المؤتمر الوطني العاشر وكذلك التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر، تحليلا معمقا لطبيعة التطور الاقتصادي للبلاد وملامحه الأساسية، راهنا ومستقبلا، ومن بينها الطابع الرأسمالي للاقتصاد حيث "التوازنات الداخلية والدولية الدافعة بقوة لصالح التطور الرأسمالي بصورته الليبرالية الجديدة الأكثر غلوا". كما أشار البرنامج، وطرح سبل مواجهة ذلك عبر توليفة من الإجراءات من بينها ضرورة اعتماد تنمية متوازنة ومستدامة.. الخ من الأطروحات التي تستحق وقفة. ثمة سؤال من شقين يطرح نفسه هنا:
– هل يمكن الحديث عن "تنمية مستقلة" ذات مضمون رأسمالي في ضوء ظروف بلادنا التي تحتل موقعا تابعا ضمن الاقتصاد الرأسمالي العالمي، وتندمج بشكل متعاظم في التقسيم الدولي الرأسمالي المعاصر للعمل؟ وكيف يمكن "تجنيب شعبنا مصائب رأسمالية وحشية وانجاز الأهداف ذات الطابع الوطني والديمقراطي"؟
– ومن جانب آخر ثمة إشكالية تتعلق بـ "الأفق الاشتراكي" المطروح في الوثيقة البرنامجية وهو: كيف يمكن حل التناقض، على الصعيد النظري والسياسي العملي، بين الإمكانية النظرية للانتقال المستقبلي نحو الاشتراكية، بصيغة جديدة طبعا، وبين الضرورة الملحة الراهنة للمرور القسري بالرأسمالية بهدف الاستفادة من الإمكانيات التي تمتلكها لتطوير القوى المنتجة؟

رائد فهمي:

لا يمكن الحديث عن تنمية مستقلة في ظل الاقتصاد الرأسمالي المعولم الراهن. مثل هذه التنمية كان ممكنا عندما كانت توجد بلدان المنظومة الاشتراكية في القرن الماضي، حيث كانت تتوفر إمكانية إقامة علاقات اقتصادية خارجية ومبادلات تجارية مع الدول الاشتراكية، بصورة مستقلة نسبيا عن السوق الرأسمالية الدولية. ولم تعد مثل هذه الإمكانية متاحة في الوقت الذي قامت فيه العولمة الرأسمالية بدمج اقتصادات الدول، التي كانت تصنف ضمن الدول النامية، بالاقتصاد الرأسمالي العالمي في ظل تقسيم عمل دولي جديد، تحتكر فيه الدول الرأسمالية المتقدمة الصناعات ذات المحتوى العلمي والتكنولوجي العالي، وترحل الصناعات كثيفة العمالة إلى هذه البلدان مع توجيه السلع التي تنتجها لتغطية الطلب في اسواق البلدان الرأسمالية المتقدمة.
وفي العراق الذي يمر بمرحلة انتقالية من ابرز سماتها تفكك قطاع الدولة الذي كان مهيمنا في ظل النظام المباد، نتيجة الحروب المدمرة وأعمال التخريب والنهب التي طالت مؤسساته الإنتاجية، إلى جانب التوجه العام نحو خيارات

السياسة الاقتصادية للدولة بعد التغيير، والتي رسمت معالمها سلطة الاحتلال التي كانت ترمي إلى تطبيق وصفة الانتقال إلى اقتصاد السوق بالصدمة، عبر إجراءات سريعة وقاسية بتصفية الشركات المملوكة للدولة أو خصخصتها، وإزالة كافة القيود والضوابط التي تنظم التجارة الخارجية، وفتح الحدود أمام حرية انتقال السلع والخدمات، ما أدى عمليا إلى الإسراع في انهيار الصناعات الوطنية، وانحسار الإنتاج الزراعي بسبب عدم قدرته على المنافسة، وغزو المنتجات المستوردة للأسواق العراقية. وفي أثناء ذلك اتبعت دول الجوار ودول مصدرة أخرى سياسة إغراق السوق العراقية بسلع واطئة النوعيات، وبعضها غير مطابق للمواصفات ونافد الصلاحية.

من جانب آخر أدى الانهيار في مؤسسات الدولة الذي أعقب الاحتلال وسقوط النظام الدكتاتوري، إلى تعطل تنفيذ قانون العمل وتعليماته، كما تهاوت أجهزة الرقابة على السوق، فيما توقف معظم المؤسسات الإنتاجية المملوكة للدولة أو تقلص إنتاجه إلى حد كبير، بسبب تقادم ماكنته الإنتاجية وضعف الصيانة فيه وعدم القدرة على تسويق منتجاته. فارتفعت معدلات البطالة من جهة، وأطلقت يد رب العمل في استغلال العمال والعاملين لديه، نظرا لضعف أو شبه غياب الحماية، التي توفرها تشريعات العمل والضمان الاجتماعي.

ورغم أن الوصفة الليبرالية المتطرفة التي كانت إدارة بريمر تنوي تطبيقها، لم تتحقق بفعل المقاومة التي واجهتها وبسبب ضعف القطاع الخاص العراقي وعزوف الرأسمال الأجنبي عن دخول السوق العراقية بقوة، نظرا لارتفاع مخاطرها الناجمة عن الوضع الأمني وبيروقراطية الإدارة الخانقة والفساد، إلا أنها أنتجت في النهاية اقتصاداً هجيناً ومشوهاً وذا طابع ريعي مفرط، جمع مساوئ اقتصاد مركزي بيروقراطي دولتي، واقتصاد سوق غير منظم ذي سمات مافيوية.

وفي ظل موازين القوى غير المؤاتية السائدة، وتعطل وشلل الأنشطة الإنتاجية وما ترتب عليهما من ضعف الحركة العمالية والتنظيمات النقابية، ونظرا لكون الحزب والقوى الديمقراطية والتقدمية ما تزال منهمكة في إعادة بناء صفوفها بعد عقود من المنع والقمع والملاحقة، فقد كان توجه الحزب يركز على تجنيب شعبنا وشغيلته الآثار المدمرة لفرض سوق رأسمالية منفلتة، تسودها شريعة الأقوى والممارسات المافيوية.

لهذا وضع الحزب في مقدمة أولوياته الدفاع عن الشركات المملوكة للدولة وحقوق العاملين فيها، وإعادة تأهيلها ومقاومة خطط خصخصتها. وبصورة اعم عمد إلى المطالبة بتنظيم السوق وتوفير الدعم والحماية للصناعة المحلية والمنتج الوطني، عبر تشريع حزمة من القوانين وتطبيقها الفعلي، مع التشديد على سن منظومة تشريعات ضمان اجتماعي، تشمل العاملين في الدولة والقطاع الخاص وتشمل التأمين ضد المخاطر التي ترتبط بالبطالة والمرض والشيخوخة. كما قدم ويقدم كل الدعم والإسناد الممكنين للحركة النقابية والاتحادات العمالية، وللتطبيق الفعلي لقانون العمل، وإلغاء تشريعات النظام الدكتاتوري التي تمنع التنظيم النقابي في معامل قطاع الدولة.

وعلى صعيد السياسة الاقتصادية العامة للدولة يعمل الحزب من أجل الحفاظ على

قطاع الدولة وتحديثه وتطوير إدارته ورفع إنتاجيته، وتشجيع الشراكات بين قطاع الدولة والقطاع الخاص المحلي والأجنبي على أسس سليمة، ويقف ضد خصخصة قطاع الخدمات العامة، وفي مقدمتها الصحة والتعليم وإنتاج الكهرباء، ويطالب بمنح هذا القطاع الأولوية في التخصيصات المالية، نظرا لأهميته في تأمين العيش الكريم والحد الأدنى من العدالة الاجتماعية.

ولأجل تأمين مقومات التنمية المستدامة وتوفير فرص العمل، وتقليص الاعتماد على الاستيراد من الخارج

وتحقيق قدر من الاستقلال في توفير الاحتياجات الأساسية للاقتصاد الوطني والأمن الغذائي، يدعو حزبنا إلى تنويع القاعدة الإنتاجية للاقتصاد الوطني وتقليص الاعتماد على النفط، وتنمية قطاعات الصناعة والزراعة والخدمات المساندة للعملية الإنتاجية. وعلى صعيد القطاع النفطي ندعو إلى تصنيع النفط والحد من تصديره كنفط خام، وتطوير إنتاج المشتقات النفطية وإنشاء المصافي والصناعات البتروكيمياوية. وفي هذا السياق، نؤكد ضرورة مراجعة عقود الخدمة لجولات التراخيص، لتخليصها من الثغرات التي سمحت بالمبالغة في النفقات وفي رفع تكاليف الإنتاج. كما ينبغي الاستفادة منها لتطوير قدرات الكوادر النفطية العراقية في مختلف المجالات، ما يتيح للعراق المضي في تنفيذ إستراتيجية الاستثمار الوطني المباشر.

وان من ابرز مظاهر السوق المنفلت وضعف أجهزة الدولة التنظيمية والرقابية، وثمارهما المرة، استشراء الفساد ونهب المال العام، وشيوع الممارسات والنشاطات الاقتصادية والمالية غير المشروعة، كالتهريب وتبييض الأموال وغيرهما من الأنشطة والممارسات التي سمحت بتكوين إمبراطوريات مالية وظهور حيتان المال والفساد، وتعمق الاستقطاب بين من يملكون الثروات الطائلة، وملايين المعدمين والمهمشين. لذا يولي الحزب اهتماما مكثفا لمحاربة الفساد، وللبناء السليم للدولة على أساس المواطنة والعدالة بعيدا عن نهج المحاصصة. وهو يشارك بصورة فاعلة في الاحتجاجات الشعبية والنضالات الجماهيرية لتحقيق هذه الأهداف والمطالب.

ان حزمة السياسات هذه لا تؤدي إلى تغيير طبيعة النظام ذي التوجه الرأسمالي، وإنما توفر قدرا من الحماية وضمانات العيش الكريم لجماهير الشغيلة ولأوسع القطاعات الشعبية الضعيفة الدخل والمهمشة، ولشرائح واسعة من الفئات الوسطى التي تصنف طبقيا ضمن البرجوازية الصغيرة.

أما بشأن الأفق الاشتراكي في برنامج الحزب، فيتطلب الأمر التوقف بعمق عند شروط وممهدات الانتقال إلى الاشتراكية، وعند خصائص وطبيعة النظام الاشتراكي الذي ننشده. وقد أولى الحزب اهتماما كبيرا لدراسة أسباب انهيار تجربة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وفي بلدان أوروبا الشرقية، كما انه يتابع التجربة الاشتراكية في الصين ونجاحاتها المتحققة بفضل تطبيق مفهوم ونظرية السوق الاشتراكي دون إغفال التعقيدات الناجمة عن الآثار السلبية لفعل آليات السوق والاندماج في السوق الرأسمالية العالمية كظهور التمايزات الحادة في الدخل والثروة والتفاوت في مستويات ومعدلات النمو والتنمية مناطقيا وقطاعيا وبروز

الظواهر والسلوكيات الضارة وفي مقدمتها الفساد. فإلى جانب النجاحات التي يحرزها هذا الطريق في بناء وإدارة الاقتصاد الاشتراكي، يطرح عدداً من الإشكاليات على صعيد تحقيق الانسجام والتوافق المطلوب بين بناء النظام السياسي والدولة التي يقودها الحزب الشيوعي الصيني، وبين التعددية في النظام الاقتصادي وما تفرزه من تمايزات وتناقضات على صعيد المجتمع والفكر والثقافة.

وان أهم الاستنتاجات التي استخلصها الحزب من دراسة هذه التجارب، هو أن الاشتراكية لا تحقق كل أفضلياتها من دون أن يوفر النظام الاشتراكي في ظلها ديمقراطية، تتجاوز الديمقراطية البرجوازية، بأشكالها السائدة في البلدان الرأسمالية المتقدمة، وذلك باعتماد آليات ومنظومات فكرية وقيمية تتميز عن الديمقراطية البرجوازية بمضامينها الطبقية الصريحة، والمتجسدة في مؤسسات تشريعية وتنفيذية على مختلف المستويات، تضمن المشاركة الفعلية للشغيلة ومنتجي الثروات المادية والثقافة والفكر والعلم في إدارة شؤون الدولة والمجتمع.

والدرس الآخر هو عدم تزكية التجارب الماضية لأطروحة حرق مراحل التطور التاريخي، وضرورة توفير الممهدات المادية للانتقال إلى مرحلة أرقى، أي المستوى المتقدم من تطور القوى المنتجة وعلاقات الإنتاج والوعي الاجتماعي والثقافة، لا سيما في ظروف غياب القطب الاشتراكي الذي يتيح مثل هذه الإمكانية بالمساعدة والدعم اللذين يقدمهما. وقد وضعت تجارب البناء الاشتراكي التي فشلت موضع تساؤل إمكانية بناء الاشتراكية من فوق، عبر الإمساك بالسلطة السياسية، لذا لا يبدو الانتقال إلى الاشتراكية ممكنا ما لم تتوافر الشروط سالفة الذكر بالاقتران مع امتلاك السلطة السياسية.

ومن الواضح أن في ظروف العراق لا يتوفر أي من الشروط أعلاه في الوقت الراهن، وصعوبة توفره في الأفق القريب. ولا شك ان النجاح في تطبيق المشروع الوطني والمدني الديمقراطي، بمضامينه السياسية والاجتماعية – الاقتصادية والثقافية، سيساهم في تقريب هذا الأفق.

٦. الثقافة الجديدة:

لنتوقف أيضا أمام بعض الصياغات الجديدة التي تضمنها النظام الداخلي، والتي ارتبطت بمجموعة من المقولات والمفاهيم، التي تعرضت الى تغيرات أو تعديلات. فإذا كانت المفاهيم تصاغ لتعبر عن حالات من الوجود التاريخي الملموس، فان صياغة أي مفهوم أو إعادة النظر فيه أو في حقل دلالته على وجه الدقة، تقتضي الإحاطة بموضوع المفهوم وبالمرحلة التاريخية، التي يتجه المفهوم الى التعبير عنها والإمساك النظري بها.

وهنا نطرح السؤال الآتي: هل بالإمكان اطلاع القرّاء على مضمون النقاشات التي دارت حول النظام الداخلي وابرز التدقيقات في هذا المجال؟

رائد فهمي:

إن أشكال وأساليب وآليات التنظيم لا بد ان تكون مواكبة للتطورات المستجدة في الظروف وفي الأحوال السياسية والإدارية للدولة، ومتفاعلة مع التغييرات في الواقع الاجتماعي – الثقافي، ولا بد أن تحسن الاستفادة من التقدم المتسارع في أدوات

ووسائل الاتصال والتواصل في كلا الفضاءين الحقيقي والافتراضي، بفضل تقنيات الاتصال والمعلومات الحديثة. وان حزبنا يعمل بصورة متواصلة على فحص وتقييم نظامه الداخلي وآليات عمله التنظيمي وإعادة النظر فيها، بهدف الارتقاء بفاعليتها وتعزيز الديمقراطية داخل الحزب وتيسير وتنشيط عملية التجدد والتجديد في هيئاته القيادية على جميع المستويات، مع ضمان المواءمة والتواصل والمراكمة بين رصيد الخبرة والتجربة وتدفق الدماء الشابة في عروق وقنوات التنظيم الحزبي، لتزيده حيوية وتوثبا في نضاله اليومي متعدد الأشكال وفي توسيع وتعميق صلته بالجماهير، وبما يجسد بصورة ملموسة هوية الحزب الطبقية والوطنية.

وان المناقشات حول مسودة مشروع النظام الداخلي داخل الحزب ومن خارجه، والتي نشرت في منابر الحزب العلنية أيضا، تناولت محاور وموضوعات عديدة يمكن تلخيصها في أبرزها المتمثلة بالعناوين الآتية: تطوير آليات الدمقرطة والمشاركة والتجديد في الحياة الداخلية؛ الأخذ بعين الاعتبار التطورات في الواقع الإداري – السياسي للدولة العراقية؛ تحقيق التطوير والتحديث في أساليب وأشكال عمل الحزب داخليا وفي النشاط والتواصل مع الجماهير، بما يرفع من قدرات تنظيمات الحزب وأدائها في مجال النشاط الانتخابي من جهة، وكتنظيم سياسي ذي هوية طبقية واجتماعية متميزة، يحمل مشروعاً لتغيير الواقع السياسي والاجتماعي – الاقتصادي نحو دولة مدنية ديمقراطية اتحادية، والتصدي لمختلف أشكال الاستغلال وللسياسات والمصالح التي تدفع باتجاه نشاط منفلت لقوى السوق، من شأنه تشديد قبضة الفئات والشرائح البرجوازية الطفيلية والكومبرادورية والبيروقراطية على الاقتصاد العراقي، وتعميق الاستقطاب بين فئة قليلة فاحشة الثراء وأكثرية تعاني من الفقر والعوز وضنك العيش.

وقد خلصت مناقشات المؤتمر العاشر إلى إقرار تعديلات بعضها ذو طابع جوهري؛ كالذي شمل آلية العلاقة بين الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الكردستاني، بما لا يتعارض مع أحكام قانون الأحزاب السياسية الساري المفعول اليوم، وانسجاما مع التطورات في الجوانب الإدارية – السياسية للدولة العراقية. وقد أوكل المؤتمر إلى اللجنتين المركزيتين للحزبين مهمة تنظيم آلية للعلاقة تنسجم مع هذه التطورات، وعلى أساس المشتركات المتمثلة في المصالح الطبقية والوطنية والهوية الفكرية والروح الأممية والتاريخ النضالي المشترك.

كما اقر المؤتمر مبدأ عدم تجديد انتخاب سكرتير اللجنة المركزية لأكثر من دورتين متتاليتين وتثبيت بعض آليات العمل القيادي التي تحقق مزيداً من المشاركة الجماعية في قيادة مفاصل عمل الحزب المختلفة، إلى جانب تعزيز دور لجنة الرقابة المركزية. كما تم إجراء تدقيقات في صياغات بعض مواد النظام الداخلي وتعديلات في ترتيب مواده.

٧. الثقافة الجديدة:

وارتباطا بالسؤال السابق فإن من بين القضايا الجديدة التي طرحها المؤتمر وتبناها وثبتها في النظام الداخلي الجديد هو طبيعة العلاقة بين الحزبين: الشيوعي

العراقي والشيوعي الكردستاني عبر تحريك آلية العلاقة التي كانت تربطهما منذ أكثر من عقدين، لتأخذ بالاعتبار التطورات الإدارية التي تشهدها البلاد وكذلك الضوابط المثبتة في قانون الأحزاب الجديد الذي صادق عليه البرلمان العراقي قبل فترة. هل يمكنكم أن توضحوا للقراء الخلفيات وراء هذا التحول في موقف الحزب من هذه القضية، وما هي دلالاته النظرية والسياسية العملية؟ وهل بالإمكان توسيع النقاش لتوضيح الموقف بشأن الصيغة الجديدة بما يتيح تجاوز الجدل المحكوم بفكرة الخنادق المتقابلة والانتقال الى التوصل لفهم المغزى الفعلي لهذا التحول؟

رائد فهمي:

ينص قانون الأحزاب والتنظيمات السياسية رقم ٣٦ لعام ٢٠١٥ في المادة (٤) ثالثاً على انه "لا يجوز أن ينتمي أي مواطن لأكثر من حزب أو تنظيم سياسي في آن واحد". ونظراً لقيام كل من الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الكردستاني بتقديم طلب إجازة إلى دائرة الأحزاب السياسية في مفوضية الانتخابات المستقلة، فقد اقتضى تكييف النظام الداخلي للحزب مع متطلبات وشروط القانون. ولهذا السبب تم ادخال التدقيقات والتعديلات الضرورية على النظام الداخلي، علماً أن المشاركة في انتخابات مجالس المحافظات ومجلس النواب على المستوى الاتحادي وعلى صعيد إقليم كردستان تشترط أن يكون الحزب مجازاً. إن التعديل في آلية العلاقة بين الحزب الشيوعي العراقي والحزب الشيوعي الكردستاني، كان مبعثه الأساسي تحقيق الانسجام مع ضوابط القانون. كما أخذ التعديل بعين الاعتبار التطورات الجارية والمحتملة مستقبلا في البناء الإداري – السياسي للدولة العراقية، وأعطى مزيداً من المرونة للحزبين في تحديد شكل آلية العلاقة ومفرداتها، بناءً على الأسس والمبادئ السياسية والفكرية المشتركة المحددة لهوية الحزبين، وامتداداً لمسيرة النضال الطبقي والوطني المشترك. وان دوافع التغيير هذه لا تمثل تحولا سياسيا وفكريا في مواقف الحزبين، وإنما تمثل تغييرا في الصيغ التنظيمية المعبرة عن مضمون العلاقة التي تربط بينهما، مثلما تم تثبيتها في المادة الخاصة بآلية العلاقة بين الحزبين في النظام الداخلي. وقد تم التوقف خلال المناقشات عند نقاط القوة والضعف في الآلية التي كانت معتمدة خلال السنوات الماضية، للاستفادة من الدروس والاستنتاجات المستخلصة عند قيام اللجنتين المركزيتين بوضع آلية جديدة لتنظيم العلاقة، حسب ما نص عليه النظام الداخلي. وقد تم الشروع بذلك فعلا، وتقوم اللجنتان المركزيتان حاليا بمناقشة مقترحات متكاملة بهذا الخصوص.

٨. الثقافة الجديدة :

قامت هيئات الحزب العليا في المؤتمرات الوطنية، والمجالس الحزبية المركزية التي تلت انعقاد المؤتمر الوطني الخامس بإجراء تقييم لمسيرة الحزب، ومدى تطبيقه لعملية الديمقراطية والتجديد، وتشخيص المشاكل والعقبات التي تواجهها، والسبل المفضية إلى معالجتها وتجاوزها. وأشارت العديد من الوثائق الحزبية الصادرة عن الفعاليات المركزية إلى أن حصيلة التجربة خلال الفترة،

التي تلت انعقاد المؤتمر الخامس ولحد الآن بيّنت أن عملية التجديد وترسيخ الديمقراطية هي عملية عسيرة ومعقدة، بسبب بعض المفاهيم النظرية المشوهة، وقوة العادة وما تركته التقاليد والممارسات السابقة من آثار يصعب تجاوزها بسهولة وبفترة زمنية قصيرة. هذا إلى جانب التأثير السلبي للظروف الموضوعية في بلادنا، وعموم الأجواء المحيطة بعمل الحزب، ومستوى التطور الحضاري والاقتصادي والاجتماعي والثقافي للبلاد ومستوى الوعي الاجتماعي المتدني عموما.

إن ما تحقق، على أهميته، ليس إلا خطوات أولى على طريق طويل، ومسيرة متجددة ذات متطلبات متنوعة.

و في ضوء ذلك، فان الحاجة ملحة إلى مواصلة عملية الديمقراطية والتجديد وتنشيطها وتعميقها، بالشكل الذي يرسخها ويجعلها ظاهرة ثابتة في حياة الحزب ومسيرته. وفي المقابل فان مواصلة عملية الديمقراطية والتجديد لا تنسجم مع الفوضى والعفوية، وكل ما يشيع الإرباك والجدل العقيم الذي لا يستند إلى الواقع الموضوعي وملموسياته وحاجاته الفعلية. فهذه العملية ليست تهويمات وقفزاً في المجهول، ولا سعيا الى صراعات لا أساس لها في الواقع.

يهمنا، رفيقنا العزيز (أبو رواء)، ان نسمع تعليقكم على هذه الخلاصات بمزيد من التفصيل.

رائد فهمي:

كان المؤتمر الوطني الخامس للحزب المنعقد عام ١٩٩٣ قد أطلق عملية ديمقراطية وتجديد، شملت الفكر والتنظيم والممارسة، ووجدت تعبيرها في تغييرات وتعديلات أدخلت على برنامج الحزب ونظامه الداخلي، كما انعكست في خطابه السياسي وممارسته العملية.

وجاء اختيار نهج الديمقراطية والتجديد من قبل الحزب في ظرف زمني وتاريخي مفصلي بالنسبة للحركة الشيوعية والعمالية العالمية، اثر انهيار تجربة البناء الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي وفي بلدان اوروبا الشرقية، وانعكاسات وتداعيات ذلك الحدث الجسيم على الأحزاب الشيوعية التي استوحت من تجارب الاشتراكية الفعلية أو القائمة، كما كان يطلق عليها، فكرها وبرامجها وأشكال تنظيمها ومشروعها لبناء الاشتراكية في بلدانها. وقد دفعت هذه التطورات الأحزاب، إلى جانب عوامل أخرى خاصة بظروف عمل كل حزب في بلده وبأوضاعه الداخلية، إلى إجراء عملية تقييم ومراجعة شاملة لفكرها وبرامجها وبنائها التنظيمي، في ضوء الدروس التي استخلصتها من فشل التجربة الاشتراكية في هذه البلدان ومن تقييم أوضاعها الخاصة، وبالارتباط مع الآثار المترتبة على التغيير في موازين القوى العالمية، الناجم عن انهيار القطب الاشتراكي والذي كان السند والرافعة الرئيسية في النضال ضد الامبريالية والرأسمالية وأنظمتها السياسية.

وفي هذا السياق التاريخي، اختار البعض من الأحزاب الشيوعية التخلي عن هويتها الشيوعية، فغيرت أسماءها وبرامجها وأنظمتها الداخلية ومرجعياتها الفكرية وانتقلت إلى مواقع الاشتراكية الديمقراطية، وذهب بعضها إلى الارتداد عن الأفق الاشتراكي كليا، وتبنى البعض الآخر موقفا محافظاً وقرر الإبقاء على

وضعه، معتبرا ما حدث في الإتحاد السوفييتي وأوروبا الشرقية مؤامرة دبرتها الدول الامبريالية وأجهزة مخابراتها، وتواطؤ أو خيانة بعض قيادات الأحزاب والدولة في الاتحاد السوفييتي والبلدان الاشتراكية الأخرى. وبالتالي ليس ثمة ما يدعو إلى إجراء تعديلات أو تغييرات في برامجها وأنظمتها الداخلية، أو أي تجديد في المجال النظري والفكري. أما الخيار الثالث الذي تبناه عدد من الأحزاب الشيوعية، ومنها حزبنا – في مؤتمره الوطني الخامس سابق الذكر، فهو الحفاظ على هوية الحزب الفكرية والسياسية الشيوعية مع تجديدها، بالاقتران مع إطلاق عملية توسيع وتعميق الديمقراطية في بنائه التنظيمي.

ولم يكن هذا الخيار بسيطاً ولم يأت من دون مناقشات طويلة وواسعة انعكست في منابر الحزب الإعلامية المختلفة، وطرحت خلالها جميع الأفكار والبدائل بحرية، ومن بينها تغيير اسم الحزب ومرجعيته الفكرية وبرنامجه ونظامه الداخلي، وأخذا بالاعتبار كذلك الظروف بالغة الصعوبة التي كان يمر بها الحزب، نتيجة اضطرار معظم كوادره في حركة الأنصار إلى مغادرة كردستان والتوزع على المنافي في مختلف أرجاء العالم، إلى جانب البلبلة الفكرية والإحباطات المتولدة عن التراجعات والانكسارات وتضبب رؤية اتجاهات التطور مستقبلا، اثر الانهيارات التي شهدها المعسكر الاشتراكي والضربات القاسية التي تلقاها الحزب.

لقد شمل التجديد المجال الفكري؛ ففيما أكد الحزب اعتماده الفكر الماركسي مرشدا في كفاحه وفي مجمل سياسته وتنظيمه ونشاطه، فانه حرص على أن يكون التعامل مع هذا الفكر منسجما مع جوهره الثوري والعلمي، الذي يواكب المستجدات في حركة التطور والتغيير في المجتمعات وفي مختلف مجالات الفكر والعلم والفلسفة والتكنولوجيا، إلى جانب التطورات البيئية، بعيداً عن القوالب الجامدة والدوغمائية. لذا أدرج ضمن مرجعيته الفكرية الأساسية التراث الاشتراكي عامة، وكل ما هو تقدمي في إرث وادي الرافدين والحضارة العربية الإسلامية. وفي المؤتمر الوطني العاشر أضاف الى ذلك دروس التجارب الاشتراكية. ولا شك أن الدوغمائية والتكلس النظري كانا من العوامل المهمة المسببة لفشل التجربة الاشتراكية السوفييتية، والتراجع في دور وتأثير الأحزاب الشيوعية في العقود الأخيرة الماضية. ومن المفيد هنا توضيح أن المقصود بالفكر الماركسي، هو منهجه المادي الجدلي، وجانبه النظري في الفلسفة، ونقد النظام الرأسمالي، وقوانين تطور المجتمعات والاقتصاد السياسي.

وعلى الصعيد السياسي واستنادا إلى الدروس المستخلصة، شدد الحزب على البعد الديمقراطي، سياسياً واجتماعيا، بمنظومة آلياته الانتخابية وبناء الدولة ومؤسساتها، والقيم المتعلقة بحرية التعبير والتنظيم وعدم التمييز، وحقوق المواطنة واحترام حقوق الإنسان والتنوع والتعددية وتداول السلطة، ونبذ فكر ونهج الحزب الواحد الشمولي في الدولة والمجتمع، إلى جانب تأكيد البعد الاجتماعي للديمقراطي المتمثل في توفير ضمانات العيش الكريم، وكما أسلفنا يشكل البعد الديمقراطي سمة رئيسة في الأفق الاشتراكي الذي يعمل الحزب من أجله.

وعلى صعيد التنظيم، تبنى الحزب في مؤتمراته المتتالية مجموعة تعديلات على نظامه الداخلي، عززت الأسس والآليات الديمقراطية في حياته الداخلية، حيث ألغى بعض المستويات والحلقات التنظيمية الوسطية بما يقرب المسافة بين الهيئات القيادية والهيئات القاعدية، واعتمد مبدأ انتخاب جميع الهيئات القيادية بالانتخاب السري وبالأغلبية المطلقة، وفسح مجالات أرحب للنقاش وحرية الآراء وتنوع الاجتهادات، مع احترام وحدة الحزب السياسية والتنظيمية وفي إطار وحدة المنطلقات الفكرية. وفي ضوء ما شاب بعض تطبيقات مبدأ المركزية الديمقراطية من إخلال بشقه الديمقراطي وتغليب للجانب المركزي، شددت التعديلات على ضمان النقاش الحر لكل الرفاق والرفيقات عند اتخاذ القرارات، وعلى حق الأقلية في الاحتفاظ برأيها والتعبير عنه في منابر الحزب الإعلامية، مع التزامها بتنفيذ القرارات التي تحظى بالأغلبية بما يضمن وحدة الإرادة والعمل.

ولم تتبنّ مؤتمرات الحزب الاطروحات الداعية إلى تعدد المنابر الفكرية داخله، لأنها لا تضمن وحدة العمل وبالتالي تنعكس سلبا على فاعليته النضالية، فضلا عن تأثيرات أخرى من شأنها تغيير طبيعة الحزب.

وكان موضوع تجدد وتجديد القيادات الحزبية على جميع المستويات يحظى بقسط وافر من المناقشة في جميع المؤتمرات الوطنية للحزب منذ المؤتمر الوطني الخامس. وتوزعت المواقف ما بين اتجاه يميل إلى المحافظة، اتخذ موقفا معارضا أو متحفظا عند طرح مبدأ تخصيص كوتا للشباب والنساء في الهيئات القيادية، وتقديم الشباب إلى مواقع المسؤولية القيادية، وبين موقف يدعو إلى اتخاذ خطوات اكبر بمضاعفة نسبة الكوتا للنساء والشباب، والإسراع في تقديم الشباب إلى مواقع القيادة وتحديد عدد دورات انتخاب سكرتير الحزب واللجنة المركزية والمكتب السياسي. ورأي ثالث مساند لمبدأ الكوتا ولزيادة نسبتها بصورة متدرجة تتناسب مع الطاقات والقدرات الشبابية المؤهلة المتاحة لإشغالها، وله موقف متحفظ تجاه تبني مبدأ تحديد عدد الدورات، لأنه يفترض توفر كوادر مؤهلة بأعداد كبيرة نسبيا وفي مختلف مفاصل التنظيم الحزبي، وذلك ما يجري العمل بشكل حثيث لتوفيره من خلال الدورات الحزبية المتعددة، والتوسع في زج الرفاق في مختلف حلقات النشاط القيادي، وتطوير وتوسيع عملية المشاركة في صنع القرارات ورسم السياسة، وغيرها من الخطوات والإجراءات الهادفة إلى تمكين أعداد متزايدة من الكوادر الشابة للنهوض بأعباء العمل القيادي.

وفي المؤتمر الوطني العاشر تحققت نقلة مهمة على صعيد التجديد في القيادة، وتم ذلك بفضل الجهود التي بذلت طوال السنوات الماضية لتمكين الكوادر الشابة فكريا وسياسيا وعلى صعيد الخبرة والتجربة النضالية. واقر المؤتمر مبدأ عدم انتخاب سكرتير الحزب لأكثر من دورتين متتاليتين.

الغرض من هذا الاستعراض هو تأشير الخطوات المهمة التي اتخذها الحزب على صعيد التجديد فكريا وتنظيميا، وتعميق الديمقراطية الداخلية.

ورغم أهمية ما تحقق والشوط الكبير الذي تم قطعه على هذا الطريق، بحيث يمكن أن نقول اليوم بثقة أن الحزب

الشيوعي العراقي هو أكثر الأحزاب في بلادنا ديمقراطية وشفافية في آليات عمله الداخلية وفي تشكيل واختيار هيئاته القيادية، فان الديمقراطية والتجديد لا يزالان في الوقت نفسه يواجهان معوقات، بفعل قوة العادة وتقاليد العمل التي لم تعد مناسبة، وبسبب مواقف فكرية واجتماعية غير صائبة. كما أن انتقال الحزب إلى العمل العلني بعد عقود من العمل السري ومن القمع والملاحقة في ظل الدكتاتورية، وضع نسبة مهمة من الرفاق والرفيقات أمام ظروف عمل جديدة، تتطلب اعتماد أساليب وطرق عمل مختلفة عن تلك التي خبروها في الماضي، ما يحول دون الاستفادة الكاملة للحزب من الفرص التي يتيحها العمل العلني، وبشكل خاص حين يتعلق الأمر بالانفتاح في مجال العمل الجماهيري والصلة بالناس. ولا يزال عدد غير قليل من مفاصل عمله وهيئاته يواجه ترددا في التعامل مع الشباب ومع النساء، وفي إيكال مهمات ومسؤوليات ذات طبيعة قيادية إليهم.

ومن التحديات المهمة التي تواجه الحزب، الارتقاء بعمل وأداء هيئاته وكوادره الوسطية، لأنها تلعب دورا مهماً في نقل ونشر سياسة الحزب، وفي تطوير عمل الخلايا وتنظيمات الحزب الأساسية ذات الصلة المباشرة بالجماهير، وعليها يتوقف إلى حد كبير انتقال عملية التجديد والممارسة الديمقراطية وأساليب القيادة الجماعية ومشاركة الرفاق في إدارة شؤون الحزب، إلى كل الحلقات والمفاصل التنظيمية، وتحولها إلى ممارسة يومية تسهم في إطلاق طاقات أعضاء الحزب، وفي الترجمة العملية لسياسة الحزب من خلال الصلة بالناس.

إن سير عملية الديمقراطية والتجديد خلال السنوات الماضية لم يجر بوتيرة واحدة. فقد صادفتها فترات توقف أو نكوص ارتباطا بالظروف الاستثنائية التي تعيشها البلاد، وفترات أخرى من التقدم والتسارع. لكنها لم تتوقف، وثمة إرادة ثابتة في أن تتواصل كعملية مستمرة وضرورية، طالما الواقع ذاته في تغير مستمر، والظروف المحيطة بالحزب وعمله متبدلة، وارتباطا بما تفرضه التغيرات السريعة في التطورات العلمية الحديثة وفي وسائل الاتصال الجماهيري وما تتيحه من إمكانيات لنسج صلات وعلاقات مع جمهور أوسع والتواصل معه مباشرة. لذا يجري العمل بصورة مكثفة لتذليل كل المعوقات والكوابح أمام عملية الديمقراطية والتجديد على مختلف المستويات.

٩. الثقافة الجديدة:

بلغت نسبة التجديد في قيادة الحزب ما يقارب الـ ٤٢٪، اضافة الى صعود مجموعة من الشباب ممن لا تتجاوز اعمارهم سن الثلاثين، وسؤالنا المحدد هنا ما هي قيمة هذا التجديد وكيف سيقوم الحزب في توظيف هذا الرأسمال البشري المتدفق حماسا والحامل للأفكار الجديدة؟ وهل لديكم خطة محددة في هذا المجال؟

رائد فهمي:

إن التجديد الذي تم في قيادة الحزب، ببعديه الكمي والنوعي، يمثل بكل المقاييس نقلة مهمة في التركيبة القيادية، وليس من الناحية العمرية حصراً. فالرفاق الشبان والشابات الذين تم انتخابهم إلى اللجنة المركزية، يمثلون أيضاً إضافات

نوعية سيكون لها دور مؤثر وبصمة في تطور وتوسع عمل الحزب اللاحق. ذلك ان لهم جميعا سجلات نجاح في ميادين النشاط الجماهيري، وفي مجالات العمل الحزبي التنظيمية والفكرية والإعلامية والتخصصية. كما ان معظمهم ينشطون في اطر اتحادات ومنظمات ديمقراطية، ومنظمات مجتمع مدني. وإلى جانب الخبرات آنفة الذكر، فان لهؤلاء الرفيقات والرفاق الشباب تكوينا فكريا وسياسيا متينا، عززته الدورات الحزبية المتعددة التي شاركوا فيها وتخرجوا منها بتفوق. والعديد منهم يلعبون دورا أساسيا في المختصة المسؤولة عن العمل الفكري في الحزب. فالجواب على الشق الأول من السؤال هو: نعم، هؤلاء الرفيقات والرفاق يمثلون قيمة مضافة مهمة للعمل القيادي للحزب.

طبيعي إن إحراز أي نجاح أو تقدم ذي شأن على طريق التغيير الذي ينص عليه شعار المؤتمر الوطني العاشر، والذي كان الخيط الناظم لجميع أعمال المؤتمر ولمضامين الوثائق السياسية الصادرة عنه، يشترط التعبئة الأشمل لجميع الطاقات النضالية والسياسية والفكرية في الحزب والتي يمتلكها رفاقه وأصدقاؤه، وبصورة أخص كوادره القيادية على جميع المستويات. ويجد هذا ترجمته، على صعيد اللجنة المركزية، في الارتقاء بعملها وأدائها وانجازها عبر التطبيق الحيوي لمبدأ القيادة الجماعية، وتولي جميع أعضائها مهمات قيادية محددة في مجال أو أكثر من مجالات العمل الحزبي، وبصورة مبكرة، مع تقديم الدعم والإسناد والتمكين الضروري للرفاق الجدد، لينهضوا بهذه المهمات على أكمل وجه.

وبفضل الخبرات والمؤهلات والمهارات الإضافية التي ضُمت إلى قيادة الحزب في المؤتمر الوطني العاشر، بات الحزب قادراً على أن يرتقي بنشاطه وأدائه في عدد من المجالات المهمة، في مقدمتها العمل الجماهيري والحراك الشعبي والنشاط الإعلامي بمفاصله وأشكاله المتعددة، ولا سيما في فضاء شبكات التواصل الاجتماعي. وسيكون للرفاق القياديين الشباب دور معول عليه في تطوير وتوسيع عمل الحزب بين الشباب، كما سيكون للرفيقات القياديات دور محوري في منح زخم أكبر لعمل الحزب ونشر الوعي السياسي والثقافي في صفوف النساء، وتحفيزهن على المطالبة بحقوقهن وإزالة كل مظاهر التمييز والقهر الذي يتعرضن له وزيادة مشاركتهن في الحياة العامة وفي تولي المسؤوليات العليا في الدولة.

١٠. الثقافة الجديدة:

يمكن القول أن البلاد تواجه في هذه المرحلة الصاخبة مشاريع طموحة ومتنوعة ومتضاربة لإعادة هيكلة الاقتصاد العراقي وتكييفه مع ما يعنيه ذلك من حراك اجتماعي، ومن تحوّلات طبقية ومن صعود فئات على حساب أخرى، تكون أساسا لنشوء رأسمالية وحشية ونهابة. هذا إضافة إلى أن الديناميكيات الجديدة التي نشأت بعد سقوط النظام الدكتاتوري في ٢٠٠٣/٤/٩ قد أحدثت هزة قوية في التناسبات المجتمعية، وبرزت تناقضات جديدة حول السلطة والثروة وبشأن الدولة والصراع حول شكلها ومضمونها، بين بنائها على أساس فيدرالي، وبين النزعة المركزية المفرطة، والدعوات للتفكيك وإعادة صياغتها على أسس طائفية – اثنية – قومية – مناطقية.

وبالمقابل يمكن القول إن مستقبل التغيير في بلادنا سيتوقف على النجاح في بلورة وعي جديد مختلف في تصوره للغايات الاجتماعية والقيم الأساسية والأولويات التاريخية. كما أن مستقبل الانتقال الديمقراطي لمجتمعنا يقترن بنشاط القوى المدنية والديمقراطية القادرة على إنتاج وترسيخ وعي جديد، وثقافة سياسية ديمقراطية بما يمكن من تجاوز الثقافة الشمولية والممارسات الشمولية. هل لكم رفيقنا العزيز (أبو رواء) من تعليق على هذه الموضوعات؟

رائد فهمي:

لا شك أن الوعي الاجتماعي يشكل ميدان منافسة وصراع شديدين بين الثقافة والفكر التنويري والحداثي المدني الديمقراطي، المنفتح على الثقافات الأخرى والمتطلع إلى المستقبل وإلى مواكبة التقدم المتسارع في الفكر والعلم والتكنولوجيا، والساعي إلى إشاعة ثقافة احترام التنوع الثقافي، وإلى النأي عن تسييس الهوية الثقافية وفصل المقدس عن السياسة وإعلاء شأن المواطنة والهوية الوطنية الجامعة، ونشر الديمقراطية كمنظومة سياسية فكرية ثقافية وقواعد بناء دولة وإدارتها، وإلى النظر للماضي والتراث بعين الحاضر وليس النظر إلى الحاضر بعين الماضي.. بين ذلك وبين ثقافة مهيمنة مشدودة إلى الماضي، تكرس الانغلاق على الهويات الأساسية وتغيب العقل وتختزل الدين إلى ممارسات طقوسية، وتقزم الديمقراطية إلى آليات تسمح للأكثرية ببسط سلطتها وتهميش الأقلية في ظل نظام الطائفية السياسية. ولإدامة هذه الهيمنة الثقافية توظف عشرات الفضائيات والقنوات والشبكات الإعلامية، إلى جانب دور آلاف بيوت العبادة والمنتديات، ودور المناهج الدراسية بمختلف مراحلها.

فالقوى المدنية الديمقراطية تخوض صراعاً غير متكافئ من حيث الموارد والوسائل، لكسب العقول لمشروعها السياسي والثقافي. ولكن رغم الإمكانيات الشحيحة والظروف الضاغطة، يزداد الإنتاج الثقافي والإبداعي ذو المضامين المدنية من قصة وشعر ومسرح ومعارض فنية ومهرجانات للقراءة يقيمها الشباب، فيما تتكاثر المبادرات والحملات دفاعا عن حرية التعبير وحقوق المرأة ومن اجل المواطنة والسلم الأهلي وضد الطائفية والتمييز وضد انتهاكات حقوق الإنسان.

ومع انطلاق الحراك الشعبي منذ سنة ونصف السنة ورفعه شعارات تدعو إلى الدولة المدنية الديمقراطية، تشهد بلادنا قبولا متزايد الاتساع للدولة المدنية، وللخطاب المدني ولرموزه السياسية والاجتماعية والثقافية. ولم يتحقق ذلك بفضل نشاط القوى المدنية فقط، بل ايضا بفضل فشل حكم قوى الطائفية السياسية في مختلف المجالات، وخذلانها جمهورها والمكونات التي تدعي تمثيلها، وتورطها في الفساد ومراكمتها ثروات طائلة مقابل انزلاق شرائح متزايدة إلى حافة الفقر وما دونها.

وفي هذه اللوحة المعقدة لواقعنا السياسي والاجتماعي – الثقافي، نجد حراكا سياسيا واجتماعيا يعضد الاستنتاج بان المشروع المدني الديمقراطي يمتلك أفقا واعداً.

–انتهى–

السيرة الذاتية لسكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
الرفيق رائد جاهد فهمي (ابو رواء)

- ولادة بغداد عام 1950
- متزوج وله اربعة ابناء

المؤهلات العلمية:

• دبلوم دراسات معمقة (D.E.A) في اقتصاديات التنمية، جامعة باريس 1، فرنسا 1984.
عنوان الرسالة: "استقلالية السياسة النقدية في بلد نفطي صغير."

• ماجستير علوم اقتصادية (Econ. MSc)، كلية كوين ماري، جامعة لندن، بريطانيا، 1977.

• بكالوريوس (Econ. BSc) اقتصاد قياسي واقتصاد رياضي. مدرسة لندن للاقتصاد L.S.E جامعة لندن – بريطانيا 1975.

• شهادة G.C.E كلية باث التقنية، بريطانيا 1972.

• بكالوريا الدراسة الثانوية، الاعدادية الشرقية، بغداد 1970.

الخبرة المهنية

أيار 2006 – كانون الاول 2010

وزير العلوم والتكنولوجيا – العراق.

1990 – 2005

• تدريس الاقتصاد والإدارة في مدارس ومعاهد فرنسا – وزارة التعليم الوطني – فرنسا.

• المشاركة في اعداد دراسات استشارية اقتصادية وسياسية حول العراق مع معهد دراسات استراتيجية 1990.

1990

• محلل مالي اقدم في شركة الكويت للاستثمارات الصناعية – الكويت.

1985 – 1987

• نشاط بحثي حول الاقتصاديات الريعية – الكويت نموذجاً – جامعة باريس 1/ السوربون.

• شريك ومدير في شركة تجارية فرنسية.

1985

• مساعد باحث في مركز التنمية التابع للمنظمة الاقتصادية للتعاون والتنمية O.E.C.D التي مقرها باريس.

1980 – 1983

• باحث اقتصادي في الدائرة الاقتصادية لبنك الكويت الصناعي – الكويت.

• المشاركة في إعداد دراسات استشارية اقتصادية مع مكتب استشاري متخصص حول القطاع العقاري في الكويت والسعودية.

1979 – 1980

• باحث اقتصادي وإداري في رئاسة جامعة الكويت.

• باحث اقتصادي في مؤسسة التأمينات الاجتماعية في الكويت.

1977 – 1978

• باحث اقتصادي في اللجنة العليا لإعداد خطة التجارة الخارجية – وزارة التجارة – العراق.
• محاضر في كلية الاقتصاد – الجامعة المستنصرية.

بعض الدراسات والكتابات المنشورة

• "سوق الكويت للأوراق المالية" بالعربية والانكليزية بالتعاون مع الدكتور حازم الببلاوي. منشورات بنك الكويت الصناعي – الكويت 1982.
• "آليات الريع النفطي" بالفرنسية، مجلة "لا بنسيه" الفرنسية – كانون الثاني 1992.
• "إشكالية الاقتصاديات الريعية"، مجلة "النهج"/ خريف عام 1996.
• "آثار انقطاع الريع النفطي على الخدمات العامة" بحث مقدم بالفرنسية الى سيمينار عالمي حول الخدمات العامة نظمته جامعة باريس 7 عام 1999. نُشر البحث ضمن اعمال الندوة العلمية في كتاب «ديناميات الخدمات العامة في دول المشرق والمغرب« لارماتان، فرنسا 2001.
• المشاركة في دراسة جماعية حول تقييم المخاطر الاستراتيجية في العراق.
• مقالة "ازمة حكومة ام ازمة حوكمة؟" مجلة "الدبلوماسية" الفرنسية Diplomatie، شباط – آذار 2014.
• تقديم ورقة بحثية حول "دور اقتصاد المعرفة في التنمية المستدامة" ندوة المعهد العراقي للاصلاح الاقتصادي ووزارة العلوم والتكنولوجيا، 7 حزيران 2014.
• مقالات سياسية واقتصادية في صحف ومجلات عراقية وفرنسية وانكليزية.
• مشاركة في ندوات اقتصادية وسياسية في مؤتمرات وفي مختلف وسائل الاتصال الجماهيري.

نشاطات سياسية واجتماعية وثقافية

• ناشط في الحركة الطلابية الديمقراطية في العراق وفي بريطانيا منذ عام 1968 وحتى منتصف السبعينات. رئيس جمعية الطلبة العراقيين في بريطانيا عام 1975.
• عضو قيادي في الحزب الشيوعي العراقي.
• رئيس تحرير مجلة "الثقافة الجديدة" خلال السنوات 1999 – 2004.
• عضو مجلس امناء المعهد العراقي للإصلاح الاقتصادي.
• عضو شبكة الاقتصاديين العراقيين.
• احد مؤسسي المنتدى العراقي في فرنسا اوائل عقد التسعينات من القرن الماضي.
• عضو مؤسس لعدد من المنظمات والجمعيات الاجتماعية والثقافية والإنسانية.
• مشاركات عديدة في مؤتمرات وندوات دولية.

اللغات الاجنبية

• اجادة تامة للفرنسية والإنكليزية، حديثاً وكتابة. اضافة الى اللغة العربية.

أدب
و
فن

الضمير الحيّ

جاسم العايف

يقف وطننا وشعبنا بكل نسيجه الاجتماعي أمام منعطف حاسم في هذه اللحظات التاريخية الكبرى التي نعيش . منعطف وضعنا في قلب الأحداث الحاسمة التي ترسم مصير العالم ومصيرنا كأمة عراقية قادرة على الانبثاق الجديد من الليل الدموي الطويل الذي أطبق علينا وبدد مشاريعنا الإنسانية وثرواتنا الهائلة وحولنا بكل ثرائنا المادي- الروحي التاريخي، إلى شحاذي معونات من أفقر البلدان والشعوب. وقد وسم ذلك بنيتنا الاجتماعية بهذا الشكل أو ذاك، إلا أن الثقافة العراقية الأصيلة بقيت عصية على المطاوعة لأنظمة القهر وتأبيد الذل واستطاعت أن توصل خطاب الرفض بطرائق متنوعة.

يتزامن انعقاد مهرجان المربد لعام 2017 مع سنة جديدة لانهيار عهد الفكر الشمولي والخطاب الأحادي المفروض بقوة السلطة المنهارة القهرية واكراهاتها ومغرياتها، وقد استجاب لها ولغنائمها بالذات مجموعة من المداحين والطبالين الذين سريعاً ما استداروا للوقوف في مقدمة المشهد الثقافي الحالي معتقدين إن ذاكرتنا خالية مما كتبوه في مدح جلاد شعبنا، ومهندس مقابرنا الجماعية.

بعد انهيار دولة القمع استدار العراقي، صاحب الإرث التنويري التجديدي، منقباً في هذا الفضاء الشاسع، بحثاً عما يروي ظمأه للتعدد والتجدد وتبديد العزلة، فلم يعد ثمة معنى للتردد أو الممنوع والامتناع في الخطاب الثقافي العراقي وما عاد النتاج الثقافي بكل تشكلاته يخضع للرقيب السلطوي ومهيمناته مع ان ثمة من يحاول ذلك كرة أخرى مستغلا الفراغ القانوني وضعف المنظومة الاجتماعية الديمقراطية المدنية القادرة على التصدي لذلك.

هذا الانبثاق وسم الروح العراقية بأشكال التعبير عن الذات الاجتماعية المتعددة التي تتشكل منها الأمة العراقية ونسيجها التاريخي، ورغم عوامل النكوص والإحباط والمشاهد الدموية اليومية والنهب والسلب لكل ما هو غال وثمين في ما تبقى من البيدر العراقي فإن المساهمة الجادة الفعالة في بناء الأوطان ليست نزهة سهلة أو صفقة قابلة للمساومة من قبلنا.

في إعادة الصياغة لروح الموطنة العراقية وتوجهاتها، بكل ارثها التاريخي المعروف، تكمن قدرتنا في الاستجابة لمشروعنا الوطني العراقي المؤتلف - المختلف. وهمُّ المثقف العراقي الآن ليس نتاجه الإبداعي- الذاتي فقط على ضرورته وأهميته - بل اختراق عوامل النكوص والتردد

والاستنكاف لإيصال روحه العراقية الإبداعية إلى المجتمع، ففي العراق الآن ثمة خنادق خطرة تحاول قوى الظلام والتخلف تثبيتها كاستحقاقات لازمة في الضمير الجمعي العراقي لتدمير النسيج الاجتماعي –الوطني على أسس الطوائف والتحاصص وسيادة مهيمنة العزل وحتى تفعيلها ورسم خارطة العراق الجديد في ضوء هذه الخطابات بقوة السلاح، التي ستمزقه وطناً وتشرذمه شعباً، وهنا يبدأ فعل الثقافة الوطنية العراقية وإبداعها في تنشيط لغة الحوار وتفعيل أسس السلام الاجتماعي – الوطني المدعم بالحقوق والواجبات.

إن مشاركة المبدعين العراقيين كضمير حيّ للروح العراقية المتنورة في الحياة العامة سيدحر الإرهاب ومخططاته الوافدة والمقيمة بفعل مقاصده المتناغمة والتوجه الفكري والعملي مع سياسة إعادة رسم الخارطة المحلية والإقليمية والدولية بما ينسجم ومصالحه ورؤاه جاعلاً أرضنا وشعبنا حقلاً فعلياً لتجاربه. لقد خضع كل شيء في العراق للمحاصصة الطائفية، وما يترتب عليها، إلا الروح الثقافية الوطنية وخطابها الذي سيئد الشوفينية والطائفية المسيسة والتمييز الفكري وسيخلق أسس الحوار الدافعة للاستقرار والأمن وانتعاش ثقافة التعايش والسلام وإقرار حق الاختلاف فردياً واجتماعياً وحرية التعبير بمختلف الأشكال القانونية، لأن أرضنا جديرة بذلك وشعبنا الذي يعيش عليها وهب التاريخ الإنساني أولى الشرائع الوضعية ورددت وديان وطننا أول نداءات التوحيد، وهو بقدرات وإصرار ودأب مبدعيه – ضميره الحي– على الرغم من كل ما يتعرضون له من تجاهل وتهميش مقصود وغدر واستباحة لقادر على إعادة العافية للوطن العراقي وشعبه والإسهام في صنع مستقبله بروح التحديث الاجتماعي التي تسم عالمنا الراهن.

نداء إلى المثقفين العراقيين

يا علماءنا وأدباءنا وفنانينا وصحفيينا وأكاديميينا

بتقدير عالٍ يتوجه اليكم مؤتمرنا الوطني العاشر وانتم تمارسون دوركم المشهود في الفترة الماضية، وتصدحون صوتاً مجيداً لشعبنا المبتلى الصابر العزيز، وتعبّرون عن آلامه الكثار وعن آماله في الأمن والحرية والتنمية، في عيش كريم حرّ.

يا شغيلة الفكر في العراق

لقد كنتم أمناء لرسالة الكلمة الملتزمة الحرّة وأنتم تشاركون أبناء شعبكم في تظاهراته واحتجاجاته في ساحة التحرير وفي سوح المحافظات الأخرى، في اطار الحراك المدني الشعبي المستمر، ولا تبخلون بأقلامكم وأفكاركم وكلماتكم والحانكم ومشاركتكم الزاهرة في التعبير عن معاناة شعبنا الكريم، وما صُبّ عليه من مصائب جراء السياسات الحمقاء للنظام المباد، وجراء ويلات الاحتلال والإرهاب والمحاصصة والفساد.

ان مؤتمرنا لينظر بعين الاعتزاز الى مواقفكم النبيلة وصرخاتكم الأصيلة، ضد كل ما يشوه تاريخ شعبنا ولحمته الوطنية وتاريخ الحركة الوطنية والتنويرية، وضد كل من يسعى إلى تكريس قيم ومفاهيم فات اوانها. لكننا نبقى في انتظار المزيد منكم، من أجل ترسيخ مفاهيم الدولة المدنية.. دولة المواطنة والقانون والمؤسسات، والدعوة إلى تحقيق العدالة الاجتماعية. وما زال المشوار مستمراً.

يا وجوه عراقنا العريق

ندعوكم الى السعي معاً لتكريس الرؤية السليمة الى الثقافة والعلم كونهما وسيلة لإرتقاء الانسان روحياً وفكريا، وشرطاً لأنسنة المجتمع وتحقيق نهضته المطلوبة.

ونتطلع الى عمل مشترك متعاضد لاقامة مشروع ثقافي وطني، انساني النزعة، وديمقرطي المحتوى، يكون حاضنة لكل التيارات الداعية الى بلورة هوية وطنية منفتحة متجددة، تحترم التعددية الثقافية والفكرية.

يداً بيد على طريق الحرية والنور والعلم والجمال.

المؤتمر الوطني العاشر
للحزب الشيوعي العراقي
1-3 / 12 / 2016

الزنابقُ لن تموت... يا زُهدي

(ناجح المعموري، د.عقيل مهدي، حسب اللّه يحيى، زهدي الداوودي، جاسم عاصي، وسعد عزيز عبد الصاحب في احتفاء الحزب الشيوعي العراقي بمنجز جليل القيسي عام 2012 في كركوك)

نهار الجمعة السادس من كانون الثاني 2017، ملأ أفق بغداد سواد خبر رحيل القاص والروائي والمؤرخ د.زهدي الداوودي (تولد طوزخرماتو 1940) الذي توفي نهارذاك في أحد مشافي لايبزك بمغتربه الألماني.

الداوودي عيّن معلما عام 1959 وانتظم في صفوف البيشمركة الأنصار خلال سنتي 1963 – 1964، ثم سجن أعوام 1964 – 1966 في معتقلات كركوك، بعقوبة، الرمادي والحلة.

درس التاريخ والفلسفة في جامعة لايبزك خلال أعوام 1967 – 1972 لينال الدكتوراه عام 1976 في فلسفة التاريخ من الجامعة نفسها، وعمل خلال 1976 – 2005 مدرسا وأستاذا مساعدا ومشاركا في جامعات الموصل وقار يونس– البيضاء/ ليبيا ولايبزك وكركوك.

بدأت محاولاته الأدبية عام 1954 كتابة ونشراً وأبانها تعرّف بموسى العبيدي وعبد اللطيف بندر أوغلو فأصدروا جريدة سرية مكتوبة باليد أسموها "صدى الواعي". وتعرف بالمعلمين ابراهيم الداقوقي ومحمد خورشيد اللذين زوداه بأعمال الكتّاب الروس. كما تعرف بقحطان الهرمزي فعرفه بأنور الغساني، مؤيد الراوي، فاضل العزاوي، يوسف الحيدري، جليل القيسي والأب يوسف سعيد، فأسسوا حلقة أدبية سرية معارضة للعهد الملكي بإسم (جماعة أبناء الشقاء)، والتي عرفت فيما بعد بجماعة كركوك الأدبية الشهيرة.

وفي العام 1956 اضطر أن ينتقل لكركوك فتعرف فيها على الأدباء عبد الصمد خانقاه، محمد أحمد رستم، محمد الملا كريم، محي الدين زنكنه ومعروف خزندار، وبعد ثورة 14 تموز 1958 تعرف بمصطفى صالح خوشناو، سركون بولص وفلك الدين كاكائي. انتمى عام 1959 لاتحاد الأدباء العراقيين. وفي الثمانينات، أسهم مع زملائه المنفيين في تأسيس رابطة الكتاب والفنانين والصحفيين العراقيين وأنتخب لأكثر من مرة سكرتيرا لفرع الرابطة في ألمانيا.

من مؤلفاته بين عامي 1962 – 2008: الإعصار، مجموعة قصص/ رجل في كل مكان، رواية/ الزنابق التي لا تموت، قصص/ أسطورة مملكة السيد، قصة طويلة/ أطول عام، رواية/ زمن الهروب، رواية/ فهد والحركة الوطنية في العراق، دراسة مع د.كاظم حبيب/ وداعاً نينوى، رواية/ تحولات، رواية/ فردوس قرية الأشباح/ ذاكرة مدينة منقرضة/ أساس المسألة، مسرحية.

وباللغة الألمانية أصدر: الأكراد: تاريخ، حضارة، كفاح مصيري/ أطول عام، رواية/ وداعا نينوى، رواية.

ونعاه الأديب المعروف حميد الخاقاني بقوله: (اليومَ أتاني نَعْيُ صديق ورفيق درب حبيب. أتاني نبأ رحيل زهدي الداوودي. ومعه رحلت أمكنةٌ قصدناها معاً. ألّفناها وألفتناً. أصغَت لأحاديثنا وجدلنا في الأدب والثقافة والسياسة، فيما كتبنا أو نمضي لكتابته. في أوجاع العراق وخيباته وهي، مُذْ وُلِدْنا وأدركنا انتماءنا له، أوجاعُنا وخيباتنا).

ونعاه المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي ببيان ومما جاء فيه: (لقد قدم الرفيق زهدي الداوودي، خلال حياته الحافلة بالكفاح الثوري والانجاز الإبداعي، مثالاً ساطعاً عن المثقف الشيوعي والمبدع الملتزم بقضايا شعبه والإنسانية، وهو مثال نثق بأنه سيظل مضيئاً في تاريخ ثقافة شعبنا.

ستظل ذكرى زهدي الداوودي عطرة في ضمائر محبيه الكثر....)

نعم، إرقد بسلام واطمئن أيها الداوودي العبق فستختفي قرية الأشباح ويبقى فردوسك وتبقى زنابقك التي لا تموت..

"الثقافة الجديدة"

الصورة المؤجلة من الذاكرة

جاسم عاصي

تولد 1945 الناصرية، عمل في التعليم الابتدائي بين 1964 – 2008، بدأ النشر منذ عام 1965 بمقالة ردا على ما كتبه (د. يوسف عز الدين) في ملحق صحيفة "الجمهورية" الاسبوعي عن الشعر الحر، صدر له اكثر من عشرين كتابا اولها الخروج من الدائرة – قصص – مطبعة الغري – النجف – 1974، واخرها جدل الوجود وفلسفته في لوحات الفنان بشير مهدي – وزارة الثقافة 2013.
له اثنا عشر كتابا منجزا وتحت الطبع بين قراءات ومقاربات ودراسات وسيرة وتجارب وروايات وقصص.
فاز بجائزة مؤسسة ناجي النعمان – لبنان لدورتها لعام 2006، فاز بجائزة وزارة الثقافة للابداع الروائي عام 2010، وكلتاهما عن روايته (انزياح الحجاب ما بعد الغياب).
تنقل بين الناصرية والبصرة ثم استقر في كربلاء منذ عام 1967، وحاليا عضو في قيادة اتحاد أدباء العراق.

استهلال /

التعامل مع مفردات الذاكرة في الشعر؛ تتطلب مهارة فائقة. مهارة ليس في التذكر كسياق، وإنما في تجسيد الإيقاع الذي تتمثل طيفها المفردة المستدعية. وما نرمي إليه من هذا الاستهلال، هو التعامل مع الذاكرة من باب البُعد الصوفي الذي يؤسس لرؤى لها محمولات غير تقليدية، وإن بدت مألوفة. فالمألوف يحمل معه مستتر، والشعر الذي نعنيه هو ما تكون له محمولات ظاهرة وأخرى نستدل عليها من البساطة نحو المضمر من المعنى، أو ما اصطلح عليه (السهل الممتنع) والشاعر (مهدي محمد علي) في قصائده المختارة من قبل الشاعر (عبد الكريم كَاصد) خير دليل على ما نراه.

و(كَاصد) كما بدا لنا حاول اختيار القصائد بحس نقدي وشعري. لأنها حاملة لذات السمة الأكثر تلقائية وبساطة، والأكثر عمقاً في الدلالة، ومتواصلة مع بنائية الشعر. فللشاعر حسه الشعري في الاختيار، لأنه استهل المختارات بمقدمة مهمة، وختمها بدراسة منجزة سابقاً. وهي محمّلة بقراءة حفرية مبكرة. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى، ما كان له تأثير مباشر المجسد في الرفقة التي شهدت حياة الإثنين حتى لحظة هروبهما من الوطن قسراً. وهذا ما أتاح له فرصة المزج بين الاختيار ومعرفة شخصية الشاعر. من هذا نرى أننا عبر المختارات أمام درس شعري، له مواصفات خاصة. صحيح أن مثل هذه الحساسية الشعرية، قد توّفرت عند شعراء آخرين، لكن ما يجمعهم هو كونهم من بيئة واحدة وهم (سعدي يوسف، عبد الكريم كَاصد، مصطفى عبد الله) والذي يجمعهم بساطة الطرح، وعمق التركيب الشعري ذي المفردات والعلاقات الشعرية الدالّة، ثم مشغولية الشعر في الوقوف اتجاه ما هو حائل أمام الطموحات، ومنها الاستقرار في مهد الذاكرة (الوطن) والذي يفرّقهم هي الكيفية التي يتعامل كل واحد منهم مع هذه الظاهرة، ونعني بها الاغتراب عن المكان. فالرؤى تتكيّف للمعرفي، والمعرفي لديهم مختلف وإن اقترب بالخط العام. وطبيعي

كان توزعهم في أصقاع بلدان المهجر، قد وضعهم أمام جملة تجارب مختلفة، ومصادر جديدة للمعرفة، وكيفيات الخلاص من مآزق الحياة. غير أن مثل هذه المعرفة لم تأخذ بهم بعيداً عن رؤية صورة الوطن على وفق كيفيات مختلفة. ودليلنا على هذا كثير، لعل قصيدة الشاعر سعدي يوسف (الطيطوي) وقصائد الشاعر عبد الكريم كاصد التي تتعامل مع الواقع العراقي المعاش برؤى تراجيدية، موّظفه لذلك الموروث، ثم ما قدمه الشاعر مصطفى عبد الله في ديوانه (مكاشفات ما بعد الرحيل). و(مهدي محمد علي) رابع المهاجرين له رؤاه وكيفياته في التعامل.

الخصائص والسمات/

الشاعر ـ كما ذكرنا ـ له توجهاته الفنية النابعة من رؤاه لطبيعة الاغتراب، في ما يخص التعامل مع الظاهرة شعرياً. فهو شاعر مسكون بالتذكر، ومبتلى بالربط بين ما يعيش، وما كان يعيش. فالمكان الحاضن يُذكره بالأمكنة الأولى، بسبب ضغط الحنين الذي تجسّد أكثر في صورة الأم. لذا نجد في شعره خاصية التلقائية التي تسم قصائده. فهو لا يتوّفر على فضاءات مربكة تُبعده عن الصورة الحيّة وعن غرض القصيدة. أو بالأحرى لا يُبعد الصياغة الشعرية عن مناخ تُحدده مشاعره هادئة الطرح، فالذات المحتفظة بسر انفعالاتها النفسية هي التي تؤثر على مسار الشعر.

إن الحس النفسي (التجربة النفسية جرّاء الغربة) شيء والشعر شيء آخر. ذلك لأنه ـ أي الشعر ـ مرهون للزمن الذي يُحسبه الشاعر مهما تقادم الزمن، وتغيّرت المعايير. فالتغيّر لا يؤثر على بنية الذاكرة ، لأنه في الزمان والمكان تُأثيره أكثر مما يرى ويسمع ويُدرك، عبر المقارنة أو الإثارة التي تُعيد صورة الماضي للمقارنة. وهذه التركيبة النفسية هي القاسم المشترك للمهاجر. فالتاريخ المتشعب إلى أسري ومجتمعي وفكري ما يُحفّز الذاكرة على الاستعادة.

إن الفحص لشعر (مهدي) يتطلب النظر إلى أكثر من خاصية، لكي يكون بالإمكان اجتماع خاصية مركزية لشعره، الذي هو؛ شعر بسيط وتلقائي وذو محصلة تراجيدية، تقود إلى المبنى الفكري من خلال المعنى المباشر والمضمر. كما وأنه يعمل على إناطة وظيفة للشعر، هي التطلع في ما يصعب التطلع إليه كمشاع في الوجود. بمعنى يُعمّق المباشر بما يمنحه من تلقائية شعرية، بعيداً عن الصناعة والافتعال، مما يقود إلى تحريك ما هو كامن وراء هذا السهل من الشعر، ولاسيّما رنين القافية على سبيل المثال. فهو يستغني عنها كثيراً، مستبدلاً إياها بإيقاع الكلام الشعري ومعانيه التي بتركيباتها الشعرية تُحيل إلى الأبعد في السياق. فمفردته منتقاة، وملته فائقة البناء. وأرى أن وراء هذه الخاصية في كتابة الشعر تكمن المهارة الشعرية. فمهارته تتجسد من خلال الانسجام مع بنيته الرؤيوية والمعرفية، ومع مزيجه الذاكراتي، مما يُتاح له تغيير مسار الرؤى باتجاهات مختلفة، لكنه لا ينأى عن وحدة القصيدة وتراصّ مبناها، باتباع تكثيف صارم، ولاسيّما في قصائده القصار التي تذكرني بأقوال وانثيالات ونصوص الحكيم السومري (إحيقار) .

إن الشاعر وهو يتعامل مع بينة تنتمي بشكل أو آخر إلى بنية فكرية، بسبب انتمائها إلى حراك خلق أسباب ومسببات وظواهر خارج المنطق، ومنها الهجرة وترك الإرث في الوطن. إنه نوع من قطع الموصل للجنين في رحم الأم. إن قسره ذا وقع فائق القسوة. لذا نجده كشاعر لا يتعامل مع بنية فكرية مباشرة، مثلما يتعامل بعض الشعراء بجاهزية التعبير في الشعر التعبوي. إنه يُحيل البنية الفكرية من خلال تحميلها جمالية شعرية، وتلقائية ذات نفس طبقي، يُدرك المأساة

والتراجيديا عبر أبسط الظواهر. كما سنجد في صياغاته لتناول العلاقة المتخيلة للأم، فهي بسيطة لكنها عميقة الدلالة والوقع. وذات رؤى أسطورية، تتبع إيقاع العلاقة الرحمية بالأم. إنه شاعر مرشّحْ من بيئة فكرية منتمية لقاع الحياة. ولعل تكرار مفردات بيئية توحي وتومئ لذلك الانتماء للأسرة والمجتمع والحياة المدنية .

أما الذي يخص المكان، فهو كأقرانه الشعراء الثلاثة، يستحضر بنية المكان على طول خط الشعر. إنه لا يعيش خارج المكان، بمعناه المركزي؛ مكان الطفولة والصبا والشباب، والخراب السياسي والاضطهاد. كل هذه التوصيفات اقترنت بالمكان المستعادة صورته في الشعر. غير أن مرشحة الشعر خير من ينقيه من الشوائب الطارئة عليه، والتشبث بالحلم والصورة المرتقبة . وهذا جزء من الحنين للوطن بصورته النقية ، بعيداً عن عبث الإنسانفي تشكلاته وصوّره الجميلة . فلناظر إلى الوطن من على بُعد ، تحضره صورة النقاء ، وليس في ما يرى فيه. لذا نجد أن شعر (مهدي) يتعامل مع صورته في المخيلة والتصوّر بجمالية فائقة، ولا تحضره في القصيدة الأسباب والمسببات، لأنها من مشغوليات السياسي وذي الحماس العقائدي. بينما الشاعر مشغول بترميم ما انكسر .إذ من الملاحظ على مجمل القصائد في المختارات كونها كُتبت خارج الوطن، باستثناء العدد القليل المشترك بين البصرة ودمشق. ولهذا تخريج يخص الحس الشعري الذي بني على أساس البُعد عن المكان، بحضور جملة مشاعر دائمة ومتشبثة بالتذكر والحنين.

رؤى الشعر ومجسّاته/

ما ذكرناه من خصائص، غير نهائية. فالشعر بما يُقرأ. لهذا سنحاول الدخول إلى عالم القصائد بعدة خلقها شعره. وحفزتها قراءات الشاعر عبد الكريم كَاصد في المختارات.

ففي قصيدة (لقطات من مدينة تعانق ماء النهر) ثمة سمات في تركيب أسطورة المكان، من خلال التعامل مع الحيوات. ابتداء من الأطفال وهم يصعدون إلى الباص. فالعتبة الأولى للقصيدة ذات محمولات شعبية أسطورية من خلال توائم النهر والمدينة. فالمدن القديمة والشهيرة نشأة بمحاذاة الأنهار، فاستحقت وجوداً حضارياً. فالعنوان يبدو فيه نوع من التقريرية في (لقطات، مدينة) لكنه يتشبث بجملة أخرى أكثر ثراء أسطورياً (تعانق ماء لنهر) وللعناق هنا سمة توّدد وتقرّب والتصاق وصلة بالموروث كما ذكرنا. فكيف تكون المعانقة مع جسد الماء؛ إن لم تكن تتوّفر على الإخصاب والانبعاث. والأنهار في بيئة الشاعر (أبو الخصيب) قيمة أسطورية كما وجدناها عند الشاعر طالب عبد العزيز سواء في شعره أو كتابه (قبل خراب البصرة) هذه القيمة الأسطورية منحها الشاعر (مهدي) حيوية، فجعلها (تعانق) وهي مفردة دالّة على الفراق ثم اللقاء. وهو نوع من اسقاط حال لحس مضمر. والسؤال الشعري هنا: كيف كان العناق يا ترى؟ الإجابة معروفة، غير أننا نبحث عنها في سياق القصيدة :

(إلى "الباص"
يصعد أطفال بابل
مثل الشياطين
مثل المساكين
لا يدفعون النقود
ولكنهم يملأون مؤخرة "الباص")

هذه صورة من القصيدة، تتطلب الوقفة. فهم يركبون. وهذا أمر طبيعي، قد يذهبون إلى المدرسة، لكننا نسأل لم (أطفال بابل)؟ وهنا تكمن الدلالة في اخَتيار النوّع، هو الذي يقرّبها من المبنى الأسطوري كما نرى. ثم نجدهم (شياطين، مساكين) وهي مفردات لتحبيب صورتهم في المبنى

الشعبي وللتدليل. ثم أن العلاقة بين (لا يدفعون نقوداً) و(ولكنهم يملأون مؤخرة "الباص") تُثير ليس الشفقة، بقدر ما تؤكد الإقصاء والتفاوت الطبقي. خاصة في مفردة (يملأون) فكثرتهم دليل أحقية وجودهم. أما ما يُعمق الدلالة الأسطورية؛ فيكون في المقطع الثاني :

(وفي السوق، ذات ظهيرة،
رأيت فتاة
على الأرض تعرض للبيع تمراً رديئاً
ووجهاً جميلاً)

وفي هذا شيء من التمر في صورة الفتاة التي جمع في مشهد وجودها صفتين (تمراً رديئاً) و(وجهاً جميلاً) ولعلنا نُبصر الصورتين، لأنهما مقارنتان لبعض في الوجود المادي . فالفتاة حاضرة، والتمر حاضر أمامها، غير أن المغيّب هو الإشارة إلى الفارق الذي تأتي به الأسطورة المقارنة بين (الرداءة والجمال) والذي تُشير إلى أسطورية وجود الفتاة هو التعبير الدقيق العاكس لحدث اختفاء الفتاة :

(ومرت دقائق / فوجئت أن الفتاة اختفت!)

ولعل علامة التنقيط ما يؤكد مثل هذا المبنى. لأن الاختفاء المفاجئ طيفي ينتمي إلى الأسطورة أكثر من انتمائه إلى الواقع .

ويتكرر هذا أيضاً في مقطع (العشر بنات) أمام موقع المكتبة. ثم بتكرار الصور بين البنات وطالبات المدرسة، لتنشأ البنية الأسطورية في المشهد في :

(من يشتري الخبز ؟
من يلمس الخبز كي يفهم الكتب ؟!
من يقرأ الكتب كي يعرف الخبز ؟!
ـ من يشتري الخبز ؟ منْ ؟
ـ آه ـ صبحة ـ لو كنت في المدرسة!)

ولعل هذا الحراك الشعري، يُذكرنا بعنوان كتاب (ديوان الشعري السومري / ترجمة قاسم الشوّاف / أعطني .. أعطني ماء القلب) وفي السياق الشعري ما بعد العتبة تبرز قيمة الخبز في الأساطير، وعلاقتها بالإله الشاب (دموزي) من خلال نبات الحنطة .

وفي القصيدة ثمة صلة بين البنات والخبز. فلحسرة قد أدمنتها البنات، بسبب الفارق الاجتماعي الذي وقع عليهنَّ فوّضعهنَّ في الموّضع الصعب من الحياة، هو هامشها المتروك للزمن. وبهذا نجد الشعر يتعامل مع هذه الحالات تعاملاً فيه حساسية طبقية وفئوية. بمعنى يعمل على ادراك العمق الدلالي في الشخصية عبر إدراك إحساسه بوّقع المأساة عليها. ويتم هذا بعيداً عن التهويل لمثل هذا الإحساس المفرط في تغييب الحقوق البسيطة منها. كما وأنه يتعامل مع الزمن من موّقع المؤثر والتأثير والأثر. فالأثر المتروك على بينية الشخصية النفسية هو الدليل على عظمة الواقع للزمن بكل ثقله. وهذا لا يتجسّد سوى بالمفردات البسيطة، والجملة بسيطة التركيب والبلاغة. غير أن بلاغتها تكمن في الذاتية المتخلصة من ظاهرة التمسكن والضعف. فنماذجه تتصف بكبرياء عال، وسمو روحي واضح على سلوكها. إذ يندر أن نجد ذاتا معذبة تضعف أمام العناصر المسببة لعذابها. فهي تحتفظ بعزة النفس المستوحاة من الموّقع الطبقي الموروث عن الأقربين أو هي استجابة جينية ومكتسبة.

إن سر تلقائية النفَس الشعري في قصائده هو اقترابها من اليومي والمألوف والمتماسّ مع مفردات حياته العابرة إلى حياة الاخرين وإن بُعدوا عنه جغرافياً، إلا أنهم شكّلوا مؤثراً على وجوده كشاعر وعراقي مُبعد عن وطنه بالقسر. إن إحساسه المفرط بهذه المسافة التي تُبعده عن مهد ذاكرته هو الذي عبأ وجدانه بهذا النوع من الشعر التلقائي ذي الوقع التراجيدي البحت. فاليومي لديه ولدى أقرانه الذي يتغذى منه الشعر، هو ما يقود إلى جمال وعمق الشعر. أما الغنائية التي سار عليها شعره كنسق مؤثر، فهو

متأت أيضاً من البساطة والتلقائية. فالحياة بما تمتلكه من إيقاع يتسرب بالتأكيد إلى الشعر باعتباره يمتلك مساحة الاحتواء لمثل هذا الحس الوجداني . ففنيته مكتسبة من غنائية الظواهر المنبعثة من مسار الزمن بكل مكوّناته المأساوية، ومن تلقائية الذات الشعرية المتطبعة على الرؤية الصافية. فالتعقيد الذي شمل وجوده الملتبس، لم يتح له مجال اسقاط ظواهره على الشعر. لعل الذات الصبورة المنبعثة من حساسيته الشعرية دفعته إلى الجروف المحتفظة بروح التأني والكبت الوجداني، مع فسح المجال للشعر الصافي والرائق أن يظهر للوجود كوسيلة تعبير عما يكبته وجدانه.

حالات الشعرية /

في قصيدة (البئر) ثمة حس أسطوري يحتوي فضاءها. وهذا الحس متأت ومتأثر بكامن الأسطورة حصراً، عبر (البئر، الصندوق) وكلاهما لهما محمولات يُشكّل الغموض نسقاً لهما. فالبئر من احتوى جسد (يوسف) وهو (غيابة) كما وصفه القرآن الكريم (في غيابة الجب) وهو محمول أضفى على شخصية (يوسف) سحرية أخرى غير سحر أسطورة نبات (اللّفاح) الذي خصّب رحم (راحيل) حسب التوراة في سفر التكوين. وهو اي البئر حافظ للأسرار، لَذا أودعه أخوته فيه ولم يقتلوه تحقيقاً للمسار الأسطوري. والصندوق في الموروث الشعبي والأسطوري في آن واحد حافظ للأسرار. لذا استعان به الشاعر لا لشيء إلا لاستجابته إلى ما هو مضمر في ذاكرته. فالصندوق هنا ذاكرة الإنسان، ليس في الغربة فحسب، بل أنه سياق شعبي توّفر عليه الإنسان. وهو من موروثات العائلة. كما وانه دالّة استفاد منها كتّاب السرد للبحث عن وثائق تُفيد في كتابة نصوصهم. وهو واحد من الركائز التي استخلصت واحدة من خصائص ما اصطلح عليه (الميتا سرد) فالشعر استفاد من الصندوق لكشف ما كان بحاجة إلى كشفه :

(أتذكر صندوقاً كبيراً
كنت أكنز فيه مئات الصُحف
وقصاصات الأوراق
وأشياء أخرى)

وفي هذا نتلمس أهمية هذا الصندوق. ليس لأنه حافظ الأسرار فحسب، بل لأنه يُشكّل كنزاً بدلالة مفردة (أكنز) فهو لم يقل (أحفظ فيه) بل (أكنز فيه) وهذا وصف للصحف ونوادرها التي لم يذكرها بل أوحى بها. وهي من بناة الكنوز أي النوادر. وهنا تكمن أهميتها بالنسبة للشاعر، لأنها حاملة لذكرياته التي يعتز بها. فهي مرتبطة بالزمان والمكان المغيّب عنه. والأكثر بلاغة في توصيف الصندوق في :

(أتدلى فيه كما أتدلى في بئر
بحثاً عن صحيفة قديمة
أو قصاصة ورق
أو تلبية لرغبة طفل)

وكل هذه المبررات والأسباب الثلاثة الداعية للتدلي، أي البحث، هي مجسّة البحث عن الأسطورة وسحرها، لأنها وحسب التعبير المجازي خالقة لمثل هذه المعاني والأشكال في التعبير. ولما كان الصندوق بصورته الدلالية الأسطورية، فأنه بطبيعة الحال تتحوّل إلى أسطورة سابته، لكن وبمصطلح (مرسيا إلياد) لها بالعوّد الأبدي، وإن توالت الأزمنة بعُقده وطولها وغبارها الكثيف :

(لقد ابتعد الصندوق
ابتعدت غرفتي
وابتعد الوطن)

وهذا ما كنا نعنيه بالكنز الذي (اكتنزته) الصُحف والأوراق. وجرّاء هذا يقول:

(وأنا الآن اتدلى نحو وطني
كم أتدلى نحو بئر أليف وموّحش!)

ولعل في هذا التعبير الشعري وظّف التدلي وموضعه (البئر) مرتين. الأولى في الوطن

بسبب الضاغط وأخرى خارجه في المنفى، بالرغم من ألفة البئر ووحشته الطبيعية، فهو منفى ليس إلا. هذه القصيدة احتشدت فيها عناصر الأسطورة، سواء القارّة منها أو ما خلّقها ذهن الشاعر وفق رؤى شعرية مرهفة.

في قصيدة (بالإزميل) يفتح أفقاً تشكيلياً للشعر. فيتركه يكتب بالرسم. فكل التوصيفات تنتمي إلى الفن التشكيلي. وبإضافاته يؤثث منزل القصيدة مستهلاً بخطاب الأم التي غُيّب عنها في المنافي :

(أتذكرك يا أمي
وأتأمل القصيدة)

وفي هذا توّقف على القرين الشعري أو مبرر قوله. والأم دالّة للشاعر في قصائده لحظة اشتداد الموّقف. لكن ما يُميّز قصيدته؛ أنها غير منفعلة، بل تستقبل الصوّر بتلقائية وعفوية شعرية، وبما يوازي الحنين الطاغي. فهو يرسم لها القصيدة رسماً :

(فأرسم سجادة للصلاة
وقارورة الدواء)

وهذا رسم هادئ لعذاب الأم وقلق الغياب. ذلك لأن صورتها ترتسم أمامه كما تركها تعاني من المرض الذي يُقلقه :

(أتذكرك
ناحلة مهمومة يا أختي
وأتأمل القصيدة
فأضيف صفصافة
وجدولاً
وطحالب
أتذكر نافذتي هناك
فأفتح نافذة في القصيدة
وامتداداً طفيفاً
وبيتاً للجيرانِ
وزجاجاً ولوّناً
وصبية يلعبون)

فهو يُقلّب الواقع والماضي ليتأكد من اكتمال الصورة واستحضارها في القصيدة. وهو نوّع من خلق التماثل بين فضاء الماضي وصورته متمثلاً بصورة المكان وفضاء القصيدة المنشأة على التذكر والتصوّر. وتتوالى مفردات الإنشاء أو المبنى التشكيلي للقصيدة حتى يقفلها بإشارات أكثر دلالة :

(فأضيف أفقاً دائماً
يؤطره الدخان
وجرّة مكسورة!)

وهنا يتجسد أفق الحرب أولاً بدلالة (الدخان) وذهاب كل شيء بدلالة انكسار (الجرّة) والجرّة هنا تتماثل دلالياً مع (البئر والصندوق في قصيدة سابقة) فهي خزانة أمهاتنا وجدّاتنا. اكتسب أسطورتها من شعبيتها وتداوله في مرويات كتاب الليالي بكل سحره وتهويماته الشعبية والأسطورية، فالجرّة تُكسر في شهر (صُفر) الهجري لإنهاء الضرر الملحق بالإنسان. وهو نوع من التصوّر الشعبي العابر إلى الأسطوري في المفهوم.

في قصيدة (المدينة) حوّل الشاعر نمط الروتين إلى فكرة تتلبس صورة، الصورة معنية بروح التفاؤل. فحين يضع صورة محكومة بالواحدية ، أي التفرد ، فلا يعني هذا أن شبح التكرار يقضي على صورة هي الأكبر (شارع، دكان، مقهى أصدقاء) كل هذا مشمول بالتكرار. غير أن الأصدقاء هم الشفيع القادر على كسر الرتابة:

(ولكن !
عدد كبير من الأصدقاء!)

التكرار هنا مفيد، فهو أول المؤثرات. كما وأن التأكيد على كسر النمط، حالة تؤشر إليها القصيدة مباشرة. لكن ما نؤكده هنا هو البحث عن المعنى في الوجود. فالقصيدة وإن بدت ضمن سياقها بسيطة، وتُعطي صورة مباشرة، غير أنها تؤشر معنى آخر يخص المنفى. ففيه تستقر الذات على علاقات تعويضية. وهنا هو القصد في (ولكن) هذه المفردة الاعتراضية لأجل تصحيح ما يوحي

به النسق الروتيني في الحياة اليومية. كذلك فعل مؤثر قصيدة (مطر) القصيرة. وذلك من خلال الربط بين كل توّجسات الأطفال غب سقوط المطر، حتى انتظار الشمس. فهو تلخيص حالات وصور أبعد من لوّذ الأطفال عن المطر. فالشاعر- كما نرى - في قصائده يتسلل إلى الكبير من خلال الصغير، ومن الخاص إلى العام .

وبالتعبير المجازي كشف عن صورة فيها ثراء إنساني. فالشعر فيها وسيلة لكشف الجميل في الحياة. وما الأطفال سوى ذريعة تعبير أساسية كاشفة عن وجود مستقر وآخر مرتبك. فالشاعر - كما تعوّد - لا يُهوّل المشهد، بقدر ما يترك انسيابيته تعبّر عن المعنى الكامن في الذات. فالسردية الشعرية هنا كشفت عن صورة تسلُّل الأطفال عبر السياج، أي التطلع. بمعنى كشف ما لا يُراد له أن ينكشف. من هنا تبني القصيدة محوّرها :

(اعتاد أطفال الجيران
أن يمتطوا السياج بيننا كالحصان)

وفي هذا مجاز في تشبيه امتطاء السياج، متماثلاً مع امتطاء الحصان. بمعنى أعطى مقدماً قيمة، حتى لو كانت براءة الأطفال، تقيّم نظرتهم لما هو خلف السياج. وبهذا لا يكون الاعتراض على الحالة استنكاراً أو استهجاناً. وما عبارة (أمرتهم أن يكفّوا) سوى عبارة محببة وليست قسرية. أي فيها مرونة في القصد. كذلك تعبير(فلم يستجيبوا) ما هو إلا نوع من كشف التوصل بالتكرار والفحص إلى معرفة القيمة الجمالية للأطفال في (فاكتشفت عيونهم الجميلة الملوّنة) غير أن امتناعهم عن التسلق، أكد ما أشرنا إليه في البداية. فتحوّل السياج إلى فاصل بمعنى حاجز للجمال والبراءة. بل بالتعبير الشعري :

(صار السياج بيننا فاصلاً
واختفى ذلك النبات البشري المتسلق
وأزهاره الجميلة الملوّنة!)

وهكذا بتلقائية عبّر الشاعر عن قيمة كبرى لما وصفه بالنبات البشري .

في قصيدة (شارع في البصرة) يحاول ان يستدرج ذاكرته. فمن العنوان يعمل على إخفاء المعلن، فهو شارع ليس إلا، وبحدود العنونة. لكنه بهذا إنما يواري ولو مؤقتاً سحر ها الشارع، فهو شأنه شأن شوارع المدينة، ذات النكهة البصرية الجنوبية، التي تختلط فيها الأنساق والتوصيفات وكونها علامات المدينة. فالشارع احتوى ويحتوي فعاليات البصريين وزوار المدينة في تجوالهم اليومي. فله نكهته وطقوسيته، بسبب احتوائه على كل ما يُلبي الرغبات الذاتية والجمعية. لذا فلا ضير أن يخفي الشاعر أسمه معمماً إياه بما يُلي ذكر الشوارع، مدّخراً سحره ضمن سياق القصيدة. لحظة يُسفر عن اسمه، تتداعى الذاكرة الفردية بكل ما اختزنه الشارع من ذكريات. غير انه يتواصل مع ذكر خصائصه وموجوداته، تأكيداً على قربه من الذات الإنسانية البصرية أو سواها :

(وأذكر من شارع "الوطني"
"سينما الوطني")

ولعله هنا يربط التذكر بتذكر آخر، فـ (و) العطف هذه تستدعي صورة الاستذكار. فذكر الشارع جاء بعد ذكر غيره. وهو غير معلن، لكنه دال على مشغولية إنسان الشاعر وتداعياته. الإنسان المغترب عن المكان، فهو ضمن سردية استذكارية متواصلة. وحين يؤكد على اسم السينما، فكأنه يؤكد على وطنية الشارع ومشاعيته من خلال ما كان يحفل به من لقاءات وجولات. هذا الفعل الشعري، يعمل على تأكيد المُؤكد في تاريخ الذاكرة. ويكون تسلسل شواهد المكان (الشارع) متواتراً، حيث تكون نهاية القصيدة تسجيلاً لما تعنيه هذه المسميّات. ولعل عبارة (نهايات شارعنا الوطني!) ذات دلالة تعبير جديدة، لأنه لم يقل (شارع

الوطني) بل (شارعنا) وهو انتساب شرعي؛ ذاتي وموضوعي. وشعر (مهدي) حافل بمثل هذه الضربات الذكية، التي لا تكلف الشاعر بلاغة زائدة، بقدر ما يمنح شعره بلاغة شفافة .

في (الشيخوخة) لا يفلت الشاعر من هيمنة الاستعادة ذات الوقع التراجيدي، فهو يتغنى بالمفقود والمُغيّب من الأمكنة وبروح خلقت نوعاً من التأسي المفجع، الذي لا يكشف عن ملامحه مباشرة كما اعتاد :

(ضجة السينما أول العمر
هدأتها آخر العمر
من ذا يدل خطاي إلى مقعدي
في الظلام ؟)!

هذا السؤال خلقته حالة طبيعية مرهونة بحضور الشيخوخة. ولكن الذي هو غير طبيعي هو الاختفاء، أو ضياع المعالم :

(تباغتني ضجة
يعتريني الهدوء الذي قاد شيخوختي
للطفولة في السينما)

إذ نجده يُقر بحالته، غير انه يحنُّ لطفولة السينما. بعدها يُعدد المفردات التي استقرت في ذاكرته استدعاء بكامل حيويتها. ثم أنه يوازي بين ما يتذكره وما يحُدثه التذكر من مرارة الفقدان :

(لم يبق لي من ضجيج الطفولة
غير "الغروب الأخير")

ولعله عنوان فلم شاهده في الماضي. كذلك يقترض صورة من يقوده إلى صالة السينما، وهو الفتى الذي (هو) استرجاعاً :

(ـ انتظر .. يا فتى
كي تقود خطاي إلى مقعدي في الظلام !)

فأصبح الظلام الذي كان يسود صالة السينما، مجازاً لظلام الواقع المشتبك بالظلام الأكثر تركيزاً في القسوّة، والأكثر فاجعة بما يُشير إليه سؤال قصيدة (لماذا) الذي يضمر تفرّداً، ولو بدلالة بسيطة، لكنه سؤال المغترب الرافض في ذاته الابتعاد عن الوطن :

(لماذا أشتهي أحيانا
أن أحتسي كأسين معاً
وأدخن سيجارتين معاً ؟!
لماذا أريد أحياناً
أن أتذكر أمي مرتين في لحظة واحدة ؟!
لماذا أنا هنا
وحياتي هناك ؟!)

سرديات الشعر /

يستفيد شعر (مهدي) من السرد، باعتباره قادرا على خلق تواتر أنماط الحياة بكل مفارقاتها. فالسرد في هذه الحالة يُتيح للتفاصيل الشعرية ذات الخاصية الاستذكارية أن تُحق صورا أكثر ترفد الشعرية وتعمقها. لأن شعر (مهدي) ينتشل ما هو يومي ومألوف، من أجل تصعيده فنياً إلى مرتبة مركز الشعر. ففي (نهار مشمس) نجده يبدأ بالوصف والسرد، لغرض عكس ما يراه أو يتذكره :

(العجوز الريفية
بعباءتها الصوف
السوداء
الحائلة)

ثم ينتبه إلى وجودها في الباص، لا لشيء سوى لتكثيف مشهدها اليومي . لأنها أساساً تحمل إرثاً من حيف الزمن :

(وهي تتمتم بصوت غامض
مرتبك وحزين
ويهتز دهرها باهتزاز الباص)

ثم يعود إلى منفاه، ليتأمل ما يضمره الزمن، عبر تماثل صورة العجوز وصورة الأم البعيدة عنه :

(كان نهاراً مشمساً في هذا المنفى
ولا ينقصني شيء!
ترى كيف تموت أمي العجوز ؟
وكيف يهتز دهرها الآن ؟!)

وهو متعلق إنساني يُلازم الشاعر في غربته.

فالأم عنده تعني كل شيء، فالوطن هو الأم، والتاريخ كذلك. فصورتها تعبير عن نصاعة الزمان والمكان .
في قصيد (الجندي) يوّظف المخاطب من السرد في:
(أيها الجندي
أسود كنت أم أبيض
على لوح الشطرنج
أم على أرض المعركة
فإن مصيرك الموّت !
أسود كنت أم أبيض
فليس لك إلا أن تتقدم
لتقتل "العدو"
أو ليقتلك "العدو"
الحكّام لا يموتون إلا قليلاً)
وفي قصيدة (أرواح) يستثمر السرد كبنية مفارقة، وذلك بإتباع صيغة الحلم :
(في ظهيرة فائضة
وفي زقاق مقفر
صادفني
قط رمادي
.....
.....
يُحدق بي
بأبهة غراب من زمن سحيق!)
في قصيدة (تمثال بوشكين) يكون الزمن هو النسق الذي ينتظم عليه إيقاع القصيدة. وهو إيقاع أشرك فيه رمز الطائر، وحصراً (الحمامة والغراب) وفي هذا حاول أن يُشكّل من خلال الرمزين غطاء يكسي بها طبيعته الرمز، ضمن فصول السنة :
(دائماً تقف على رأسه حمامة
طير غريب
أو عصفور
وربما غراب)
ثم يستثني: (ولكنني لم أشاهد غراباً على رأسه مرة!)
من ذلك نلمس العلاقة بين رأس (بوشكين) وتأريخه، وبين الطيور الوديعة التي تتخذ من رأسه ملاذاً لها. فالإختيار وقع على الرأس وليس الكتفين مثلاً. فالشاعر برأسه المنتج للشعر، والطيور إنما تستكين على موّقع يمثل وداعتها، ووداعة الشاعر. وتستمر سردية القصيدة في توصيفاتها، مروراً بفصول السنة :
(دائماً تقف على رأسه حمامة
.....
حضر العشاق أم لم يحضروا
مرّت الحافلات أم لم تمر)
والعلاقة بين الشاعر(مهدي) والشاعر (بوشكين) منتظمة وفق الزمن. فبعد أن يُعدد أزمنة حضوره قرب التمثال يؤكد (دائماً أمضي إليه) وهذه الـ (دائماً) تُفضي إلى ألفة الشاعر، في المنفى مع قرين له. إنه بهذه الصياغة يبحث عمّا يُبعد عنه شبح الغربة، حتى لو كانت مع تمثال يُدرك أهمية نموذجه.

القصائد القصار/

القصيدة القصيرة؛ جنس معروف قديماً وإن تعددت التوصيفات له. شأنها شأن القصة القصيرة جداً، كما في قصيدة (الهايكو) غير أننا نرى أن ما كتبه الحكيم السومري (إحيقار) كان أكثر بلاغة في التعبير والمواصفات الأدائية. لكننا نُقّر بأن الكتابة بهذا الجنس الشعري، متعلق بالشاعر نفسه. فقد تعددت الكتابات، وتعددت من خلالها الكيفيات. وما نلاحظه على قِطَع الشاعر القصيرة، الاقتراب من ظاهَرة الكتابة بشكلها العام عند الشعراء، واختلافها في مجال الخصائص الذاتية كما سنرى. فقد اجتمعت الكثافة والمفارقة والضربة، ولكن بكيفيات مختلفة. فحين يكون التوصيف حالة ملازمة تكون مفردات القصيدة على شكل وصايا منبعثة من الحكمة. وهذا ما كان يتحلى به قول الحكيم (إَحيقار) :

(حين تصبح المدينة سجناً كبيراً
ينبغي أن تكون
حذراً مثل سيف مرهف
بسيطاً كحبة القمح
وصبوراً كالجمل)

وفي حالة نقد الواقع، وبشكل لا يُثير اشكالاً، يكون الشعر ميزان التقييم لما يرى، وما تخلفه الأزمنة. وهنا يتعرض إلى ظاهرة الانتهازية في الحياة :

(لكي يكونوا شيئاً
وفجأة يعتلون مجداً
يمتد حتى الديناصور المنقرض)

وفي تناول التفاوت الطبقي يقول:

(هَبّوا مثل الجوّقة مذعورين
ضد ألوف الناس:
ـ "أبداً.. أبداً
لا يمكن هذا !!"
فرأينا كيف ارتفع الماء الآسن
في آنية بشرية
بين نحيف وبدين!)

وفي حالة المفارقة يذكر:

(بين ذلك النقاش الذي كان يلقي الخطب الهستيرية
وهذا البدوي الذي يتكلم بتؤدة
يمتد فراغ جماجم موحش)

وفي توصيف حالة الأم التي تركها في الوطن، أو أي من الأمهات يقول:

(لم تحبِ سوى أبنائها الذين يغادرونها
واحداً بعد الآخر
وما تعرف سوى الصلاة والمرض!)

وفي توصيف الفراق مع الأم نراه يُعيد حالاته في الغربة وهو يتأمل صورة الأم في قصائده:

(يا للهوّة التي حدثت بيني وبين أمي
ذلك الفراق الذي تمّ دون وداع
كما لو كنت ماضياً لشرب الماء
أو تجفيف اليدين !)

هذه القصائد انتظمت وفق مناخ واحد. غير أنه يعود في قصائد قصار أخرى على شاكلة مغايرة، كما في قصيدة (علامات تعجب) والتي تنتظم مقاطعها كالآتي :

ـ (لم أر أشد حزناً من عين الجمل !) ـ دهشة
ـ (لم أتابع شيئاً بدأب
متابعتي نمو النبتة الصغيرة!) – صبر
ـ (لم أر أغرب من الصحراء:
خالية من كل شيء
مليئة بكل شيء!) ـ قناعة
ـ (لم أر أجمل من الوطن في عينيّ المرأة :
عينيّ أمي
وعينيّ حبيبتي
وأختي !
لم أر أقسى من الوطن
إلا الحنين إلى الوطن !)ـ مفارقة .
ـ (لم أقل: لا
ولم أقل: نعم
قلت: هيا !) ـ تسجيل موقف .

هذه المواصفات في شعر (مهدي محمد علي) المنتظمة في (مختارات) قد تكللت بفتح فضاءات شعره على كل المناخات والحالات الإنسانية، خالقاً من همّه الذاتي معبراً إلى همّ الآخر بجدارة تعبير شعري يضعه مع صف أقرانه بقوة ورهافة .

ـ مهدي محمد علي، مختارات من إعداد (عبد الكريم كَاصد)، دار الروسم ٢٠١٦

ثنائية العلاقة بين السينما والمسرح وأهم تشكلاتهما

جواد وادي

شاعر ومترجم وكاتب عراقي مقيم في المغرب منذ العام 1978، خريج الجامعة المستنصرية/ قسم اللغة الإنجليزية وآدابها لعام 1975، أستاذ التعليم الثانوي للغة الإنجليزية بمدينة أسفي، عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق،
اصداراته: في الشعر: تراتيل بابلية (نصوص سبعينية)، رهبة المدارك، نشيد الفواخت، سيرة الفصول (ما يشبه الهايكو)، ألحان القيثارة السومرية، مسرحية جلجامش.
له كتب معدة للطبع: ديوان أناييس (حفيدة الشاعر)، الديوان السابع (لم يعنون بعد)، مرافئ: (دراسات نقدية في الأدب والفن) بجزئين، رواية تسجيلية توثق لأحداث عراقية في خمسينيات القرن الماضي.
ترجم الكثير من الشعر والكتابات الادبية من الإنجليزية إلى العربية، ومن العربية إلى الإنجليزية، شارك في العديد من المهرجانات والملتقيات الشعرية والأدبية والفكرية في المغرب والعراق بعد التغيير.

تقديم:

يعتبر الإرث الإنساني الذي تحقق عبر حقب زمنية موغلة في القدم من أهم الانجازات البشرية والذي تطلب الجهد والمثابرة والكثير من التضحيات ليصل إلى ما نحن عليه اليوم، وتلك الجهود باتت ملكا كونيا لكل من يبحث عن الخلاص من القيود الصارمة، اجتماعية كانت أم موروثات بالية تعيق الإبداعات الفكرية والثقافية والعلمية حتى وصلنا إلى عصر الأنوار، يوم كانت الكنيسة تضرب بقوة بأغلالها القاسية وقوانينها الجائرة على حركة الإبداع الفكري والعلمي، ومنع كل من تسول له نفسه الخروج على تابوهات جائرة وعلى ما مرسوم له من خطوط حمراء واتهامه بالمروق، وكم من العقول ذهبت سدى لهذا التفكير الفج والمتخلف على يد الجلادين وسيافيهم، والمشكلة أن هكذا صرامة كانت وما زالت تلازم الأنظمة الفاشية والقمعية في عالمنا العربي، بعد أن تحرر منها العالم الغربي وخرج من شرنقة التكفير المخيف، ليبقى عالمنا العربي يعيش ذات الحالات قبل قرون المحن، وبات الراهن المرعب الذي نعيشه في ظل تناسل الحركات السلفية المتطرفة وتحريمها وبشكل سافر ووقح وعاد المنجز الفكري والإبداعي له من الحدود والخطوط ما يقنن الإبداع بصرامة لا مثيل لها، حتى بات الإبداع بكل أجناسه المختلفة موضوعا على طاولة الرقيب، بمحاذير لا حدود لها، وتم تسليعه بشكل رخيص ورث، وباتت حياة المبدع على كف عفريت وهو مطوق بالمخاوف والوعيد مما اضطر العديد منهم أن يعمل في الخفاء وتحت ظروف قاسية، أو وجه بوصلته خارج الوطن سبيلا للخلاص من الفتك، وأنتم تعرفون الأسماء التي نعني، لتصل الآن إلى مستويات خطيرة من طرف شذاذ آفاق ومنحرفين وصبية يافعين لا يعرفون ألف باء وجودهم، والأخطر من كل ذلك أن من له قدرة على لجم هذه الأصوات وإيقاف هذه

المُدى الشريرة من نحر الأبرياء من مبدعين وعلماء ومثقفين وغيرهم من الرافضين لهذا العبث الأرعن، لا يحركون ساكنا، بل تركوا الحبل على الغارب، وها نحن نعيش حالات كارثية وعلى كل المستويات، وتعثرت في كثير من الدول العربية ودول العالم الثالث، مسيرة الإبداع لهذه الأسباب العبثية، دون أن نخلق نحن المهتمين بحركة الفكر والأدب جبهة متراصة بوجه هذا المد التكفيري المتنامي والمتسارع التمدد، ومن منا ونحن نمارس الخجل والمواراة حتى مع أنفسنا، لا يشعر بالضيق وحتى الذعر من مماشط القتلة والتكفيريين. ورصاصهم الطائش، لكن ما العمل؟

الكل يعرف التراجع الخطير الذي عاناه الإبداع العربي من معوقات، الأمر الذي اضطره أن ينهل من المعارف الإنسانية الأخرى ولو في حدود المحذور والمرصود.

ليصل الحال الكارثي إلى تكفير أهم المبدعين من رموز فكرية على امتداد عالمنا العربي والإسلامي وتعرض العديد منهم للتصفيات والقتل الأرعن، تحت ذرائع لا علاقة لها بالدين وسماحته. ينبغي هنا ألا نغفل ولو للحظة، هذه المحاذير التي باتت تهددنا في تفاصيل حياتنا ولا من موقف حاسم وصارم، بعد أن تحول الأمر إلى مسألة وجود وعطاء ومد الحياة والثقافة بالجديد والناهض لخدمة الإنسان.

أهمية المسرح والفنون الأخرى في بناء الانسان:

إننا حين نتكلم عن المسرح والسينما لا ينبغي أن نغفل الأجناس الإبداعية الأخرى، من شعر وسرد ومقالة وموسيقى وفن تشكيلي، نحتا ورسما، وغيرها من فنون الإبداع الإنساني الذي يجسد العلاقة القوية بين كينونة المرء ومحيطه والوفاء للعلاقة بين كل مكونات الوجود الإنساني الذي من الضرورة بمكان اذا ما أردنا أن نبني الانسان المعاصر المشحون بالقلق الوجودي، والوفي في الكشف والمثابرة والابتكار لخلق ماكنة اشتغال في داخله، لا تكل ولا تمل، السعي بحافز المكتشف والباحث لخلق الجديد، إرضاء لفضوله المعرفي عن طريق المتابعة والقراءة والاستشراف على ثقافات وانجازات الأمم الأخرى وخلق التلاقح المطلوب مع ثقافته الأم لتنهل كل ثقافة من الأخرى، وبالتالي نخلق أجواء من التقارب الثقافي والفكري الذي نحن بحاجة له في عالمنا الذي يعج في حاضرنا باليومي الرث والانحدار الخطير باتجاه الضياع الحقيقي، وهذا ليس تهويلا ولا نظرة سوداء قد يتهمنا البعض فيها، بل هو واقع مرير نعيشه بكل مكابداته، ولم نسع، وهنا أقصد كل من له شأن في هذا المنزلق، من مدرسة وأسرة ومجتمع متمثلا بمنظماته المدنية والمؤسسات الثقافية التي ليس لها من الثقافة إلا الاسم، وسواها، ولم نبذل المطلوب بعد أن شممنا رائحة الروث الذي بات يطوقنا دون أن نحرك ساكنا ونحن نشاهد ونعيش ونتأسى يوميا ما آلت إليه الأمور، وهذا الغزو الطوفاني لوسائل الاتصال بكل مشاربها وعدم الأخذ بإيجابياتها والتصدي لسلبياتها، بل تركنا الحبل على الغارب، وأخذت نار تكنولوجيا التواصل تغزو هشيم أجيالنا الضائعة، وها نحن نحصد ثمار صمتنا المرة بطعم الحنظل. فمن أين نأتي بالمتلقي، وقد خلت قاعات العرض من العاشقين له، ولم يتعد الحضور عدد أصابع اليدين في جل الملتقيات الفكرية، أليس هذا ناقوس خطر حقيقي وقد تشتتت الاهتمامات صوب ملاه لا تبقي ولا تذر غير اسهاماتها بالقضاء على آخر ملامح اضاءات فكرية قد يحتكم عليها الآخرون لنصل إلى الطريق المسدود.

ربّ سائل يقول: ما العلاقة بين ما نحن فيه ونحن نتناول العلاقة بين المسرح والسينما

وهذا الكلام؟، أقول بأننا ينبغي أن نبحث عن المتلقي بمواصفات المثقف والمتابع المسكون بالفضول المعرفي والإنساني، فهل يمكننا أن نجد من نوجه له الخطاب إذا كنا نسعى لبناء الإنسان الجديد ونخرج من رتابة الملتقيات التي لا تعدو بأغلبها من المناسباتية والنزهة ونسيان ما تم تناوله بمجرد الخروج من القاعة وكأني بمعظم الباحثين يقول ما لي والتغيير وقد أخذ الطوفان مديات خطيرة، وهذا لعمري غاية التخاذل وعدم المسؤولية، اذا ما علمنا وبشكل مؤكد أن هكذا خراب يعشعش في كل بيت، وعادت المصائب تعم الجميع وأخذت الأجيال الناهضة وهي ليست كذلك تدير ظهورها لأي مسعى من شأنه انتشالهم مما هم عليه، واللعنة ستحل على كل من لم يع دوره الحقيقي في التغيير الذي بات أمرا ملحا أو على الأقل إيقاف التدهور المخيف، ونحن نعيش الخراب بكل لحظاته، وبتنا جزءا منه ولا من حراك حقيقي، وبات الصراخ يبح الأصوات ولا من مجيب؟ الجواب متروك لنا جميعا.

العلاقة بين السينما والمسرح:

حين نتكلم عن السينما والمسرح ينبغي أن نأخذ الحيز الزمني الذي وجد كل فن فيه، ففي الوقت الذي يمتد عمر المسرح لآلاف السنين، أي منذ بداياته الأولى في العهد اليوناني، في حدود القرن السابع قبل الميلاد، في حين أن السينما لا يتجاوز عمرها المائة والعشرين عاما، وفي الوقت الذي يعتبر المسرح الأكثر شعبية في نظر المناصرين له، كانت ابسط وأرخص وأقرب وسيلة للترفيه وأكثر الفنون البصرية شعبية بتناولها موضوعات هامة وظفت مختلف أوجه الحياة التي تلامس الهمّ الحقيقي للناس.

لكننا لا ينبغي أن ننحاز للسينما على حساب المسرح الذي له الفضل الأكبر في منح السينما الفرصة في تشكلاتها الأولى، ويكفي أن نقول أن المسرح هو أبو الفنون بامتياز لأنه يجمع في قفة واحدة فنونا مختلفة، فهو فن مركب ومعقد للغاية يجتمع فيه الحكي والديكور والحركة والإخراج والموسيقى والملابس والغناء والحوار وتعايش العرض المباشر مع المتلقي واشراك المتفرج في العرض وغيرها من السمات التي قد لا تكون متوفرة في السينما، رغم أن الفنين هما الآن توأمان إذا ما اعتبرنا السينما التي تتناول الهمّ الإنساني بكل تفاصيله هي أداة التعبير التي لا تقل أهمية في أحيان كثيرة عن المسرح، إذا ما جردناها عن أفلام الفنتازيا التي بمجملها هي أفلام تجارية أكثر منها فنا هادفا.

ما هو المسرح؟

قبل أن نلج ثيمة الموضوع الذي نحن بصدده، ينبغي أن نلقي نظرة تاريخية على المسرح وأهم مراحله ومكوناته وكل ما يتعلق به.

من الأهمية بمكان أن نعي الدور الخطير الذي لعبه ويلعبه المسرح في مدّ الحياة بوعي مغاير لليومي لخلق الأرضية السليمة لإشاعة الثقافة ولغة التسامح وبناء الانسان، وهو في ذات الوقت رافد أساسي لإحداث نقلة نوعية في بنية الوعي الإنساني، وخير دليل الجملة الخالدة التي قيلت كتحد لمن يستهين بدور المسرح ووظيفته الهامة، "أعطني خبزا ومسرحا أعطيك شعبا مثقفا".

وهنا تكمن عظمة المسرح وخطورة دوره الذي كم أخاف الطغاة لأنه فن التحريض بامتياز لهدم البنى الرثة وخلق البديل الفكري لمجتمع يغاير المألوف ويعج بالحراك الثقافي والفكري ويمتاز بنبل الأهداف ونقائها.

نبذة تاريخية عن المسرح:

تعتبر علاقة المسرح بالطقوس الدينية من أقدم الوشائج وأهمها كبدايات أسست لروافد أخرى مكونة للمسرح القادم، وتعتبر الدراما الإغريقية هي الأصل في التأليف

المسرحي وطقوس التدين البدائي والعبادة مثل التقرب من الإله ديونيسوس أو باخوس في الميثولوجيا الإغريقية وهو إله الخمر وملهم طقوس الابتهاج والنشوة عندهم، بوضع الأقنعة على الوجوه والرقص تخليدا واحتفالا بذكراه قبل أكثر من ألفي سنة. كانت الأناشيد الدينية تؤدى من طرف ممثل واحد، ويعدّ سوفوكليس ويوربيدس واسخيلوس من أهم وأكبر كتّاب التراجيديا، لكن الكنيسة عارضت المسرح وحاربته بشدة وعاملت مريديه بقسوة، لينتكس هذا الفن الإنساني لفترة طويلة ولم ير النور ثانية إلا في عصر النهضة، حيث بدأت حركة إحياء العلوم والفنون وبعد أن تحررت العقول من وصاية السلطة الدينية وتعسف الكنيسة ورجال الأكليروس.

وكان المسرح القديم يتوزع بين: المسرح الشعري والتراجيدي "مثل عرض مسرحيات عن آلام المسيح" مسرح الملهاة، المسرح الهزلي، ومسرح المسلاة التي تتمثل في الرقص والغناء لإشراك الجمهور أثناء العرض. وفضلا عن ذلك، هنالك أنواع مسرحية أخرى قد لا تكون معروفة للمتابع والمشاهد معا وهي من الغرابة وغير المألوف في المسرح الذي نعرف مثل:

مسرح النو الياباني الذي يرجع عهده أصلا للقرن الرابع عشر قبل الميلاد، يرتدي الممثلون الأقنعة ولغة الخطاب بين الممثلين بنفس نبرات الصوت تصاحبهم فرقة موسيقية مزودة ببعض الآلات التقليدية وتنتصب خشبة المسرح في الهواء الطلق ولهذا الفن المسرحي نكهة خاصة. ثم مسرح الكابوكي الياباني كذلك الذي يتشكل العرض فيه من غناء ورقص وحذاقة، حظي هذا الفن بشعبية كبيرة وكان محصورا في بداياته برجال البلاط والنبلاء. وهناك مسرح خيال الظل التركي والعربي، ومسرح شعر التأبين الفارسي، أما المسرح العربي فبداياته كانت منذ القرن التاسع عشر حين استمد رواده تجربة المسرح الغربي. وسنأتي على تفصيل بعض هذه الأنواع.

كانت بدايات المسرح العربي تتمثل في الرقص، عروض الأطفال الساخرة مثل قرقوش، وقرقوش هذا تركي الأصل ويعني النسر الأسود، واسمه بهاء الدين، وكان خادم صلاح الدين الأيوبي فأعتقه، وله مآثر كبيرة وكثيرة في مصر وقد ظلمه الناس كونه معروفا بأحكامه العجيبة ونسميها اليوم بأحكام قرقوش. ومن باب الطرفة نذكر واحدة من عشرات مستملحاته تلك هي "حكي عن قرقوش أنه نشر قميصه فوقع من على الحبل فتصدق بألف درهم، وحين سألوه عن هذا الفعل الغريب قال "لو كنت لابسه وسقط بي لانكسرت"، ثم مسرح خيال الظل، المقامات، السير الشعبية، كالزير سالم وعنترة، ثم هناك مسرح البساط وصندوق العجائب.

وتأسست البدايات الأولى للمسرح العربي في لبنان وسوريا، وكان معظم النصوص مستنبطا من الكتابات الغربية لإعدادها للمسرح ومن أشهرها مسرحية البخيل لموليير. وكانت العروض تقدم في الملاهي والمقاهي والملتقيات الشعبية والساحات العامة وغيرها.

وهناك فرق بين المسرح والمسرحية، فالمسرحية هي النص المكتوب أما المسرح فهو خشبة العرض.

أنواع المسرح:

ولكي نلم بشكل جزئي بهذا الفن الخالد ينبغي ألا نغادره دون أن نعرف أنواعه في عجالة، حيث تتعدد أشكاله من حيث إتباعه وإبداعه، فكانت بداياته تعتمد على التراث، وهناك من اعتمد على الاقتباس بتوظيفات محلية، لا تعدو كونها تجارب لا تخلو من الاجتهاد والمثابرة وبداية التأسيس الأول.

المسرح الاحتفالي:

باستحضار الموروث، تصوفا وأدبا وسيرا شعبية وباستلهام شخصيات تراثية تستوطن مخيلة المتلقي الشعبي، ومن أمثلة مريدي هذا النوع من المسرح عبد الكريم برشيد ومسرح البساط للطيب الصديقي وأحمد الطيب ولعل جو المقامات للمسرحي العراقي قاسم محمد ثم الفنان بدري حسون فريد في مسرحيته اضرار التبغ لتشيخوف وغيرهم خير دليل.

المسرح التراجيدي:

اعتمادا على البطل وما تعترضه من صعاب ومحن تجعل من المشاهد مشاركا فعليا في وجدان العرض.

المسرح الذهني:

وهو مسرح تجريدي يعتمد على الأفكار الذهنية. يحتاج إلى متلق يمتلك وعيا مطلوبا لفهم العرض وملابساته.

المسرح الكوميدي:

بسخريته السوداء التي وللأسف حولها المسرح التجاري إلى مهازل ضاحكة لا تعدو كونه مسرحا ماسخا، خلاف المسرح الكوميدي الذي يطرح موضوعات تلامس الهم الإنساني بأسلوب ضاحك وراق يحترم ذائقة المتلقي.

المسرح الفردي:

وهو نوع من المسرح التجريدي يعتمد على المونودراما والممثل الواحد الذي يقوم بعدة أدوار في عرض واحد، ويعدّ المبدع عبد الحق الزروالي خير مثال في مسرحنا العربي. وكذلك الفنانة القديرة ثريا جبران. ومن الجدير بالذكر أن هذا النوع من العرض يمكن أن يعتمد على ممثلين آخرين ولكنهم يظلون طيلة العرض صامتين وليس لهم الدور في الكلام.

المسرح الميمي:

يعتمد العرض على محاورة الجسد بالاستعارة دون توظيف الحوار وهذا فن تعبيري يوظف لغة الجسد التي تحتاج إلى نباهة ووعي وفهم حقيقي لقيمة العرض.

المسرح المرتجل:

وهو المسرح داخل المسرح، بمعنى أنه يتناول قضايا تهم المسرح لطرح مشاكله وهمومه، وهو طرح حقيقي لفهم ماهية المسرح، وخير علم في هذا المجال هو المرحوم محمد الكغاط. والمبدع عبد الكريم برشيد في مسرحيته الشهيرة "عطيل والخيل والبارود".

المسرح التجريبي:

يعدّ هذا الفن ثورة داخل المسرح التقليدي لهدم السائد والمألوف في العرض، ويعتمد الجرأة في طرح القضايا التي تعدّ من المحظورات كالدين والسياسة وقضايا الفكر الإنساني وهمومه، بتناول نقدي بعيد عن الاسفاف والسطحية.

مسرح العبث: أو مسرح اللا معقول:

يعدّ المتابعون لهذا النوع بأنه اللا مسرح، ومن أهم أسباب ظهوره هو العبث السائد في الحياة اليومية بسبب الحروب والويلات التي تسببها بلا طائل، وذلك بضياع القيم والأخلاق وسديمية الرؤيا، ويمكن أن يكون العرض بدون خشبة، ويقام في غرفة أو قرب صخرة أو الجلوس على كرسي، إنه مسرح فلسفة العبث. ومن أشهر رواده البير كامو وصموئيل بيكيت.

المسرح الموسيقي:

هو خليط بين التمثيل والغناء كفن الأوبرا والباليه والرقص وغيرها. وأفضل مثال هو العروض التي يقدمها مسرح البولشوي الشهير أو "المسرح الكبير" في موسكو.

مسرح الدمى وخيال الظل:

وهو موجه للأطفال، وما أحوجنا أن نركّز على هذا النوع من المسرح التربوي لتهذيب ذائقة الأجيال لزرع قيم نبيلة ونخلق لديهم الحافز المعرفي لفهم الحياة. وهناك قصور كبير في هذا المسرح الذي اعدّه هو الأساس في تهذيب وتربية الأجيال وزرع العشق

الحقيقي في نفوسهم للمسرح، إذا ما أردنا أن نخلق أفواجا جديدة من الشباب عاشقة فعلا للمسرح كفن سام وراق يهذب الذوق ويحقق نوعية فارزة في الوعي.
وما ينبغي الإشارة إليه بالقول وبشكل يحز في النفس، الغياب المخجل لدروس الفن والموسيقى والتشكيل في مدارسنا بكل مراحلها، الأمر الذي أدى إلى كساد الذوق وعدم إشغال التلاميذ بوقتهم الثالث الذي يعدّ من أساسيات التربية والتعليم، الأمر الذي أدى إلى التشتت وانعدام الذائقة الفنية لدى التلاميذ، وها نحن نحصد مستوى التردي في التوجيه. علما أن هناك مواهب كبيرة لدى جيل الشباب وحتى الصغار منهم ينبغي احتضانها ورعايتها والتركيز على الموهوبين منهم، وهذا من خلال تجربة شخصية كمربي لأكثر من أربعة عقود. ولكن القصور في فهم من يتسيّد القرار الثقافي والتربوي والتعليمي في وطننا العربي، هو السبب الرئيس والمؤلم في خلق بون كبير بين فن المسرح والفنون الأخرى، وبين الأجيال الضائعة.

نبذة عن تأريخ السينما:

السينما لم تنشأ كفن في بدايتها بل كصناعة تسابق عليها الكثير من المهتمين بالبصريات، ومن ثم تم عدّها الفن السابع في تراتبية بقية الفنون والأجناس الإبداعية، وهي من الفنون الحديثة مقارنة بالمسرح، مرت بمراحل عديدة من التطور والاختبارات ارتبطت بالتطور التكنولوجي الهائل في جميع مناحي الحياة، ابتدأت السينما بالبصريات والاضاءة والفيزياء والكيمياء مثل محاولات العالم اديسون صانع الكنتوسكوب "الة لعرض اشرطة السيليلويد"، مرورا بالمصباح السحري، وانتهت بآخر الابتكارات من حيث التصوير والإخراج والملابس والتحضيرات المختلفة، وتعدّ السينما صناعة التصوير المتحرك، منذ العبقري ليوناردو دافنشي واضع أسس علم البصريات، وقبله العالم البصري الحسن بن الهيثم، مرورا بالرائد في علم التصوير الفوتوغرافي الفرنسي نيسيفور نيبسي، ماندة داكير، نيوتن، الفارس دراسي، هورنر، الذي بشر بولادة الفيلم، والعديد من الأسماء التي تركت بصماتها في المراحل الأولى لصناعة السينما. واستطاع الأخوان أوجست ولويس لوميير من إقامة أول عرض سينمائي، أو سينماتوغرافي في مقهى "كراند كافيه" في باريس في 28 ديسمبر من عام 1895.
ولا نريد أن نستطرد أكثر بذكر أنواع السينما وأهم الأسماء من مخرجين وممثلين ومنتجين وفنانين كبار وكتاب وغيرهم في هذه العجالة والتي تقتضي وقتا طويلا. كذلك أهم المراحل الحاسمة في إحداث نقلات نوعية في السينما وخصوصا الأمريكية، ابتداء من الفيلم الصامت ثم الناطق بالأبيض والأسود إلى الفيلم الملون والشاشة ثلاثية الأبعاد وآخر صرخات التقنيات المذهلة التي عاشتها السينما عبر مراحل تاريخية هامة ومحطات مذهلة من التغيير، وصولا إلى ما نحن عليه اليوم. فلهذا الأمر شأن آخر.

ما الفرق بين السينما والمسرح:

يعدّ المسرح من أهم الركائز التي اعتمدت عليها السينما من تقنيات عرض وممثلين وإخراج وملابس وديكور وما سواها، بعد أن خضعت كل هذه المكونات للتحديث المستمر حتى وصلت لأرقى حالات الابتكار التي تحولت الى صناعة وطنية تدر للدول موارد مالية طائلة.
ويعدّ السيناريو من أهم المصادر التي اعتمدتها السينما وأبلغها، لأنه يعتمد على الحوار الذي يعدّ من أساسيات العمل السينمائي بعد أن تجاوزت مرحلة الأفلام الصامتة بمختلف معالجاتها الإنسانية والتاريخية والاجتماعية.

كانت وما زالت السينما تعتمد على آليات تحويل النص المكتوب إلى شريط سينمائي اعتمادا على التجارب المسرحية التي أسست لهذا الرافد الأساس في التحضير للعمل الدرامي.

لا بد هنا من اعتماد معايير فنية وتقنيات في الكتابة لتحويل عمل ما الى عمل آخر تكون محكومة بمعايير اجناسية، أي التفريق بين جنس ابداعي وآخر والتوليف بينهم جميعا، للاشتغال عليهم وتحويلها من حالة إلى أخرى، بفطنة العارف بأدوات الاشتغال، وهذا يتطلب مهارة وكفاءة عاليتين في تقنية العمل والتحضير له. مثال ذلك تحويل الأسطورة أو الملحمة أو العمل الروائي من نص محكي إلى عمل مسرحي، وبالتالي اقتناص هذا العمل وتهيئته للسينما، ولدينا المئات من الأمثلة التي وحّدت العمل بين الفنين بقوة، قبل أن يحدث التطور الهائل الذي وصلت له صناعة السينما في عصرنا الراهن من تقنيات عالية الجودة والابتكار من تصوير بأبعاد مختلفة ومهارات في التحضير للمشاهد لتكون موائمة للمشهد أو اللقطة وإدخال تكنولوجيا هائلة التقدم بعبقريات مذهلة، وكأننا نشاهد الحدث كما لو كان أمامنا بكل تفاصيله، وما فيلم تايتانيك إلا مثال بسيط لما ذهبنا إليه.

هنا نعود إلى كيفية تحويل النص المسرحي للسينما الذي يتطلب قيما دلالية وخلقا جديدا، قد يكون مغايرا بالمطلق لما هو في العرض المسرحي، بمحاذير كثيرة في حالة النقل بدلالات مختلفة.

توخينا الحذر في هذا التناول الذي يتطلب خبرة عملية لا اعتمادا على تسطير الأفكار المجردة على البياض، وعليه لا ندعي الباع والتجربة بقدر ما نترك بصماتنا الشخصية كمشاهدين وعاشقين للفنين معا، السينما والمسرح، والسعي لإمكانية المقارنة، سيما بالنسبة للمتلقي الذي سبق له أن قرأ النص كمطالعة شخصية في كتاب، ليشاهد ذات الأحداث التي انشدّ إليها وعاش لحظات من المؤانسة والمتعة من خلالها، وهو يشاهد عرضا مسرحيا لذات العمل، ثم توظيف العمل المسرحي او الروائي في عمل سينمائي لتوافر ثلاث حالات تقود للدهشة والإمتاع، تلك هي قراءة العمل في الكتاب المطبوع، ثم مشاهدة العرض المسرحي، وبالتالي تحقيق المتعة الأكبر في مشاهدة ذات العمل في السينما، وهنا يلاحظ المتابع ثلاثة مستويات من العرضين ولكل معاييره وتقنياته وآلياته، وهذا المنحى يُحقق قمة الانتشاء والتعامل مع اللحظة بغاية التوحد، ليعود المعني وكأنه جزء من الابتكارات الثلاثة، وما أعمال شكسبير ومسرحياته التي انتشينا بقراءتها، لنشاهدها مشخصة بكل مراراتها وتفاصيلها وهمها الإنساني على الخشبة، لتأتي السينما وتقتنص ذات العمل، لنعيش حالات أخرى من التوحد الأكثر قربا مع العمل، ونشعر حقا بالمتعة المبحوث عنها، وبالتالي يتحول المتلقي الفطن طبعا، إلى ناقد صارم للعمل، فهل أن نقادنا بهذا المستوى من التفرغ والمتابعة الجادة، بدل أن يسطّحوا الرؤية للعمل من وجهة نظر يتيمة وأحادية الفهم، وبالتالي يفسدون العمل بقصدية سيئة على المشاهد، وهذا الكلام من خلال تجربة شخصية قد يتفق معه بظني الكثيرون ممن مروا بذات الحالات في الكثير مما قيل. مع التأكيد على وجود نقاد كبار أضافوا كثيرا لقيمة الأعمال بقراءاتهم وإعادة ولادتها من جديد، دونما مساس باجتهاد الفنانين المبدعين الذين هم بحاجة إلى رؤية من خارج العمل، ليتكامل الجهد ويتحقق العطاء المطلوب، ولا أتكلم هنا عن الطارئين ومن ابتلى بهم المشهد الإبداعي وبقوة وتناسل خطير.

ينبغي أن نذكر أيضا ونحن نمر على السينما والمسرح بهذه العجالة، أن هناك بونا شاسعا بين العرض المسرحي والعرض السينمائي، كون المشاهد المسرحية تكون أكثر وقعا

لقربها من المتلقي وتنسم أنفاس العرض بممثليه الذين يسعون للتداخل مع الحضور وايصال الرسالة بمحاذير وانتباهات ومعايشة راهنة تتحكم بها لحظة العرض لتوافر المكان والزمان اللذين يعتبران من مكونات العرض المسرحي الأساسية، وملء المسافات الفارغة التي ينبغي على الممثل المتميز والمخرج المجرب أن يسعى لردمها بين العرض والمشاهد ليتحقق هدف العرض الناجح، وحين يصل الممثل لهذا المستوى بحرصه الشديد للعرض، يشعر بالانتصار الفعلي الذي له طعم خاص وإحساس كبير، وهذا هو الانتماء الحقيقي للخشبة وللفن المسرحي برمته، بخلاف السينما بعرضها غير المباشر في التواصل مع المتابع والتي تمنح الممثل الحرية في إعادة المشاهد مرات ومرات، الأمر الذي لا يكون متاحا لممثل الخشبة الذي يتحمل مسؤولية كبيرة في العرض دونما فواصل زمنية، وتلافي المثالب التي قد تحدث من حين لآخر، وهنا يأتي دور الملقن الذي لم يعد متواجدا في العرض المسرحي، الآن لما وصل إليه المستوى الراقي لتكوين الممثل الذي هو بدوره فن بحد ذاته.

يجب الإشارة أن للزمن في تدوين السيناريو للمسرح حالة مغايرة عما هو عليه في السينما، من حيث الإخراج والتوظيف الدرامي، لأن الزمن في المسرح منكمش، بمعنى أنه محدد، في حين يكون واسع التمدد في السينما، حيث الاعتماد كليا على تقنية كتابة الصورة. مع الإشارة كذلك أن العرض المسرحي قد يكون زمنه أكثر طولا مما هو عليه في العرض السينمائي.

وهنا يمكننا أي في هذا الصدد الاستشهاد بما يقوله المخرج الياباني الحائز على جائزة الأوسكار والسعفة الذهبية في مهرجان كان، وكاتب السيناريو المعروف، والأكثر شعبية في العالم، أكيرا كوروساوا عن أهمية مشاركته في كتابة سيناريو الأفلام التي يقوم بإخراجها: "لا يمكن للمخرج الجيد أن يصنع فيلما جيدا من سيناريو رديء بأي حال من الأحوال."، وهو يرى أن كتابة السيناريو جزء أساس من خلق أفلامه، مصرا على أن "جذور أي مشروع فيلم بالنسبة لي هي حاجتي الداخلية لكي أعبر عن شيء ما، والذي يغذي هذه الجذور ويجعلها تنمو لتصبح شجرة هو السيناريو. والذي يجعل الشجرة تطرح زهورا وفاكهة، هو الإخراج." وهذا توصيف فني في غاية الموضوعية والفهم المدرك لدربة المبدع العبقري.

ينقسم الزمن في الفن والأدب إلى زمن جمالي وزمن تأملي وزمن موحى به، بحسب رؤية المبدع ودربته وبحسب لحظة الإبداع اعتمادا على "الاسترجاع الزمني"Flash Back الذي يتطلبه العمل ليخلق وشائج عمل وتوحد أساسية لأي جهد إبداعي وبطبيعة الحال نحن بصدد المسرح والسينما وما للزمن من أهمية بكل أبعاده من أهمية للمخرج الذي يفهم ما يريد قوله لتوظيفه بعناية في العمل.

مسألة هامة أخرى تلك هي أن الفعل داخل الحدث، سينمائيا كان أم مسرحيا، من أهم ما يشغل كاتب السيناريو، بعيدا عن السرد الذي تتصف به الكتابة الإبداعية، لان التوظيف في كل حالة مختلف عن غيره، تبعا لمتطلبات العمل، وهنا ينبغي أن تتوفر في المخرج المسرحي أو السينمائي ما يكفي من الوعي الفكري وفهم حيثيات العمل الذي يشتغل عليه، لأن لغة الكلام تتحول إلى لغة مرئي ومسموع مع التشدد بقوة على الهدف الأساسي للحبكة في خلق روابط وأسباب أساسية للعمل الناجح. مع توافر المرونة المطلوبة في كتابة السيناريو لمعالجة الزمان والمكان من قبل كاتبها، وهنا يتبين مدى خطورة السيناريو وتأسيسها لنوعية العمل، طبعا يأتي ذلك بالترابط مع بقية أجزاء العمل من اخراج وتمثيل وسينوغرافيا

وديكور وملابس وغيرها من أساسيات العمل الدرامي.
اشتهر الفنان الراحل المبدع قاسم مطرود "الذي تشرفت بترجمة مسرحيتين له هما: موتى بلا تاريخ ورثاء الفجر" إلى اللغة الإنجليزية، بتقنية كتابة الصورة في النص المسرحي الحداثي بتداخل النص المسرحي مع كتابة السيناريو ليدفع ببعض النقاد بتوصيفه بـ "سينمسرح" بتوليفة فاطنة لطبيعة العمل وما يريد المبدع فعله وبذهنية المستوعب للفنين معا بطريقة لافتة.
وكمثال لما قام به الفنان الراحل قاسم مطرود، سيناريو مسرحية (حوار المصاطب) التي توزعت بحبكة فنية متشابكة ومتناسقة مع النص.
(النص ـ الشخصيات – الجمهور– الرجل الأول – الرجل الثاني العازف – الرجل الثالث – الرجال الثلاثة في سن التقاعد)

تكوينات الشكل المسرحي:

الإطلالة الأولى:

مصطبة عادية في شارع عام تتوسط خشبة المسرح وأسفلها صندوق مقيد بالسلاسل مربوط بطرف من أطراف المصطبة.
إلى الجانب الأيسر هناك مظلة لمنطقة الحافلات، نصفها على خشبة المسرح والضلعان الآخران ينزلان إلى قاعة المتفرجين ومثبت في أعلاها قطعة دوّن عليها أرقام الحافلات.
يفضل أن تكون الأرقام هي ذاتها أرقام المدينة التي يقدم فيها العرض المسرحي.
في الجهة اليمنى من خشبة المسرح يوجد عمود إشارة ضوئية. تركن بجانبه سلة نفايات من النوع الذي يثبت في الشوارع العامة.
وقد أذهل هذا التوظيف الجديد المسرحي السينمائي، الكثير من النقاد والمتابعين وللأسف لم يجد العناية الكافية لتحويله للسينما برؤيا جديدة ومغايرة للمألوف.

خاتمة:

من صيغة السرد إلى صيغة العرض، هنالك صيغتان تهيمنان دائما على إنتاج النص الروائي هما:
صيغة السرد الذي يرتكز على وعي السارد، وصيغة العرض، وعادة ما توظف هذه الصيغة في الكتابة المسرحية.
بمعنى أن العمل الأساس لتهيئة النص الروائي للسينما لتحويله إلى فلم سينمائي، هو تحويله إلى جملة من المشاهد التي تحتوي توصيفا للحركة وما تشتمل عليه من حوار ثم أن مصادر السيناريو ليست الرواية فقط، فهناك مصادر أخرى منها النصوص الأصلية التي يكتبها كتاب السيناريو أنفسهم مستلهمين الواقع أو المخيال أو غير ذلك، وهناك مهرجانات سينمائية تحتفي بسينما المؤلف مثل مهرجان الرباط السينمائي. وكذلك يمكن التحضير لمجموعة من الحوارات بتحديد الشخصيات بدقة من حيث الحركة والمكان وهذه التحضيرات بمثابة التوظيف المطلوب للنص الروائي، ولكن ضمن معايير موضوعة تعتمد على دربة السيناريست ووعيه ومدى تفاعله مع الأحداث والعمل على ضغط الأحداث ضمن الزمن المسموح به دون أن يتجاوز الهدف الذي يريد السارد إيصاله للقارئ أو المتلقي.
وهذا لا يعني أن يلتزم السيناريست بالمطلق بالنص دون أن يترك لمساته الشخصية والتي تعتبر تدوينا مكملا للعمل، بإضافات تخضع للتأويل وبالتنسيق طبعا مع الكاتب والمخرج، بتواصل يهدف إلى التكامل الكلي وصولا لحصول التميز المطلوب للعمل.
والجدير بالذكر أنه ينبغي أن يتشكل فريق عمل، لأن العمل السينمائي الذي يتطلب جملة من الشروط والتقنيات هو عمل جماعي، لتحقيق رؤية موحدة.

ومن أهم كتاب السينما المبدع الفرنسي مارسيل مارتن، الذي يقول بهذا الصدد، "إن المكان في السينما والمسرح ينبغي أن يكون خاضعا للحدث ليتحول إلى وسيلة وليست غاية تشكيلية" بمعنى أن "الزمن يعود خاضعا للغة المكان لخلق الحيز الحيوي بطريقة تشكيلية متحركة لحصول التفاعل بين المكان والزمان" في منظور مارتن.

كيف يمكننا تكييف النص الروائي وتحويله إلى سيناريو؟

كثيرا ما يكون السرد عائقا في تحضيره للسينما لطغيان لغة الحكي التي قد تطول بشكل لا يوائم والاشتغال على السيناريو، وبالتالي لا تتواءم والعمل السينمائي، وهنا يأتي دور السيناريست بتبئير النص الروائي ليكون ميسرا مع ما يريد كاتب السيناريو الاشتغال عليه، فهنالك أعمال روائية هامة كان من الضروري تحويلها لأعمال سينمائية لأهمية تناولها لموضوعات تحاكي الواقع المعاش بكل تفاصيله بتناول متميز وغير مسبوق، على سبيل المثال رواية الراحل جبرا إبراهيم جبرا "البحث عن وليد مسعود"، والتي عدّها النقاد من الأهمية، بحيث أنها شكلت انعطافة مهمة في الكتابة الروائية العربية، من حيث بنائها الدلالي وشكلها وتصديها لحالات تلامس القضية الفلسطينية، إلا أن تحويلها لعمل سينمائي واجه صعوبات جمة، منها شكل بنائها الدلالي، وكثرة الساردين فيها الذين بلغوا سبعة ساردين، الأمر الذي أدى إلى حدوث اشتباكات في السرد، حال دون تحويلها لسيناريو معد لعمل سينمائي.

تنسحب هذه الحالة كذلك على رواية الراحل عبد الرحمن منيف "مدن الملح" بأجزائها الخمسة، والتي تعدّ من الأعمال الروائية التي يشار لها بالبنان لجرأتها في التناول الجاد والموضوعي، والتصدي لواقع عربي بكل ملابساته وغرائبيته، ولكن كثرة محطات الرواية وتعدد موضوعاتها وتشعبها، وطول السرد الذي قد يصل إلى صفحات طويلة، لكثرة التداخل على لسان السارد حد التمدد وتشتت حالات السرد بما يستعصي على السيناريست جمعها بشكل سيناريو يحمل موضوعا واحدا لتوظيفه للعمل السينمائي، إلا اللهم القيام بإحداث تغيير كبير في بنية العمل الروائي وهذه من الأمور العسيرة لأسباب كثيرة.

يبقى الحل الوحيد في مثل هذه الحالات، لتحويل هكذا نصوص روائية مهمة، هو استيعاب العمل الروائي ذهنيا من أجل الاختزال ومن ثم العمل على خلق حضور ذهني وفق مفاصل اشتغال من قبل كل من السيناريست والمخرج، وهذا ليس بالأمر الهيّن، لأنه يحتاج إلى مواهب وكفاءة عالية في الكتابة وتكييفها للسينما.

شمران الياسري ..
تجربة صحفية متفردة *

د .باقر الكرباسي

دكتوراه في التراث من جامعة الدول العربية/ معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا عام 2005 . استاذ في جامعة الكوفة ـ كلية التربية الأساسية ـ قسم اللغة العربية .
عضو نقابة المعلمين، واتحاد الادباء، واتحاد المؤرخين، ومجلس السلم والتضامن، وحاليا رئيس اتحاد أدباء النجف الأشرف .
نال عام 2010 قلادة المؤرخ العربي (اتحاد المؤرخين العرب) .

يقول الراحل أبو كاطع: (كانت أمي تحسن قراءة القرآن فقط، والغريب انها كانت تقرأ القرآن جيداً، ولكنها لا تعرف قراءة سطر واحد من كتاب آخر، ولا تعرف خط اسمها، ومع ذلك علمتني قراءة (جزء عمّ) وحين امتلكت مفاتيح تركيب الحروف علّمت نفسي الكتابة).. نعم علم نفسه الكتابة، وقرأ وكتب، وتأثرّ وأثرّ....

كان شمران الياسري ظاهرة فريدة أنتجتها التحولات الكبيرة في فترة صباه وشبابه، فاختمرت مع ما يملكه من مواهب متعددةٍ ورؤى صافية والتصاق بالأرض وفكٍ لرموز هموم الناس وفهم مسبق للصراعات الاجتماعية والسياسية، فكانت جاذبية النص عنده ورؤاه إجادة في وصف الصراع الطبقي عبر ما كان يحمل من قدرةَ على استثمار آليات الخيال لديه وفق نسيج لذاكرة ريفية تحمل جلّ ألوان العذاب والحرمان للمجتمع كله مع نخبة مترفة متعالية تحصد اتعاب الناس كما وصفها الشاعر الكبير الجواهري عام 1944م قائلاً:

لكنَّ بي جنفاً عن وعي فلسفةٍ
تقضي بأنَّ البرايا صنفّت رتبا
وأنَّ من حكمةٍ انْ يجتني الرطبا
فردُ بجهد ألوف تعلكَ الكرَبَا

اصدر أبو كاطع صحيفة محليةً سرية اسمها – صوت الفلاح – مع أربعة فلاحين ومهندس زراعي في مشروع الدجيلة الزراعي، هكذا كانت البداية مع الصحافة وقبل ان ينتمي الى الحزب الشيوعي العراقي، وفي عام 1958م وبعد ثورة 14 تموز عمل في بغداد وكتب في صحف عديدة منها صوت الأحرار والبلاد والحضّارة إضافة الى برنامجه الإذاعي الذائع الصيت، كما اصدر في فترة تخفيه عن السلطة من عام 1963 الى عام 1968 صحيفة الحقائق وهي نشرة خاصة أسبوعية لمنظمة الكوت المحلية، وكتب بعد عام 1968 في صحيفتين التآخي وطريق الشعب وكذلك في الفكر الجديد وكان مديراً لتحرير مجلة الثقافة الجديدة، ومن خلال عموده في طريق الشعب كان الناس يعرفون حقيقة الأوضاع في البلاد.

يقول عزيز السماوي وهو يصف هذا العمود الأثير: (كان عموده مجساً .. مرهفاً.. حلواً

شفافاً، رغيف خبز ساخن، ثراً بالحكايات والأقاصيص...الحكم والأمثال، الشعر والمفارقات كلها ممزوجة بسخرية حزينة تمس شغاف القلب والعقل معاً بتوحد ندر مثيله في عالم الصحافة...). اما برنامجه الاذاعي (احجيهه بصراحه يا بو كاطع) كان من اشهر اعماله بعد الثورة ويقول عنه السماوي ايضا: (كانت طريقته الإلقائية لحكايات القرى والأرياف ساخرة ومريرة، تحمل شيئاً كثيراً من الرفض والتحدي مجسداً تلك الحكايات بروح البطولة والتحذير من انحراف المسيرة والدفاع عن الفقراء)، لكن البرنامج توقف واعتقل ابو كاطع عام 1962 اثر توقيعه على نداء السلم في كردستان، وكان الكرد ينتظرون اذاعة البرنامج مثلما ينتظره فلاحو الجنوب والوسط حسب حديث الاستاذ فلك الدين كاكائي الوزير الاسبق للثقافة في كردستان.

انفرد أبو كاطع بفنه الرفيع هذا.. واقصد كتابته للعمود – وهو اسلوب مقالي بلغة عامية مفهومة، كان يشخص كثيراً من الحالات السلبية بنتاقضاتها وشخوصها وأبطالها، اذ ان كتابته هذه أصبحت سمة مميزة من ميزات ادواته الإبداعية.

خاطب ابو كاطع العقل مستفزاً تارة، مهاجماً ومستفهماً تارة أخرى، كان يكتب بإحساس مرهف مثير يأخذ انتباهة القراء الى ما خالطته عجينة الأرض بروح الصبر وحلم المعوزين ورغبة الآملين في خلق نهضة للمجد يسترد من خلالها ابناء تلك الارض حقوقهم لينتجوا مجتمعاً لا طبقياً يعيشه الناس آمنين، انتج ابو كاطع شكلاً ادبياً وجدانياً ثقافياً منفرداً فيه بروح ابداعية يختزل اللحظات المهمة في عمق التاريخ فيصير منها نافراً متمرداً ومرتبطاً بآن واحد وبقوة بجذوره الريفية وفطرته الإنسانية وتوجهاته الاشتراكية، يقول الروائي الراحل غائب طعمة فرمان عن لغة ابي كاطع في صراحته: (لغة مضمخة بنكهة إنسان خبر حكايات العفاريت واشباحهم وعرف تقلبات الزمان وشقاءاته وأحابيل ذوي المصلحة، انه إنسان ثابت في ارضه يعرف كل شبر منها عاليها وسافلها، حلوها ومرها، مذاق ثمارها وملوحة عرق الكدح فيها).

كان أبو كاطع يكتب مجمل التناقضات الاجتماعية والسياسية بمفردة شعبية سهلة الوصول لمدارك الناس ،سبراً اغوارهم فكان لهم محركاً وموجهاً وشارحاً لهم نفوسهم بحكايات ذات نكتة وفكاهة تستمد نسيجها من موروث شعبي أساطيره وقصصه التي طالما هدهدت لنفوس اتعبها الواقع بكل تناقضاته وصراعاته، يقول الشاعر والناقد الأستاذ د.عبد الإله الصائغ وهو يتحدث عن الراحل شمران الياسري: (حال اولئك الذين حاولوا استنساخ تجربة شمران الياسري يدعو الى الرثاء حقاً، فهذا المبدع الجماهيري وان كان مدرسة يمكنها ان تخرّج عشرات المبدعين الملتصقين بالصدق قبل النجومية ولكنه عصي على الاستنساخ، فمن تأدب بأدبه استطاع ان يتكون وان ينمو ولكن الذي اراد سرقة تجربته صار مدعاة للشفقة قبل السخرية فلم تكن جاذبية النص الروائي عن الياسري بسبب لغتها الشعبية وهمومها الطبقية كما يتهيأ لبعض الدراسين، بل ان الجاذبية عائدة الى موهبة فسيحة ودربة صبورة لا تعرف الكلل والملل، ورؤية صافية لتحليل الاحداث).

كان ابو كاطع يستعرض بلغة ساخرة شفافة مقالاته التي تدخل وعي المتلقي على مراحله لتتحول الى مادة ثقافية يتناولها المثقف وغيره، اذ انه جسّد من خلال كتاباته الشهيرة شخصية ومعاناة الفلاح العراقي، وكان لهذه الكتابات الأثر البارز في الثقافة العراقية، يقول الكاتب زهير الجزائري عن كتابات الراحل شمران الياسري: (تعبّر

الحياة المألوفة اليومية عن نفسها بيسر بلا ملحمية ولا رمزية ولا اطناب او تعاطف خارجي وبلغتها اليومية الخاصة المزدحمة بالأمثال والمجازات والكنايات المأخوذة من نفس البيئة).

كان ابو كاطع في كتاباته يؤسس لهيكلية حسية تتموضع في ارض الرافدين وقراه لينسج منها احلى حكاياته بصوت ايقاعي من عمق الماضي، يلتقط منه صوراً رائعة (التقاطة المبدعين) لم تكن قريبة من اعين الآخرين.

وكان ابو كاطع يثير اسئلة كثيرة قد تبدو للسامع او القارئ انهّا اسئلة سهلة لكن الأسئلة السهلة هي اكبر الأسئلة وأخطرها، الحرية، الوفاء، المناصب، الإيمان، الالتزام، نكران الذات، حق العيش، التمتع بمباهج الحياة، الوجدان، والاستعداد للتضحية.....

يقول احد الكتاب عن كتابات شمران الياسري: (ما شكّل الذخيرة الابداعية للكاتب "ابو كاطع" هو هذا الحشد الفولكلوري من الحكاية والشعر الشعبي والغناء وأغاني العمل والتنويم والأعراس والمآتم والأساطير والمفارقات اليومية والهم السياسي)...

كان ابو كاطع يعبّر عن افكاره بشخصيات شعبية مرحة تتشكل معانيها أمام ناظر المتلقي ودودة حالمة.. انه ذلك الصحافي الذي غادر المألوف ليصنع له نمطاً اسلوبياً يشيع من خلاله قيمه وأفكاره وقدرته على خلق أسئلة تحاورية يفتح منها آفاقاً للحرية والانعتاق كاسراً دوائر الانغلاق السائد آنذاك، وكما كان أبو كاطع صحافياً وروائياً كان إعلامياً ناجحاً ينهل من الموروث ما يورد في حكايات إذاعية تنتظرها آذان السامعين تسافر مع مخيلاتها في أسفار تتشكل في وعي السواد الأعظم خطوطاً ورسومات توجه ذواتهم نحو الرفعة وضرورة التمعن فيما يدور ويدار من حولهم.

وأخيرا.. ما كان الناس يجدونه في (ابو كاطع) بعموده، صحافياً يقول كلمة حق بشأنهم، بل كانوا يجدون مكدوداً، متعباً مثلهم، ابنهم الذي لم يتنكر لهم، لسان حالهم الذي لم يتعلم المحاباة فيما يتعلق الأمر بـ (حجاية الصدك)، كان خصومه في السلطة وخارجها يقرأون عموده ليعرفوا مواطن الضعف والخلل في سلطتهم وأشخاصهم، وليجسوا نبض الشارع، ابن المدينة والريف على حد سواء يقرأ هذا العمود، بما فيهم من لا يجيد القراءة والكتابة اذ ينصتون لأحدهم في الدواوين، تماماً مثلما كانت حكاياته في الإذاعة، لغة رصينة محكمة البناء، ليست مفتعلة، فضلا عن بساطتها وسلاستها وبنائها التكنيكي الرصين...

رحل ابو كاطع ولم يترك من يتحدث لنا بصراحته المعهودة، ما أحوجنا إلى الصراحة في كل زوايا حياتنا وفي كل شأنٍ من شؤوننا.

---

* ورقة بحثية ألقيت في ندوة كلية الآداب بجامعة واسط عن شمران الياسري.

مراجع الورقة البحثية:

- ابو كاطع على ضفاف السخرية الحزينة: د. عبد الحسين شعبان نادي الكتاب العربي / ط١/ ١٩٩٨م.
- شمران الياسري المنبع والمصب: غائب طعمة فرمان من مقدمة الرباعية / ج١/ دار بابل / ١٩٨٩م.
- مجلة الثقافة الجديدة، ع ٢٢٥، ١٩٩٣م (ملف عن شمران الياسري).
- مركز شمران الياسري للفكر والأدب/ انترنت.

لكن..
ليس للأرضية فم

شعر: لينوس غوردفَلت
ترجمة: عبد الستار نور علي/ السويد

لينوس غوردْفَلت Linus Gårdfeldt **شاعر سويدي من مواليد عام** 1981. **(لكنْ ليس للأرضية فمٌ)** «Men golvet har ingen mun» **هي مجموعته البكر صدرت عام** 2009. **وقد استُقبلتْ بحفاوة واندهاش من النقاد والصحف فكتبوا عنها وعن شاعرها، وأقاموا حوارات معه، ليصبح أحد الأسماء الشابة البارزة في الشعر السويدي.**

I
الأرضية
GOLVET

1

لاتوجد مصابيح هنا في الداخل، كلا، ولا مصباح،
فقط الأذن ويدان للضغط باتجاه الأرضية،
لكنْ ليس للأرضية فمٌ ولا يمكنها النطق

2

الغرفة صامتة، أنا هنا فحسب،
أتحرك داخل الغرفة لا مرئياً،
أبحث في الأدراج، أنظر إلى الخارج خلال النافذة،
أرى عيني ثعلبٍ تلمعان حيث يتلاشى ضوء النهار

3

يحدث هذا داخل الرأس،
حيث توجد أيادٍ في الرأس تجمع الأوساخ،
توجد أسماك أيضاً، لكنها تتخفّى،
تُنقَلُ منْ صدغٍ إلى صدغ في زوارقَ خاصةٍ

4

أحوكُ طريقاً خلال الفم إلى الداخل،

أرسم رأسي بطبشورةٍ فوق الأرضية،
أصواتٌ تتسربُ من حافات ألواح الأرضية الخشبية،
الأيادي تجيب حين يصيح جرو الثعلب

5

دافناً نفسه في الأرضية مصباً بدُوار،
مالئاً يديه بكل الأشياء الأخرى،
باب سريّ في الأسفل يفضي إلى شيء يحيا،
قلب خافق، عين مفتوحة على الآخر

6

كلّ شيء هناك في الأسفلِ يتهشم،
مثلَ كِسَرٍ من الرغيف حول الفم الجائع،
همهمة صاعدةٌ من أغانٍ منسيةٍ بعيدة،
فتحة في أرضيةٍ حيث تُقيم الحكايات

7

كي تتنفسَ في الفتحة، ابتلعِ الحكاياتِ،
واغفُ،
كنْ يقظاً وغنِّ حتى تنطفئ المصابيح

8

توتٌ أحمر ينمو من الصدر،
توت أحمر ينمو من الفتحة،
اليد تمتدّ مستقيمةً عبرَ الغرفة،
وداخلةً إلى غرفة أخرى

II

عملية قيصرية
KEJSARSNITT

1

الأسنان هي العيون، أرى نفسي كيف أقضم،
شيء يتكسّر، يندفع إلى الداخل،
أندفعُ خارجاً بواسطة خراطيم مطاطية،
أسقط بدورانٍ سريع بين ذراعي الغزالة

2

ذراعاي غير المغسولتين تتلمسان،
ساعاتٍ طويلةً، أذرعاً طويلةً،
ورق الجدار الأصفر حيث جرو الثعلب يحكُّ رأسَه

3

أرى كيف أنّ ذيل الثعلب يرتخي،
أرى كيف يرضع جرو الثعلب،
إنه يحكّ إذ انقطع الحبلُ السري لجرو

الثعلب

4

مُقمّط بالبطانية، الظلال هي التي تتجمع،
يتلمس بأصابعه حيث الرِجلُ الملساء مفقودة

5

كلُّها مُدُنٌ أصغر برئات أصغر، أقل عدد من المصابيح،
صور فوتوغرافية مُصفرّة، رأس أصفر،
أرى زهوراً صُفْراً مثلَ الوجوه في الماء

6

المدينة مستيقظة لكنْ لا أحد في الخارج،
البيوت، الأشجار، الشوارع تدور،
تدور حول الرأس، مفتوحة على مصراعيها،
يقظة

7

جرو الثعلب يمتصّ جفنَ الغزالة،
المدينة في الأسفل، كلّ الحقائب، أكداس الثلج،
نتخلّى عنها الآن،
الروائح تختفي ببطء عن الخارطة

8

حكاية ليلية من التراب وُضِعَتْ في يدي،
زهوراً صُفراً أمستْ الوجوه التي غنّتْ

9

وغنينا نحن،
الغرفة الكبيرة الثقيلة أخذتْ تضيق الى الداخل،
أصبحت رقيقةً حوالي جرو الثعلب والحكاية،
الآلة الموسيقية الرفيعة التي أُدخلت في الأذن كانت لها أصابع

10

رسمَ رجلٌ رسماً تخطيطياً في رأسي،
علّقَ سناراتٍ بالسحّاب وحبالَ غسيل بذراعيّ،
السماء مثل تنين قُدْتُـه في النوم،
العشبُ ضربَ رجليّ حين ركضْتُ

الشجرة
TRÄDET

1

شجرة في الجانب الثاني من البحيرة،
عندما يحلُّ المساءُ أراها بوضوح،
أراها مريضةً،
أعرفُ كلّ الألوان مرةً أخرى

2

نور خاص يفيضُ من الشجرة،
موسيقى صامتة من ألف عامٍ مضى،
التفاح يتساقط،
لا يجوز لهم أنْ يأكلوا

3

أسكنُ في بيتٍ على الجانب الثاني من الماء،
لا أنفاسَ، لا زوارقَ، لا أوعية دموية متصلة،
الماء يستلقي هادئاً، ليس متدفقاً،
إنه لا يحملني معه

4

أرى الشجرة،
الدماء تنبض بشدّةٍ في أوردتها،
للبحيرة رائحة الحليب،
لكنّ الفم لا يُمكن انْ ينفتحَ

5

البحيرةُ صدعٌ،
ثقبٌ في قماشٍ قد خاطه أحدهم،
أرى الشجرة،
إنها تصيرُ أصغر فأصغر

6

الضياء من مصابيح الجيب على الجانب الثاني من الماء،
لا شيء مفقود لكنهم مع ذلك يواصلون البحث،
لا شيء يشبه وجهاً يطلعُ من بين الظلام

7

البحيرةُ الآن فائقةُ الكِبَر،
أغصانٌ تدورُ داخلَ رأسي،
إنّها مثلُ دوّامةٍ من مسافةٍ تتمدّد

الحكايات
SAGORNA

1

الماء الأبيض يتعكرُ بالحُمرة
عندما أقّطعُ ظُهورَ السمكِ شرائحَ،
أسوحُ داخلَ الغابة المشرقة

2

صغارُ طيرٍ مُلقاةٌ مثل فتات الخبز في الخلف،
فكّا الثعلب تحتفلان حتى تصبحَ العظامُ
لامعةً

3

بيتٌ شفافٌ يضيء بين الأشجار،
أرى كيف تتكسر العيون هناك في الداخل،
تُطحَن إلى مسحوقٍ بعيونٍ مجروحةٍ،
تحكّ عينيّ حين أمشي عبر الغرف

4

ذيول الثعالب تومض في الزاوية،
هناك بقايا لفرو الثعلب على كثير من
المفروشات،
أعثر على بقايا يديّ في مختلف الأدراج،
كما لو أنني كنتُ مستعداً دائماً لرحلة
سريعة

5

يتسلّلُ خفيةً خارجاً حين تنام الدارُ،
يشعر أنّ كتابَ الخارطةِ ناعمٌ في فمه مترسخاً
في الذاكرة،
الحكاياتُ تحترق في المصباح المكسور،
ألتفتُ وأهمسُ سنلتقي

6

أهمس باسمي في الجذور المقطوعة،
إنه يتدحرج في أنفاقٍ ويتحوّل الى صرخة،
إلى حبلٍ يلتفّ حول الذي كان،
لفةً بعد لفةٍ حتى لا يُرى شيءٌ

7

أسمع الغزلان تستيقظ فأحمل نفسي إلى
اللقاء،
خطواتها المحمومة في الثلج المنهمر،
دخانٌ ينبعث منَ الثلج ويخطُّ الآثار،
مسافرون من دخانٍ مثل خطوط مختفية

8

الغزلان تحملني عبر الغابات المظلمة،
في الخارج فوق أسوار وفي الأسفل خلال
أنفاق،
الساعات تنقضي في ممرات ضيقة،
الجسدُ يقشعرُ داخلَ قشرة الجسد الدافئة

III

ساعات الثعلب

RÄVTIMMAR

1

اليدُ تمتدُّ ثانيةً في الغرفة،
زهرة صفراء لا تزال تبرق في الكفِّ

2

مطر ينقّر على حافة النافذة،
أنا مُستلقٍ فوق السرير،
ألتقطُ توتاً برياً متروكاً من داخل صدري
وأبتلعه

3

المصابيح تتمايلُ عالياً فوق المدينة،
تُحدثُ رنيناً ضعيفاً حين تتلامسُ،
أطفئ كلّ المصابيح هنا في الداخل وأصغي
إلى صوتي أنا على الجانب الثاني من الحائط

4

إنه صداعٌ يرفض أنْ ينخفضَ،
ضغطٌ باتجاه صدغي وشيءٌ ينسحق،
شظايا من العظم تعلقُ بلثة جرو الثعلب
حين يخرج بضيقٍ من داخل جُحر الرأس

5

نقفُ وجهاً لوجهٍ متقاربين جداً،
تخفق دقاتُ قلبينا في مواجهتهما مثلَ المرايا

6

نجلس سوية في الظلام وننتظر،
حليبٌ يسيل إلى الأمام من معصمي
وجرو الثعلب يشربُ

7

أغني بهدوء حتى ينام جرو الثعلب،
أرفع بحذرٍ وجهي عن وجهه،
دون أنْ أوقظه ، دون أنْ يستيقظ

8

تمضي الأيام ويداي تحوكان،
الوجه متحرراً من فواصلَ مرئيةٍ،
الريح في الخارج تزداد شدةً،
والمطر يواصلُ الهطول

أفراح الكرادة

نعيمة مجيد

مواليد بغداد ـ الكرادة الشرقية 1955 . تخرجت في كلية العلوم – فرع الفيزياء الطبية عام 1979، وحصلت على الماجستير من جامعة سانت كليمنتس البريطانية عام 2012 عن طرائق تدريس العلوم والتدريب على النطق .
بدأت بكتابة القصص القصيرة مطلع الثمانينات، ونشرتها في العديد من الصحف والمجلات العراقية. لها ثلاث مجاميع قصصية هي: زهور ثلجية عام 1989، الوجه الممسوخ عام 2001، امرأة الصقيع الأحمر عام 2009 .
ولها كتابان معدّان للطبع: موسم قطاف الدفلى/ قصص، همهمة المغدورين / رواية.
عضو اتحاد أدباء العراق، جمعية الفيزياء والعلوم ، رابطة المرأة العراقية ، من مؤسسات منتدى نازك الملائكة في اتحاد الادباء، كما أسست منتدى التسامي الثقافي في رابطة المرأة العراقية.

(حتى لا نثقل كاهلنا بأحزان مريرة.. فما علينا الا أنّ نتوّجها بأفراح وهَمية)
مرطبات ... عصائر ...قهوّة لابد لها ان تكون ساخنة ، عقب تناول البيتزا، المصابيح تنير المجمع، مربعات تتلألأ متألقة كالشمس في سقوف الطوابق الثلاثة، صفراء كأشعتها الساطعة في وضح نهار صيفي، أزياء للسهرة في الطابق الثالث، ونساء الدمى العاجية يُبهجن نساءً جُبْلنَ على ويلات الحروب والحزن وتعب لا يريد مغادرتهن، يجبن المجمع بأزيائهن الجميلة يتحاورن من خلف الزجاج البراق، يشرن الى الدمى القابعة خلف الأقفاص الزجاجية المكتظة بهن وبرجال الدمى الذين يتصارعون للبقاء على مقاعد خاوية، يتقاذفون بالأحذية البراقة بألوانها، والصقيلة بملمسها، نساء سافرات، نساء محجبات بلباسهن الأسود، أطفال كالزهور الملونة منهم لازال في توبج او متلفع بكأسه او تبرعمت ساقاه ليسير خلف أمه، ماسكا بردائها، أطفال يتقافزون في ممرات المجمع بضحكات فرح، لما يقتنيه ذويهم من ملابس جديدة لعيد الفطر المقبل بعد يومين. نساء.. رجال.. شباب وشيب يزدحمون في الطوابق الثلاثة لكنهم لا يتدافعون، مسترخون في سيرهم، جالسون يتناولون المأكولات في يوم أطال المكوث مع أحبته حتى منتصف الليل، الساعة الآن متأخرة، تشير إلى الواحدة إلا ربعا، انه صباح اليوم الثاني، الناس لا يفضلون الرحيل، يبغون البقاء هنا حتى ساعة السحر أو السحور أواخر ليالي رمضان، أو يتبضعون.. يسرقون الفرح ويستلونه من بين ركام الحزن المخيم على شوارع بغداد.. بل وحتى شوارع البلاد تشكو من تخسفاتها وألمها المتتالي اثر عبوة ناسفة أو سيارة مفخخة تجعل أشلاءها متناثرة وليس من مغيث تستجير به.
ترتقي جمهرة من الشباب المصعد الكهربائي حتى الطابق الثالث للولوج في الكافتيريا لأنهم اعتادوا شرب النرجيلة هروبا من الهم ومن أحاديث الشارع الملغوم بالصراع بين الطوائف وأخبار داعش واحتلاله للمدن

العراقية، والنازحين والمهجرين والبطالة، والتظاهرات،،،،، ووووالقائمة تطول، المهم أنهم الآن هنا، (هادي سنتر) يتوسط سماء المجمع بلونه الاحمر، وبليله الأزرق زائلا غمامة السواد بأنواره المنتشرة في أرجاء المكان... لكن ضياءه ينعكس أيضاً على حواء الشاخصة بالطابق الارضي منه، فهي تتصدر بوابته وبالخط الاحمر العريض، تستقبل القادمين، مرحبة بهم وتتمنى للجميع زيارة ومتعة وتبضعا موفقا، تتجول بين أروقة بيتها الكبير والمشرعة أبواب محلاته منذ الصباح وحتى الساعات المتأخرة من الليل ، حيث باعة (البسطيات) الرابضة في قاعه، ومن حولهم السيارات المارة بعجالة، أو سيارات المتبضعين مركونة منذ ساعات على جميع الجوانب .

الليل في هزيعه الاول، تلألأ بلون سمائه الزرقاء لكن هذا تلاشى في هزيع الليل الاخير، تلبدت في جوفه الغيوم الحارة بعصف الانفجاريات الشديدة والمتوالية في آن، وبدخان الحرائق الخانق وغبار هياكله الحديدية التي يدب فيها الظلام حثيثا.

ليلى البابلية تسترق السمع لأنين مكتوم من جثث متفحمة أو من بقايا أجساد محترقة لكنها نزلت في سردابه ينتابها الخشوع ورهبة الموت الجماعي.. تتابع المسير بتوجس وألم، يخفق القلب اضطرابا ويهتز الجسد منكسرا، محطما في حنايا السرداب المحترق.. قدماها تدوس سلالم عارية يملأها الرماد، والمهشمة من كل صوب، حذرة تحدق بأكوام الأغراض المحترقة تحت السلم، وبقايا جدران منهارة ملطخة بالسخام.. تضع قدمها أسفل.. أسفل.. أسفل،،، أسفا،، أسفا. تشاهد الضحايا يحملون ورودا وأعلاما تؤكد انتماءها للعراق.. تناثرت هنا وهناك أو غُرست في ثقوب حفرها الحريق الناجم عن سلسلة الانفجاريات الهائلة، مئات من اللافتات السود عُلقت فوق هياكل جدران خاوية وأخرى متهاوية تداعبها الريح تبغي اللحاق بأصحابها.

في الثانية والنصف صباحا تذيع إحدى قنوات بغداد نبأً عاجلاً: (وردنا الآن ما يلي: في تمام الساعة الواحدة صباحا اندلع حريق في احد مجمعات الكرادة اثر تفجير إرهابي مدو هزّ عرش العاصمة بغداد.. ولازالت أصوات الانفجارات متواصلة).

الهلع يدب في النفوس المراقبة للحدث، تذرف ما تبقى من دمع تحجر في المآقي، هلع مروع ،، وخوف يستديم في النفوس.. يقض مضاجع النائمين، متسائلة بصوت عالٍ: أين الانفجار.. في أي مكان !!!! ؟ لالاً ابنيً هناك.. رجاء ا اجبني ! أين الانفجار حصل؟

- لا اعرف ،، لا أعرف، يقولون في مجمع للألبسة بالكرادة

- اريد ان اروح ،،، اروح الى بيت امي ؟ لا استطيع ... يقولون اغلقوا الطرق جميعها.. النار لا زالت مشتعلة....!؟ وسيارات الإطفاء لم تصل بعد !؟

ام سعيد : ابني اتصل وكان قريبا من المكان. يقول مات الكثير من الناس، بالمئات ولازال الحرق مشتعلاً.. برداً وسلاما على العراق، والرحمة للشهداء.. والشفاء العاجل للجرحى..

ليلى البابلية تنتحب وتتلاحم مع الأنين المكتوم من جثث قد تفحمت او تفسخت أجسادها غير المحترقة.. عويلٌ.. خافتٌ.. عويلٌ عال.. ترتطم بأصوات نساء تستغيث.. وصدى لنحيب مدو يملأ السردابَ، روائحٌ عاطنة لجثثٍ متفسّخة لازال البحث جار عنها أوهي فيً قيد المفقودين..

الآن... ليلى ،،،،،،،،،،،،،، ليلى ،،،، اين انت يا أمي، أمي،،،

- اني هنا؟

آه ،،، آه ،،،، يبوويبو ،،، ساعدونا ،،، نكاد نموت ،،، ونداءات من رجال تحت الانقاض

،،، الله يرحم والديكم .... الدخان !،،، الدخان !،،، يخنقنا.... نا ،،، اح ... اح ... اح ،،،، خانق.. آخا. يتدافعون، يتكدسون فوق بعضهم ،، آخرون يتدافعون، يتوجهون الى السلالم العليا ،،،، يدقون باب السطح بأكفهم المحروقة .

ـ افتحوا الباب ....افتحوا الباب ،،،،

يزداد الطرق ، لا مجيب ... يزيدهم الألم حزناً وأسفاً.

حناجرهم تبح من الصياح .

ـ افتحوا باب السطح الخارجي.. افتحوا .. افتحوا الباب..

أصوات خاوية تبتلع سموم الدخان الخانق..

ـ كلا الابواب مغلقة .

يتعالى صراخ الاطفال، ولا وجود لمخرج .

اهم احم ،،،، الدخان ابيض ممتزج باللون الازرق ، يتكاثف ،،اح ، اه ، انقذونا !؟

تنادي ليلى البابلية ابنها :

ـ عادل.. تعال عادل ،،، عادل عادل،،،،،

فيجيب: كلا انا هناك معهم ،،،،

تسمع ضحكته وهو يخاطب صديقه:

– ألو أهلا سالم تعال معنا الى الكافتيريا..

– اهلا عادل ... ألم تتفق معي انك سوف تأتي وتشاهد لعبة كرة القدم معنا؟

– كلا ..الجو حلو هنا وجميل .

–اذن عندما تنتهي اللعبة سوف ألحق بك يا عادل ... ونارجيلتي على حسابك... هههه .

صراخ اطفال يعلو ،،، وا ،،، اي ،،،، بابا ،،، ماما

اسرعوا الغازات سامة ،، كلا،،، اسرعوا بالخروج ، النيران تلتهمنا ،،، الابنية تتهاوى علينا ،،، اين سيارات الاسعاف ؟؟، اين سيارات الاطفاء ؟،،، دموع .. دموع وآلاف من قطرات الدموع لا تصنع بحرا يطفئ جمرة صغيرة اتقدت في مكان الحادث ... انقطع الاتصال ... لاذ عادل منزويا بجسده الهامد في إحدى زوايا المجمع . ونبرات صوته تعلو وتهفت بين أنين الضحايا، تغلفه دموعهم الحارة منسكبة دون رادع.

ليلى البابلية تعود: عادل .....عا .....دل .....لل ل .. للل.. متى تعود يا عادل.. رفاقك ينتظرونك..

تهمّ خاوية ارتقاء هيكل سلم مفجوع.. الصعود الى ساحة المبنى المتهدم، ولازال الجرح ينز دماً والأرض ما برحت رطبة بجثث منسية بين ثنايا المجمع.. شموع موقدة تذرف دمعها الساخن لتضعه الى جانب المئات من شموع الضحايا الراحلين.

• تضمنت القصة مقاطع من حوارات حقيقية للشهداء مدونة على الفيس بوك قبل وقوع الانفجار بساعة او اقل، والتضمين لتوثيق الحدث للضحايا الراحلين في هذا المصاب الفاجع للعراقيين وللإنسانية جمعاء.

• الكرادة: اسم منطقة شهيرة في بغداد حدث فيها الانفجار.

• عادل شاب في الثانية والعشرين من عمره، محام وفنان ورياضي ومن ناشطي احتجاجات ساحة التحرير (اسمه عادل قيس)، خطفه الموت الأسود مع مئات العراقيين في تفجير الكرادة.

في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

موت الفوضوي الضاحك

عندما حصل الإيطالي (داريو فو) الأديب والناشط السياسي ذو الميول اليسارية المتطرفة على جائزة نوبل في العام 1997 ثارت عاصفة من الإستغراب ووجهت إنتقادات كثيرة الى لجنة جائزة نوبل بدعوى أنها منحت الجائزة الى ممثل ومغن وكاتب أغان، وهذا جانب من جوانب عمله الإبداعي الغني والمتنوع فقد كان كاتبا مسرحيا كتب مسرحيات مهمة ومصمما مسرحيا ورساما، وقد مُنح جائزة نوبل لإنجازه المسرحي بشكل خاص والأدبي بشكل عام، ولكن البعض علق بأن الأكاديمية كرمت مهرجا فوضويا، وتشاء الأقدار أن يتوفى في الثالث عشر من تشرين الأول الماضي قبل ساعات من منح جائزة نوبل للعام 2016 الى مغن أيضا هو الأميركي بوب ديلان بعدّ قصائده الغنائية عملا شعريا إبداعيا وليست مجرد كلمات أغنية، ولم يكن الجدل الذي دار حول فوز ديلان أقل حدة من الذي دار في العام 1997 حول فوز داريو.

ولد داريو في 24 آذار 1926 في سانجيانو قرب لومباردي في وسط عمالي معاد للفاشية وكان جده مزارعا وحكواتيا. في بداية الخمسينيات هجر الهندسة المعمارية ليتوجه الى المسرح وعمل أثناء ذلك في الإذاعة والملاهي. أسس مع فرانكا رامي، التي تزوجها في العام 1954 وتوفيت في العام 2013، فرقة مسرحية تستلهم تمثيليات القرون الوسطى الهزلية، ثم استقر على الفن الكوميدي بين السريالية والهجاء السياسي المقذع بموضوعات اجتماعية معاصرة.

حصل على شهرة عالمية بمسرحية (السر الغنائي) 1969 المستلهمة أيضا من ثقافة القرون الوسطى التي يعلّم بطلُها، المهرجُ، الناسَ الثورةَ عن طريق الضحك ، وكان قبل سنة في خضم تداعيات مظاهرات 1968 قد أسس جمعية، كومونة، تعمل خارج النظام التجاري في المعامل التي إحتلها العمال وفي صالات السينما وبيوت الشعب.

لقد إختار داريو المسرح المناضل فالمسرح كما يقول " سياسي دائما" في خدمة المستغَلين وضد السياسيين والكنيسة والمافيا، ولقد ناضل بكل جسارة ضد

مشهد من مسرحية (موت فوضوي غير مقصود)

بيرلسكوني "الكذاب الكبير" كما يلقبه. أنتخب مستشارا بلديا في ميلانو في العام 2006 فساند حركة (خمسة نجوم) السياسية التي تدعو الى ديمقراطية مباشرة وليست تمثيلية، وقد نعته الحركة فقيدا "ورفيق طريق نشطا وعبقريا" فيما قال الكاتب (إيري دي لوقا): "إن الحائز على نوبل الأكثر مرحا قد مات اليوم. حق علينا أن نودعه بضحكة لا بدمعة".

من مسرحياته المهمة الأخرى (موتٌ فوضوي غيرُ مقصود) أو (موت فوضوي قضاءً وقدرا) التي ألفها في العام 1969 بعد وقت قليل من مقتل (غيوسيبي بينيللي) عامل السكك الحديد اليساري الفوضوي الذي ألقت الشرطة القبض عليه بتهمة تفجير بنك وإدعت أنه سقط من نافذة الطابق الرابع لبناية مديرية الشرطة (تمت تبرئته لاحقا من مسؤولية التفجير). يخترق ثوريٌّ يمتلك مهارة التخفي دائرة شرطة ميلانو منتحلا شخصية قاضي تحقيق جاء ليعيد فتح القضية ويطرح أسئلة يتمكن من خلالها معرفة الحقيقة وتتخلل أحداث المسرحية المواقف المضحكة والتعليقات السياسية، وكانت عملا جريئا في زمنها.

في مسرحية (البابا والساحرة) 1989 يتحدى النظام الاجتماعي وتابوهاته بمشاهد هي صاخبة بقدر ما هي مضحكة. البابا في غرفته المطلة على ساحة الفاتيكان ينتظر وصول طبيب وفي الوقت نفسه ينوي الخروج الى الشرفة ليحيي الآلاف من أطفال العالم الثالث الذين جُلبوا الى روما للتبرك برؤيته. وسائل الإعلام كانت هناك والكل ينتظر بينما الكاردينال الذي يخدم

البابا قد أصابته نوبة، ولكن البابا يشك في وجود مخطط لإحراجه وإحراج الكنيسة والفاتيكان، فالمنظمون للإحتفال معارضون لقوانين الكنيسة المتعلقة بالإجهاض ومنع الحمل ويتحينون الفرصة ليعلنوا للعالم موقفهم في لحظة عدوها مناسبة بحضور هذا العدد من الأطفال الذين لا أمل لهم ولا عوائل ترعاهم.

كانت الخطة أن يتركوا هؤلاء الأطفال في الساحة ليورطوا الفاتيكان بالعناية بهم وبتربيتهم. كان الطبيب حقيقيا لكن الممرضة المرافقة له كانت في الحقيقة ساحرة تستطيع المعالجة بطرق غامضة تجلت بجعل البابا معلقا في الهواء. تبين فيما بعد أن الممرضة الساحرة تشرف على مكان تجرى فيه تجارب يعطى فيه الأطفال مخدرات ومن ثم يجري تخليصهم تدريجيا منها. يخرج البابا متخفيا بزي مواطن عادي ليذهب إلى هذه "العيادة" أملا في التخلص من المشاكل. يتضح في النهاية أن المانح الذي يزود المشروع بالمخدرات يسرقها من الشرطة المكلفة بمداهمة عصابات المخدرات.

كتب داريو فو خلال حياته عشرات المسرحيات وإشترك في العديد من الأعمال الفنية المتنوعة وحاز على العديد من الجوائز التي تتوجت بجائزة نوبل 1997.

فريدريك روسيل/جريدة ليبيراسيون الفرنسية، وعن الغارديان البريطانية

شعر:

بمناسبة فوزه بجائزة نوبل 2016
قصائد بوب ديلان الغنائية السياسية

في يوم 26 تشرين الأول 1963 قبل 54 عاما (يبلغ بوب ديلان الآن 75 عاما) غنى أغنيته (الأزمنة تتغير)، في خضم إنتفاضة حركة الحقوق المدنية، وكانت هذه الأغنية تقوم على قناعة بأن الحركة نحو التغير الإجتماعي لا يمكن إيقافها، وأن التاريخ لا بد أن يخضع الى المثل الأخلاقية: "تعالوا يا كتاب ويا نقاد/ يا من تتنبأون بأقلامكم/ وأبقوا عيونكم مفتوحة على سعتها/ فالفرصة لن تتكرر/ ولا تستعجلوا الكلام/ فالعجلة لا زالت تدور بكل سرعتها". تكمن عبقرية بوب ديلان في الربط بين الكليّ ولحظة تاريخية محددة.

إن أغاني الإحتجاج التي جعلته مشهورا وبقيت صورته مقترنة بها كتبت خلال فترة قصيرة لا تتعدى 20 شهرا، من كانون الثاني 1962 الى تشرين الثاني 1963، متأثرا بالتقاليد الراديكالية الأميركية (حركة عمال الصناعة والجبهة الشعبية لسنوات الثلاثينيات والأربعينيات وفوضويو الخمسينيات)، وبالحركة الشبابية ضد القنبلة الذرية ومن أجل الحقوق المدنية وقد إنخرط بأغانيه ضد الفقر والعنصرية والسجن والشوفينية

بوب ديلان وجوان بايز في أحد التجمعات الإحتجاجية في العام 1963

والحرب. كذلك كتب أغاني حب فيها مزيج من الأسف والصراحة الجارحة. أعطتنا هذه الفترة العاصفة (دعني أموت واقفا) و(في مهب الريح) و(سيهطل مطر شديد) و(بيدق ضعيف فقط في لعبتهم) و(الله معنا) التي ينبذ فيها الأصولية الأميركية، و(أسياد الحرب) عن الصناعة الحربية، والأغنية الإنتقامية المرحة (عندما تدخل السفينة) والأغنية الرائعة (هاتي كارول) عن حالة ظلم أصبحت رمزا لمقاضاة نظام وتتعلق بمقتل زنجية على يد شاب أبيض من أثرياء تجارة التبغ.

جدد ديلان بقصائده الغنائية الفريدة بشعريتها وببراعته الموسيقية الأغنيةَ الإحتجاجية وجعلها تصل الى جمهور جديد. عندما ظهر ألبوم (الأزمنة تتغير) في كانون الثاني 1964 كان الشاب البالغ من العمر 22 عاما قد أصبح ممثلا مكللا بالغار لحركة إجتماعية ولقب بـ "صوت الجيل". لكن ديلان قرر أن هذا ليس هو ما يريد أن يكونه، لأن ديلان الذي يُعد بمثابة (وودي غوثري) الجيل الجديد (وودي غوثري 1912 – 1967 مغن وكاتب أغان ومناضل شيوعي أميركي كان بوب ديلان أحد الذين تأثروا به– م) يمر بمرحلة تحول تجعل معجبيه الأوائل غير مرتاحين، وكما عبر ديلان في لقاء صحفي آنذاك: "لا أريد أن أكتب للشعب بعد، يعني أن أكون ناطقا بلسانه. من الآن فصاعدا أريد أن أكتب من داخلي.. لست جزء من أية حركة".

كان يسجل وقتها أغنية (صفحاتي الخلفية) وهي إنتقادية للحركة التي مجدها في (الأزمنة تتغير) فيحمل على الذين يستخدمون "الأفكار كالخرائط" ويتفوهون "أكاذيب من أن الحياة سوداء وبيضاء" ويفشلون في فهم "أني أصبح عدوي في اللحظة التي أقوم فيها بالوعظ" مستاء مما تصوره عثورا على الإستبدادية في قلب حركة التحرير (وفي

داخله)، فيتمرد محتقرا ما يراه ثقافة النضال السياسي الميتة: "تخليد سياسة/التاريخ القديم" ويقول في أغنية أخرى: "المساواة، لفظتُ الكلمة، كما لو كانت عهد زواج، ولكني كنت أكبر عمرا بكثير عندئذ، وأنا الآن أصغر عمرا "، إن الراديكاليين السابقين عادة ما يعزون تخليهم عن تمردهم الشبابي لبلوغهم مرحلة النضج المسؤول، غير أن ديلان يقلب المعادلة فالإنسحاب من السياسة بالنسبة له إنسحاب من مواقف عتيقة مستهلكة، إنه يدعو الشباب الى التمرد على الأفكار المسبقة أكثر مما هو يتنكر لـ (الأزمنة تتغير).

حقا إن إنفصاله عن السياسة حرر موهبته الموسيقية والشعرية وحفزته لإستكشاف أعماقه وأصبحت أغانيه أكثر غموضا متخلصة من السرد المتماسك لصالح سريالية كرنفالية، وحل محل الشاعر الجوال شاعر الروك أند رول، فولدت أغاني (مثل حجر يتدحرج). لقد وصفت الأغاني عالما داخليا ولكن أغان عديدة صيغت إستجابة لأحداث عامة مضطربة والواقع أن إلتزام ديلان السياسي إستمر بصيغ ورؤى أخرى.

نلاحظ أن العديد من نقاد ديلان اليساريين فشلوا في رؤية الدوافع السياسية التي شكلت روائع أواسط الستينيات، فأغنية (مزرعة ماجي) تصور النقمة الطبقية للعمال المأجورين في مواجهة الطبقة التي تمثلها إمرأة "تتحدث لجميع الخدم عن الإنسان والله والقانون" والدولة "يقف الحرس الوطني حول بابها" فيما تثبت التجربة أن النظام الإجتماعي مخيب للآمال "أحاول جهدي لأبدو كما أنا بالضبط/ ولكن الكل

الشاعر المغني الشيوعي وودي غوثري في العام 1943 وقد كتب على غيتاره (هذه الآلة تقتل الفاشست)

يريدونك أن تكون كما هم بالضبط". توجد أيضا ثيمات إستكشفها في (لا بأس يا أمي، أنا أنزف فقط) موجها إصبع الإتهام الى مجتمع بني على النفاق والجشع.
برغم أن ديلان لم يتعامل مع قضية فيتنام مباشرة إلا أننا نعرف أنه سجل (العودة الى الطريق العام 61) و(موسيقى بلوز شاهدة القبر) وقد قال فيما بعد أن القائد الأعلى المقصود في الأغنية هو الرئيس لندن جونسون.

في هذه وغيرها من أغاني تلك الفترة لا يطرح جانبا السياسة بل يعيد تحديد أفقها من خلال الهموم الأكثر حميمية، إن (رؤيا جوهانا) و(طريق مهجور) مفعمتان بالحزن الحميم، وعندما صاح أحد الحاضرين طالبا أغان إحتجاجية رد عليه ديلان: "هذه كلها أغاني إحتجاجية يا رجل".

مايك ماركوزي/ الجريدة الأوغندية ريد بيبر (الفلفل الأحمر)

سرد:

الكراسي الحمر الصغيرة

وقد وصفها الكاتب الأميركي (فيليب روث) بأنها رائعة أوبراين الأدبية. يحيلنا عنوان الرواية الى واقعة صف 11541 كرسيا فارغا، كل كرسي يرمز الى قتيل، في شارع بسراييفو لإستذكار ضحايا حصار قوات صرب البوسنة للمدينة في التسعينيات، وقد خُصص 643 كرسيا من الكراسي الصغيرة لترمز الى الأطفال الذين قتلوا حينئذ.
منذ بداية الرواية نكون أمام وصول رجل غريب الى قرية آيرلندية صغيرة، رجل لا يعلم أحد إلا الله من أين أتى، أبيض الشعر، ملتح، يرتدي معطفا طويلا أسود، يجر خلفه الخطر والتفرقة برغم ما يُظهره من موهبة في الشعر وقدرة على شفاء الأمراض وأراد أن يطبقهما في قرية (كلونويلا) المنعزلة.
واضح أن المؤلفة إستلهمت شخصية الدكتور فلاديمير دراغان (د.فلاد) من شخصية رادوفان كاراديش، جزار البوسنة، الذي عاش 12 عاما متخفيا بإسم الدكتور دراغان ديفيد دابك، قبل أن يلقى القبض عليه في بلغراد في العام 2008 بتهمة إرتكاب جرائم حرب، وأوجه الشبه بينهما مذهلة فكلاهما شاعر وفيلسوف ومبيد.
من اللحظة التي دخل فيها القرية، دراغان المجرم البلقاني المطلوب للعدالة، لم تعد هي تلك القرية البريئة، فقد وقعت تحت سحر هذا الشخص الغامض الذي يتصرف تصرفات الراهب أو القس، ويدعي أنه طبيب العصر الجديد، ومشفّ جنسي وشاعر، وإستطاع أن يخدع إحدى الراهبات زارته في عيادته فخيل اليها أنها عاشت حرية روحية لم تعشها منذ شبابها، وقام بمساج لظهر راهبة أخرى بأحجار محمية، ولكن الشخصية الأكثر

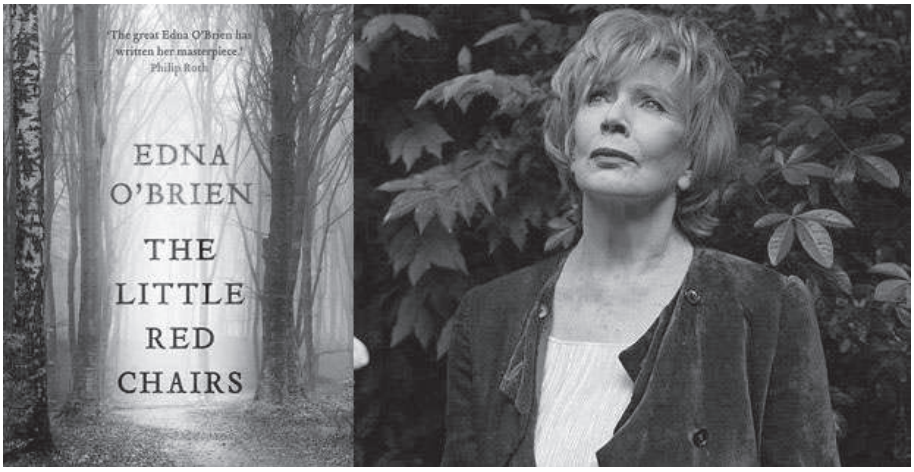

أهمية هي الجميلة فيديلما المتزوجة حديثا والتي تخنقها حياة الوحدة وتتوق لإنجاب طفل فتقع سريعا في غرام الطبيب ولا تلبث أن ترجوه أن يضاجعها لتحمل منه فيستجيب لها. غير أنها تغادر القرية فارة من زوجها ومثل العديد من النساء الآيرلنديات قصدت لندن لتعيش عيشة الكفاف، وما تلا ذلك أوديسة عن الإنحطاط والإستئصال والهجر في المجتمع المعاصر. إن الرواية في جانب من جوانبها تمنح صوتا للمحرومين واللاجئين، وهي أيضا رواية التباينات، التباين بين المناظر التي تذكرك بأشعار القرن الثامن عشر والمستنقعات المليئة بالزهور والحدائق الغنّاء وبين وحشية العالم.

إن أوبرين تناولت كل المواضيع الإجتماعية الحساسة منذ رواياتها الأولى (فتيات الريف) 1960، التي قامت حركة إجتماعية غاضبة بحرق نسخ منها، الى أن أصبحت اليوم تعد سيدة الرواية الآيرلندية. تناولت قضايا كعلمنة المجتمع الإيرلندي التي أُدخلت اليه من الباب وأخرجت من الشباك، والحرية الجنسية، وثقافة المخدرات، ومد المهاجرين، وقد كتبت بشكل خاص عن فئات النساء ومواردهن المعيشية. لقد غيرت الحريات الثورية حياة النساء منذ أن بدأت كتاباتها الأدبية ولكن مواضيع معينة تبقى ملحة مثل البحث عن السعادة والحاجة الى حل المشاكل المستجدة. صدرت لإدنا أوبرين 36 رواية ومجموعة قصصية ومسرحية وكتب أخرى وحازت على 12 جائزة . صدرت رواية (الكراسي الحمر الصغيرة) للكاتبة الآيرلندية إدنا أوبرين بعد إنقطاع عن النشر دام عشر سنوات.

باتريسيا كريغ/جريدة ذي إندبندنت البريطانية

سينما:

أنا (دانيال بليك)

قليل من المخرجين يمكنهم خلق عمل يشحنك موضوعه وأثره العاطفي بغضب حارق مبرر ويجعلك تنسى أنك تشاهد فيلما، (كين لوش) من هذا النوع ، وهاهو مع رفيقه كاتب السيناريو (بول لافيرتي)، الذي يشكل معه ثنائيا يساريا سينمائيا، يقدمان فيلم (أنا دانيال بليك) صورة حية عن البيروقراطية ووحشية الليبرالية الجديدة في بريطانيا اليوم، وقد فاز بجائزة السعفة الذهبية في مهرجان كان 2016 وجائزة الجمهور في مهرجان لوكارنو. (قدمت متابعات "الثقافة الجديدة" عرضا لفيلمهما السابق قاعة جيمي- م)

كان الممثل (ديف جونز) مثيرا وهو يؤدي دور النجار البالغ من العمر 59 عاما (دانيال بليك) الذي تعرض لنوبة قلبية بعد أن كدّ طوال حياته ورعى زوجته المريضة حتى توفيت، وقد أخبره الطبيب بأنه لم يعد صالحا للعمل. لكنه حين قصد الجهات المعنية بالضمان الصحي والرعاية الإجتماعية لأنه مريض إصطدم بالرفض وأجبر على البحث عن عمل. ثم يقابل ويساعد أماً شابة عزباء هي كيت (الممثلة هيلي سكوير) التي طردت من بيتها مع طفليها، وهربت من سكنها التالي ذي الغرفة الوحيدة في لندن الى شقة في نيوكاستل على مبعدة 450 كيلومترا وهي مدينة غريبة عليها تماما لكي لا يأخذوا طفليها الى دار الرعاية.

هناك يواجهون سوية القساوة المتزايدة واللامبالاة الرسمية. لم يلجأ لوش الى مؤثرات في طرحه لهذه القصة، وهو يقول عن فيلمه هذا: "الفيلم ليس حركة سياسية، أو حزبا، أو حتى مقالا. إنه فيلم فقط. أفضل ما يستطيع فعله هو أن يضم صوته الى الغضب الشعبي". يبدأ الفيلم بالأسود والأبيض ونسمع صوتا يسأل وصوتا يجيب لملء إستمارة، والرجل الذي يظهر هو دانيال بليك الذي لا هو عامل ولا هو عاطل ونراه محروما من ضمانه الإجتماعي، وهكذا يمضي دون دليل في عالم لا يفتأ يفقد المزيد والمزيد من إنسانيته ويصبح ضحية جحيم إداري كافكوي. إن بليك مثل الكثير من شخصيات سينما لوش رجل مستقيم، لا بل هو يتفوق عليهم على نحو ما، مزيج من الكبرياء والإهتمام بالآخرين، وإذا كان بليك يرى وجوده يتفكك ويعيش إنتظارات لا طائل وراءها ويقابل أناسا صمّا عميّا في مواقع المسؤولية فإن كيت واقعة في هوة اليأس الكامل. يأخذ بليك الثلاثة في عهدته وتبدأ علاقات جديدة بالتشكل مبنية على قوة الصداقة والتضامن الإنساني لا غير.

آلان فرانك/ جريدة "مورننغ ستار" البريطانية الإشتراكية

وثائق:

(ألتوسير) وديكتاتورية البروليتاريا

عقد الحزب الشيوعي الفرنسي مؤتمرة الثاني والعشرين في العام 1976 وفي ذلك المؤتمر تخلى الحزب عن ديكتاتورية البروليتاريا. قرر الفيلسوف (لويس ألتوسير) أن يوجه نداء الى المناضلين الشيوعيين ليوضح لهم عدم جدوى هذا التخلي ومخاطره، ثم تراجع عن قراره، وبعد مضي أربعين عاما ينشر المؤرخ (ج. م. كوشكاريان) النص الذي كتبه ألتوسير مصحوبا بالهوامش وذكر المصادر الأساسية.

يقول ألتوسير بأن التخلي عن ديكتاتورية البروليتاريا لا معنى له لأن الماركسية عقيدة علمية وقيمة المفاهيم العلمية لا تعتمد على الظروف. يقول أن هذا التخلي كان ممكنا بإختراق الآيديولوجيا التجريبية المثالية للنظرية الماركسية ما أدى الى تشويهها، كما يوضح أن التخلي عن ديكتاتورية البروليتاريا خطر لأن مفهوم ديكتاتورية البروليتاريا هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن من خلالها تصور الشيوعية، نهاية صراع الطبقات بإختفاء الطبقات، الوسيلة الوحيدة لفهم أن الدولة البرجوازية هي ديكتاتورية مهما كان الشكل السياسي لهيمنتها.

ديكتاتورية البروليتاريا ليست شكلا سياسيا ظالما بل هو نضال الطبقة العاملة في جميع ميادين الحياة الإجتماعية، وبحرمان الحزب الشيوعي نفسه من هذه الأداة النظرية، فإنه يتخلى عن وسيلة لإدراك واضح لمهمات النضال البروليتاري. يتنبأ ألتوسير قائلا: "لا يمكن للحزب أن يختفي، وإذا ما إختفى، فإنه سيولد من جديد".

الفيلسوف لويس ألتوسير

توجد فصول أخرى أكثر مباشرة من الناحية السياسية ينتقل فيها ما بين الإستذكارات التاريخية والتأملات النظرية، وبخصوص الحزب الشيوعي الفرنسي، فإن آراءه في الديمقراطية الداخلية للحزب فيما يتعلق بالصراعات بين الأشخاص والصراعات بين الميول في قمة الحزب ترسم صورة للحزب كأنه مختبر يعاني من سوء التنظيم لا غير، ويصحح هذه الرؤيا بالتأكيد على أن كل تغيير سيكون طويلا وصعبا.

علينا أن نقر أنه بعد أربعين سنة من تخلي الحزب عن ديكتاتورية البروليتاريا وكتابة هذه الصفحات لم تتخل الطبقة البرجوازية عن ديكتاتوريتها وعن صراعها الطبقي ضد من تستغلهم، وأن التخلي عن ديكتاتورية البروليتاريا لم يجلب للحزب الشيوعي الفرنسي مزيدا من القوة.

إيف فاركا / جريدة "لومانتيه" الفرنسية

بمناسبة السنة المائة لثورة أكتوبر العظمى 1917 ـ 2017
لويز بريانت والتوثيق النسوي لثورة أكتوبر

الكاتبة والصحفية والناشطة الثورية الأميركية لويز بريانت

ولدت لويز بريانت سنة 1885. حصلت على شهادة التخرج بإطروحتها (حرب هنود مودوك) سنة 1909. عملت لفترة رسامة في مجلة ثم مسؤولة علاقات عامة فيها، وتزوجت من طبيب أسنان ولكنها كانت تتوق لأن تكون أكثر من مجرد ربة بيت. تعرفت على الشاعرة (سارة بارد فيلد) التي شجعتها وعرفتها على نساء يمارسن النشاطات النسوية. كان تعرفها في تلك الفترة على (جون ريد) الذي سيكتب فيما بعد (عشرة أيام هزت العالم) نقطة التحول في حياتها. كان جون ناشطا سياسيا وعضوا في النادي الإشتراكي ويتصف بالتفاؤل والمرح ويمارس الكتابة للصحف وقد قرأت لويز بعضا من كتاباته ووقعت في غرامه قبل أن تراه. غطى جون التظاهرات والإضرابات، وثورة المكسيك وبانشو فيلا في العام 1914. تطلقت من

زوجها وتزوجت جون بعد فترة. بدأت لويز الكتابة الى جريدة ماسيز (الجماهير) وتطور فكرها الثوري. سافرت الى أوربا لتغطية الحرب العالمية وعندما عادت كان جون بانتظارها ليخبرها أنه يجب شراء ملابس شتوية لأنهما سيغادران الى روسيا فالثورة هناك على وشك.

كانت رحلتهما الى روسيا إنعطافة في وعيهما وفي مهنتهما الصحفية. حققا مقابلات مع كيرينسكي رئيس الحكومة المؤقتة، وسمعا أن لينين دخل روسيا متخفيا، وشهدا الأحداث التي أدت الى ثورة أكتوبر وكتبا تقارير عنها. خرج البلاشفة من البرلمان الذي أعد للحكومة المؤقتة، وأصر لينين على أن يُدخل البلاشفة في جدول أعمالهم الإنتفاضة المسلحة، وأن يعينوا لجنة ثورية لحماية بيتروغراد بعد إنتشار شائعات تقول أن كيرنيسكي يريد نقل العاصمة الى موسكو ليسلم بيتروغراد الى الألمان. لقد أطلق كيرنيسكي بنفسه شرارة الثورة بغلقه لصحف البلاشفة الذين إعتبروا عمله ثورة مضادة. إستدعوا القوات العسكرية الموالية لهم والحرس الأحمر الذي سيطر على بيتروغراد بحلول ليلة 6 تشرين الثاني 1917. إشترك جون ولويز في توزيع المنشورات التي تعلم المواطنين بأن السلطة أصبحت بيد نواب العمال والجنود.

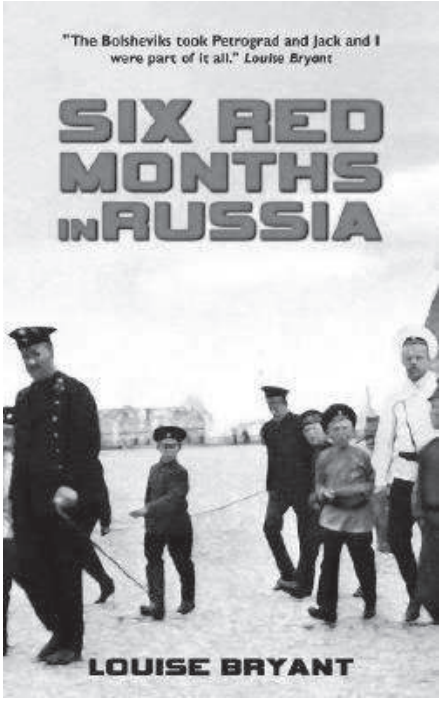

غلاف كتاب (ستة أشهر حمر في روسيا) للويز بريانت

أصدرت حكومة البلاشفة العديد من القوانين منها إلغاء الملكية الخاصة وأقرت المساواة بين المواطنين وتسليم الأرض للفلاحين الذين يعملون فيها وتأميم المعامل والبنوك، والتفاوض مع المانيا على سلام غير مشروط. هذه الإصلاحات التي لم يكن ممكنا تصورها في النظام السابق جعلت من روسيا بنظر جون ولويز متقدمة على الولايات المتحدة والتغير في الحياة اليومية للناس كان رائعا في تعاونهم ومناداتهم لبعضهم البعض بكلمة رفيق أو مواطن، وإقتنعا بأن ما يحدث في روسيا فيه دروس يجدر تعلمها. إن كتاب جون ريد (عشرة أيام هزت العالم) وكتاب لويز بريانت (ستة أشهر حمر في روسيا) كتابان مختلفان برغم أنهما يشتركان بنفس الحماس للثورة، فكتاب لويز كتب من وجهة نظر نسوية إستطلعت فيه تأثير الأحداث في النساء وحياتهن الخاصة والعامة وقابلت شخصيات نسوية بارزة وبشكل عام كان توثيقا للحياة اليومية وبسطاء الناس بينما كان كتاب جون توثيقا تاريخيا.

أصيب جون بعدوى الحمى الصفراء إثناء رحلة الى باكو في جنوب روسيا سنة 1920 وتوفي في موسكو وكانت لويز الى جانبه. تجاوزت صدمة وفاته لتغطي أحداثا في أواسط آسيا وأصدرت كتابا آخر (مرايا موسكو) 1923 . حققت أول مقابلة يجريها صحفي غير إيطالي مع موسوليني ومقابلة مهمة مع القائد التركي أنور باشا. تزوجت من الدبلوماسي وليم بوليت الذي أصبح أول سفير للولايات المتحدة في موسكو في الثلاثينيات. أنجبت منه طفلة في العام 1924 ولكن بعد أن أدمنت على الخمر والمخدرات لتخفف من الآلام التي يسببها لها مرض ديركوم النادر حصل بوليت على وصاية الطفلة وحرمها من رؤيتها. توفيت لويز بريانت في العام 1936.

ماري ديربورن/ موقع أوريغون كالتشرال هيريتج كومشن

تطور موقف جريدة لومانتيه من ثورة أكتوبر

Le Numéro : 20 Centimes

l'Humanité

JOURNAL SOCIALISTE

Fondateur : JEAN JAURÈS

VIVE LA RÉPUBLIQUE DES SOVIETS !

Tactique révolutionnaire

Le Devoir

Anniversaire

L'État disparaîtra un jour

Communisme et Liberté

LE SOLDAT INCONNU

POUR LE 2e ANNIVERSAIRE DE LA RÉVOLUTION RUSSE

GRAND MEETING

LONGUET. MONATTE. SOUVARINE

جريدة لومانتيه في العام 1920 تحتفل بالعيد الثالث لثورة أكتوبر وعلى صدر الصفحة الأولى عبارة (تعيش جمهورية السوفييت)

إقتربت جريدة اللومانتيه، بالتزامن مع النقاشات السياسية الفرنسية وتحت مسؤولية مارسيل كاشان، من الثورة الروسية شيئا فشيئا. بعد موت مؤسسها جان جوريس (أغتيل في مطعم سنة 1914 م) حل محله بيير رينوديل كمدير للجريدة الإشتراكية، وبخلاف موقف المؤسس الراحل إتخذت موقفا مؤيدا للحرب، وهكذا أدانت خلال الحرب (العالمية الأولى) المبادرات السلمية التي نظمتها أقلية (زيمروالد) و(كينتال) في العامين 1915 و1916، وبقيت اللومانتيه حتى العام 1918 جريدة الجهد الحربي.

جذبت الحركة الثورية التي إندلعت في العام 1917 في البداية تعاطف الإشتراكيين الفرنسيين. عاد للظهور الحلم القديم بجمهورية روسية، ولكن ظهرت أيضا الخلافات في الرأي فقد كانت الراديكاليةُ

السياسية تُقلق الأغلبيةَ الإشتراكية الفرنسية المعاديةَ بشدة للخط المتمثل بالفلاشفة الذين يقودهم لينين، المعروف عندهم قليلا آنذاك، ما عدا الذين قابلوه في مؤتمر الأحزاب الإشتراكية الأممية. ليس من قبيل الصدفة أن نرى على صدر الصفحة الأولى من اللومانتيه إدانة حازمة لإستيلاء البلاشفة على السلطة يوم 9 تشرين الثاني 1917، وعلقت الأمل على تيارات إشتراكية روسية أخرى كما جاء في المقال:

"الديمقراطية العاملة، الإشتراكيون ذوو البصيرة، الذين كافحوا بحمية ضد الفوضى والتواني، ألم يبذلوا أمام الخطر الماثل كل ما بوسعهم لخلاص روسيا ولمستقبل الأفكار التي يمثلونها؟". طبعا كانت المعلومات ترد الى اللومانتيه، نظرا للظروف، مجتزأة ومحرفة، ولكن الإدانة كانت لا رجعة فيها وتتفق مع خط الجريدة. بعد ثلاث سنوات إحتفلت الثورة الروسية بعيدها الثالث ضمن سياق الحرب الأهلية الرهيبة المشتعلة في روسيا آنذاك، وهذه المرة حيّت الجريدة إنتصار لينين ورفاقه وقد زينت الصفحة الأولى صورتان للينين وتروتسكي مع عنوان (تعيش جمهورية السوفييت). كان الحماس على أشده، وكررت في العدد نفسه نشر مقتطفات من أقوال قائد الثورة الروسية كان من بينها قوله (ستختفي الدولة ذات يوم) باعثا الحلم القديم بمجتمع دون دولة سبق لماركس وانجلز أن تحدثا عنه. قبل مؤتمر (تور) بشهر كانت اللومانتيه قد أصبحت تماما الى جانب الجمهورية الروسية الجديدة الفتية التي تأمل أن تتحول الى نموذج عالمي.

كيف نفسر هذا التحول؟ كان إستيلاء مارسيل كاشان على إدارة الجريدة في العام 1918 إنعكاسا للتطورات في القسم الفرنسي للأممية العمالية (السلف للحزب الإشتراكي الفرنسي الحالي- م)، وعندها أخذت الجريدة تقترب شيئا فشيئا من الثورة الروسية. أسس الشيوعيون الروس في آذار 1919 الأممية الشيوعية بعد فشل الثورة الألمانية بهدف تجميع القوى السياسية العالمية حول نموذج الثورة الروسية. شيئا فشيئا تأسست أحزاب شيوعية على أسس صلبة لتجنب الفشل الذي حدث في العام 1918. الكثير من المناضلين الإشتراكيين أمثال مارسيل كاشان، الذي رأس تحرير الجريدة 40 سنة حتى العام 1958، أصبحوا معجبين بالثورة السوفيتية وبعد عودته من الإتحاد السوفييتي، الذي كان في زيارة له سنة 1920، لعب دورا في تأسيس أغلبية المندوبين الإشتراكيين للحزب الشيوعي.

جان- نوما دوكانج أستاذ التاريخ في جامعة رون/ جريدة "لومانتيه" الفرنسية

تاريخ بصري للاتحاد السوفييتي

غلاف كتاب (تحت تأثير النجمة الحمراء) لديفيد كنغ

لا يعرف أحد بالضبط السبب الذي جعل الإنكليزي ديفيد كنغ، المدير الفني السابق لجريدة الصنداي تايمز، يقوم خلال أربعين عاما بجمع 250 ألفا من الوثائق التي تتعلق بالتاريخ البصري للإتحاد السوفييتي، من الثورة الأولى في شباط 1917 الى وفاة ستالين في العام 1953، وقد قام متحف تيت مودرن في لندن مؤخرا بعرض المئات من مجموعاته، ولكن من المؤكد أن عينه المولعة بالفنون التخطيطية والفوتوغراف قد إنجذبت الى الثراء الفريد والخصائص المميزة في الصور والبوسترات التي لم يسبق لها مثيل.

يضم كتابه (تحت تأثير النجمة الحمراء) نحوا من 550 من الصور والرسوم والنقوش والملصقات والصحف والكراريس التي تعيد الى الذاكرة التوترات التي عاشتها روسيا والمخاض العسير للدولة السوفييتية والحرب الأهلية وصعود المثل البلشفية ومن ثم صعود ستالين والحرب

الوطنية العظمى ضد المحتل النازي، ولكن الكتاب ليس مثيرا فقط من ناحية التاريخ السياسي بل يضع في الاهتمام أيضا التغيرات في ميادين الفنون وتوظيفها في الدعاية الثورية وكيف نتج عن هذا المسعى خلق أنماط وأشكال من الفن الحديث، ولم تنتج اللغة الشكلية للطليعيين فقط بورتريهات تكعيبية مستقبلية ومونتاجات صورية ورؤى جماعية ونصب حداثوية بل أيضا تغطيةً لمعارك الجيش الأحمر وحملةً دعائية لنصرة قضيته، فالشاعر مايكوفسكي (1893 ـ 1930 ـ م) الذي كان يرأس تحرير مجلة LEF التي أصدرت حوالي ثلاثة آلاف ملصق من النوع المسمى روستاRosta قال: "لا بد أن يكون الفن في كل مكان، في الشوارع، في الحافلات، في المصانع، في المراسم، وفي شقق العمال". تضافرت جهود الفنانين والكُتّاب أمثال الرسام ماليفيتش والسينمائي آيزنشتاين والمصور رودشينكو والأديبين عوسيب ماندلشتام وإسحاق بابل مؤلف (الخيالة الحمر)، وإزدهرت بين أيدي فارفارا ستيبانوفا وفلاديمير تاتلين وألكسندر فيشين وليوبوف بوبوفا وإيل ليسيتسكي ألبومات تذكارية لمجد الحركة العمالية والفلاحية، وصدرت مجلات فتحت صفحاتها للفن الحديث والطباعة بالأحمر والأسود، ونشرت صور تؤثر في النفوس بتركيبتها الديناميكية للمصور فيكتور بولا، الذي قضي في الكولاغ فيما بعد في عهد ستالين، كما نرى في الكتاب صور المتهمين في محاكمات موسكو، وجثة الشاعر مايكوفسكي المنتحر، وصورة (حزن) للمصور ديمتري بالتيرمانز التي إلتقطها في القرم لنساء يبحثن بين القتلى عن جثث أزواجهن الذين قتلهم النازيون إثناء تراجعهم، ومئات الأعمال الفنية الأخرى.

الكتاب:

Sous le signe de l'étoile rouge, de David King, Éditions Gallimard, 2009. 352 p.

عن جريدة "لومانتيه".

بوستر للفنان فلاديمير ليبيديف سنة 1922

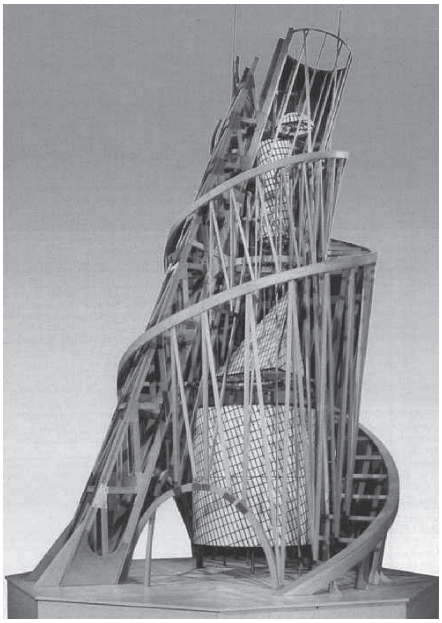

برج تاتلين وهو نصب صممه فلاديمير تاتلين للأممية الثالثة، من الفن البنائي الحداثوي

غلاف لمختارات من أشعار مايكوفسكي وقد زينه تصميم من تصاميمه

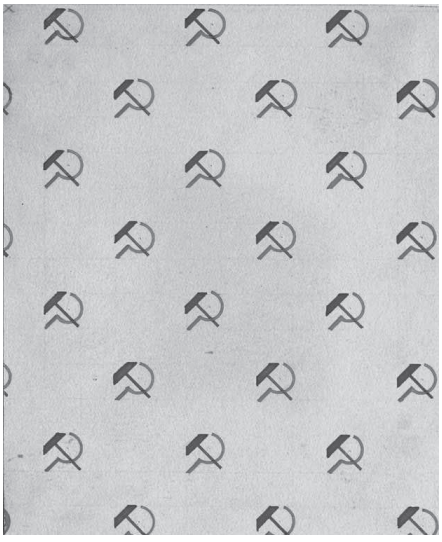

تصميم قماش للفنانتين بوبوفا وستيبانوفا

مونتاج صوري للفنان غوستاف كلوتسيس

(حزن) 1942 للمصور ديمتري بالتيرمانز

مايكوفسكي في معرض خاص بأعماله يتحدث معه الفنان تاراسوف في العام 1930

أوراق أوكرانية

ياسين طه حافظ *

مطرٌ من كستناء

نحن نعيش في ارض تسمى بين النهرين وفيما بين النهرين واقع غريب، ليس هو ما يتوقعه أحد من ارض بين نهرين.غالب الارض قفر ان لم يكن غشاء، ولا اقول غلالة، من الملح الابيض يغطي كثيراً من بقاعها ومنها القريبة من الشطآن واحياناً ارى الملح يتكوم حول نهايات النخيل، يريد الجذور !

وهذه المسألة، مسألة الملح وشراهته، مسألة قديمة في تاريخ هذه البلاد ما استطاعت تذللها، بل كانت تزيد منها العهود. حاولت السلالات البشرية أن تحيل الارض بساتين واستطاعت في بعضها ووجدنا ونجد بساتين فيها، "نخل ورمان وفاكهة افنان"... لكن هذا في بعض المساحات منها.

يقال انهم، زمن البابليين كانوا يزرعونها قمحاً واذ زادت ملوحتها صاروا يزرعونها شعيراً. لا قدرات لإخصابها فأبدلوا البذور، ما كانت جهودهم كافية لإصلاح الارض. مع ذلك فمساحات من النخيل ارتفعت قبابها الخضر في مدائنها وفي المساحات القريبة من حواضرها. حين بدأنا نقرأ الكتب صارت ترد كلمة "غابات" ونحن من غير أن نرى الغابات صرنا نكتب غابات النخيل. لكن غابات النخيل لا تشبه الغابات. فبين هذه ربما شجيرات فاكهة، لكن بين الكثير من بساتين النخيل أراض فارغة قد نجد عشباً بينها أو لا شيء.

الغابات وقد توغلت هذه المرة فيها، عالم مزدحم، مكتظ بأنواع من الشجر، بعماليق شجر عالٍ متشعب متنوع حجوم الورق، وغصونه طرية تتثنى أو صلبة يوثق بها. فأنا الآن بين أشجار جبارة وأشجار أصغر وأخرى أصغر من الصغرى فالمتوغل أو الجالس من تعب، يكون تحت سماوات من الشجر طبقة فوق أخرى عشرات أنواع من النباتات الخضر الطرية بينها والأرض مغطاة لا ندري ما هو لون التراب وأين هو.. صنوف عشبية طرية واسعة الورق أو نحيلة ممتدة إلى ما يجاورها أو ملتفة على سواها، عالم آخر على الأرض فأنت تخطو على أنواع من الخضرة تخمد تحت خطوك أو تطلق أصواتاً فتسمع من تخالط أصواتها وائتلافها، موسيقى مثل الخفقات الأخيرة لمقطوعات موسيقية تنتهي..

وأنت في الغابة تمشي لا ترى، لا تواجه سواقي والنهر بعيد عنها ولا حاجة لصناعته ري. هي الأرض الخصب

وهو المطر الرحوم الصعب وهي الريح الرطيبة ببرودتها. الناعمة. الثلاثة معاً تتكفل بالشجر فهو اخضر ريان وإذا شئت أن تعتصر من بعض نباتاتها الأرضية ماء، فستستطيع! هذه هي المرة الأولى التي أتوغل فيها في الغابات الأوكرانية. ولأنها بلا حيوان مفترس ولا طير جارح ولا خوف من جريمة. .يمكن أن أتوغل أكثر وان أبقى مدة أطول.

المفاجأة، ان في بقعة مختارة من الغابة رأيت ملاعب أطفال: يأتون بهم الى هنا ليعتادوا على اجواء بلادهم، على بردها، ومتعرجات طرق الغابات وعلى التسلق والانحدار كما التنافس على الخلاص من اشتباكات الغصون.

أنا لم اعتدِ في طفولتي على هذه، واعتدت على ان أطرد إذا اقتربت من شجرة مثمرة وان ابتعد كثيراً وألا أتجرأ وعلى أن أكون عاقلاً، مكتوف اليدين حين الجلوس بين الناس وعلى ان الكلام للكبار فقط...!

في البلاد الأوكرانية قوتان او مجدان، هي الدنيبر العظيم يكاد يكون بحراً سريع الجريان، لا كما اعتدنا هدوء وبطء جريان أنهارنا. تساءلت: كيف تعيش الأسماك في نهر يجري بهذه القوة؟ لمحت صياد سمك ملتفاً بمعطفه القديم ومعزولاً وحده كأنه قطعة من التاريخ. دنوت منه. عذراً، اقطع عزلتك، كيف تجد سمكاً في ماء قوي الجريان كهذا؟ قال: كل يجد حياة، أنت وأنا والسمك. اما السمك، فيجد ملاذات قريبة من الضفاف يحتمي بها ويتحرك في المناطق القريبة وها أنا اصطدت واحدة. نحن أيضا نعتدي على الحريات...

والقوة الثانية بعد الدنيبر العظيم، هي الأراضي الأوكرانية، هائلة الخصب. فما أن يقطعوا شجرة لفتح طريق او لنصب كشك أو مبنى، حتى ترى عشرة نباتات طلعت حول المكان من ذلك النوع من الأشجار، البذور كامنة تنتظر! والسهول الأوكرانية مساحات مقتطعة غالباً من الغابات، يمكن أن تغذي كل أوربا قمحاً!

مازلت جالساً في الغابة وتتوالى علي التساؤلات والأفكار. لم أفكر بالغيم وقد بدأت تلوح عليه عتمة. لم أفكر بالريح بدأت تقوى وتبرد، لم أفكر بمغادرة هذا العالم الأبدي الذي لم ارَ مثل سلامه ومحبته. غائباً كنت بين ارتفاعات أشجاره واشتباكاتها المسالمة. ولدي الذي أمضى عشر سنين في هذه البلاد كان بعيداً عني، فهو يعلم انني لا احتاج له في حالات مثل هذه، ولكني رأيته يقترب، هو يشير لي أن نغادر. أشرت له بالتريث قليلاً، فأطاع غير راض.

أتذكر في طفولتنا الفقيرة، حين تمطر برَداً أو حالوباً نتسارع له لكي نلتقط حلوى أو لآليء سرعان ما تذوب ولا تترك بأيدينا أو بأفواهنا شيئاً. هي كوعود بلادنا لأبنائها..

لماذا تذكرت ذلك؟ لان الريح اشتدت كما اهاجها فعل مجهول. ريح، عاصفة وفوجئت لا بحالوب ولا بمطر من ماء ولكن انهال علينا مطرٌ من كستناء !

محطات القرى

القطار مسرعاً يلهث عبر الغابات، ينتظره عالمٌ في مكان ويريد الوصول إليه، والغابات كأن تترقب هذا المخلوق الحديدي الصاخب يحمل بشراً وحقائب

وهموم أرواح ومواعيد.. ما لا يرى في العربات أكثر مما يرُى. وما لا يرُى في العالم والناس أكثر مما نراه، من يملك ضوءا سماوياً قد ينتبه ويظفر بشيء ضاع..

الخريف الشاسع، الحكيم والذي يؤدي ما كلفته به الأرض، يأتي إلى الأشجار كلها، يمر عليها بردُه بلطف، لا يشدّد على من تقاوم من الأشجار، بهدوء يكمل الفعل. السرو والبتولا وأشجار الكستناء والتوبل واقفة صفوفا ومحتشدة تترقب مروره. هذه واحدة استسلمت قبل غيرها فاسّاقطت أوراقها بعد أن افتقدت الخضرة واكتست بثياب السنة الماضية، ثم يبست بها، الأوراق ترقد الآن على أرض الغابة عائدة للحضن الأبدي.

بين جموع الأشجار من أبناء وبنات الغابة، شجيرة صبية، يبدو أنها استثارت شهوة الخريف فاحتاطها بذراعيه، بفحولة مشفقة حازمة، لم يصبر حتى تستسلم، إلتفّ عليها، وإذ رأت حجمه، وكل الأشجار حولها استسلمت، خمدت مصفرّة بين ذراعيه، فهي بقعة من وهج ذهبي بارد في مكان.

توقف القطار قليلاً، ربما لأشهد قصة الحب الغريبة بين الصبية والخريف الشيخ.

لو عشت زمناً هنا في هذه العوالم الملاّى بالأزمنة والناس والأسرار، وصادقت الأشجار والأدغال الآمنة بينها، لخرجت بكتاب تتذوق من سطوره روح الأرض ورحيق الحياة والجمال الذي لم يره أحد في الزمان ..

أمثال الشجر الناس في محطات القرى. محطات القرى مثيرة للشعر والأسى الإنساني وللحسرة على شيء.. الإنسان فيها واضح حميم الإنسانية يدعوك لصداقته أو للتعاطف معه.. ما في محطات المدن غير ما في محطات القرى. هذه بقاع جمال حزين، مكشوفة في البرد تحت سماء غائمة، غيوم تتريث، تتردد قبل أن تمطر. والرياح في هذه الأيام الخريفية تحمل مع بردها لمسات لذيذة على الوجوه ولكنها باردة حين يكون الإنسان في عراء واسع مديد ..

هنالك رجل يقتعد مصطبة، ينتظر وحده كأنه بلا أمل، وتلك نزلت من القطار تحمل حقيبتها القديمة، غابت وحدها لبيت لا ندري أين بين الأشجار، ستدخل كوخاً مجهولاً أو بيتا من بيوت القرى. ثالثة ما تزال في المحطة تتفقد الوجوه في نوافذ القطار. خلف المحطة عبر شيخ قابع بكل عذابات السنين التي مضت، بائساً أو غير مبال على ألم. تلفت مرتين ثم واصل الطريق بخطى هي ليست تلك التي كانت له وهو ينزل من القطار شاباً سكران بقبلة في العربة قبل أن يغادرها، ربما هذه الأفكار كانت تتوارد في رأسه وهو يغيب.. أكواخ القرى الحجرية في الغابات شبيهة بالخزائن القديمة المفقودة. فمن هذه البيوت البعيدة، من هذه الأكواخ الحجرية، طلع الشباب المتوقّد الذي صنع من السهول الأوكرانية مدناً وأعطى مؤلفات وسجل أمجاداً حربية. أبناء هذه القرى، أذرعهم شقت الطرق وأشادت الجسور فمنهم اليوم ناس المدن، عمالاً، باعة وتجاراً وناس دولة وصناع طائرات!

وما تزال هي الطريق وهي المواسم وهو ذاك الخريف كل عام وتلك القرى فيها الإنسان قليلُ ورقات النقود يتجه لمراكز المدن لبيع ما استخلَص من عسل أو ثمار

اقتطفها من شجراته أو ليجد عملاً. هو في القرية تدور عليه الأخبار والصور، صور وأخبار عن عوالم أخرى غير عوالم القرى وسط الغابات.
ذلك أمامي الآن واحد من ناس القرى بثياب السنة الماضية ورغبات السنة الماضية، وبأمل كضوء ضئيل بعيد يلوح ويختفي، يقطع الطريق عجلاً إلى القطار، القطار الحديدي القديمَ الذي كان يحمل جنوداً وأسلحة، هو يذكرني بأوربا القديمة حول أوكرانيا :
ما تزال المقاطعات في العالم، لم تمح كلها، ما تزال قوانين البشر الأولى. الحكمة وحدها لا تستطيع التغيير وأوكرانيا الجميلة سهولاً والجميلة بشراً والجميلة الطيبة إنسانيةً وحياة، تحتمل كل أخطاء أوربا حواليها، كل الجنون القديم والغزاة والسطو على الفحم والملح والسفن والعربات. الناس هنا كلهم ينتظرون سكينة العالم، حكمة الحضارة. أوكرانيا من زمن حذرة تسهر، بالكاد تحمي نفسها، هي الجميلة غزيرة المدّخرات، كل أوروبا النهمة تستقصي السهول الخصيبة الشاسعة وتحصي ما ستدره عليها، كيف يتركون السهول الأوكرانية وهي بهذا الجمال وهذا الغنى؟
أوكرانيا مهمومة بحماية نفسها، فكيف تبني جسوراً وتشق طرقاً جديدة وتغير ثيابها القديمة؟
حسنا أرى مدناً تزداد أضواؤها وترتفع طوابقها اللألاءة المتوهجة من بُعد أرى أوكرانيا الخصيبة أم النِعَم والتي تفيض ذهباً ووجوها جميلة. حسنا أرى القطار يركض جديداً، بين المدن، لكني ما أزال أرى الفقراء، بحزن واضح ينتظرون ليصعدوا أو ليغادروا محطات القرى .. لماذا رفت روحي لهم، لماذا شعرت عميقاً بالانتماء؟ لعله الحسّ المشترك للذين بحزن واضح ينتظرون.

الشغف بالعيش والشغف بالمعنى

وأنا أجهد في نقل قدمي على الطريق الصاعد، تعترضني إصابة ساقي وافتقاد سرعة الخطوات ورشاقتها، شعرت بأني خسرت بعضاً من جسدي. بعضاً من كيان يحمل إنسانيتي وان الكثير بما يعنيني تضرر أيضا بهذا النقص، حتى الرغبات. وكما في مشهد ريفي، من تلك الأرياف المشرقة التي رسمها تورجنيف، أتوقف الآن وأهيء نفسي كلها لاستقبال هذا الريف، فلا ذاكرة مهمومة بعد ولا هرم جسد وغثيث كلام. هو بدء تلاش ومزيد من الغياب في هذا العالم الأخضر المذهب والطريق المغتسل تواً.
كم عظيم أن أتخلص من كذب الكلام والمظهر وما أثقلني من زيف العالم ولا حقيقته. في هذا الطريق الساكن برضا، والذي تناءى بين الأشجار فلا أدري نهايته.
رأيتني قد وجدت ما يسرني ويأخذني للحياة. هو هجر الماضي وابتداء عشق المجهول الذي يجتذبني إليه. جمال مطمئن يعلن بُشراه فأحس بميل لاقترب أكثر منه. استرحت على مصطبة من خشب احمر مسود ولا أدري لماذا أطبقت عينيَّ، ربما لكي لا أفقد ما رأيت. ها هو الترام، أو حافلة الشارع الكهربائية، الطويلة الصفراء، قادمة، توقفت ونزل ركابها القليلون الذي تبقوا من الرحلة، فهي نهاية الخط وخاتمة الطريق.

صعدت يصحبني ولدي الذي، خلاف والده، يعرف كل الطرق.. السائقة نزلت تستريح في الدقائق العشر المخصصة قبل البدء من جديد. انتهت الدقائق العشر وراح الترام يخترق الشوارع والفراغات بصوته الخشن المتصاعد المتخافت بقانون ثابت مثل ايقاعات القصائد القديمة.

أنا تركت اهتماماتي لأنشغل بهذه الشخصية، الفارعة الصلبة الجميلة القوية والتي تتعامل والحياة مثل سيدة تعرف كل حقائقها وبخاصة خداع الآمال الطارئة وما أورثت الكتب والأقاويل. جمال صعب، شخصية صُنِعتْ بإحكام. حين كان الترام واقفاً في محطته الأخيرة نزلت لتستريح وتولع سيجارتها حتى تواصل المسير، حالَ من أدرك شوطاً وسيبدأ شوطاً يتكرر. أنا ما فاجأني جمالها الصعب القوي المتحكم بأهوائه وبمن حوله حسب، ولكني رأيتها شخصية من تلك الشخصيات التي تصنع البطولات في الملاحم. أشرت لولدي ألّا ننزل حتى آخر الخط لأرى المدينة وضواحيها، لأراها ثانية خارج العمل بطولها وحياتها.. وبقينا حتى المحطة الأخيرة بانتظار أن تنزل ثانية لتستريح ولتولع سجارتها وأراها كاملة مثلما هي في مركز الحياة، مثلما هي في المدينة والعمل والعيش الكفاف. يصعب على غيرها الاحتفاظ بالصفاء وبالقوة واللامبالاة بما حولها وأن تعيش بشروط عيش تعرفها وتتمكن منها.

وصلنا المحطة الأخيرة بعد أن مررنا ببيوت وأكواخ الضواحي الحجرية. توقف الترام في المحطة الأخيرة، وكما كنت أنتظر، نزلت قوية مثل بطلة أنهت معركة وعادت بالغة الشكيمة لمكان استراحتها. جلست على مصطبة تحت شجرة وأولعت سيجارتها وأنا واقف أنظر لها بإعجاب، أعجاباً بالمتمكن، بالقوة الواضحة واللامبالاة بما لا تحب..

تقتُ لمكالمتها، هل أتقرب منها؟ لكنها انتبهت لبقائنا حتى آخر محطة وانتظارنا لنعود معها في الترام على الخط الذي جئنا فيه.. وهي بالتأكيد انتبهت لاهتمامي المهذب من بُعْد . لكن لماذا أسألها؟ ماذا أريد من ذلك؟ القيام بأمر؟ للشعور بالسعادة والرضا؟ لإبداء أهميتنا؟ لتغطية عوزٍ ما؟ لم يتحدد دافع الكلام.

هي الآن وقد استراحت، استعادت جمالها الأصيل والإشراق الغائب وعادت سيدة بلاط بأبهة وجلال نال منهما ظرف صعب:

ـ "سيدتي، أردت أن أحييك، مجيدة أنت في العمل، في الشخصية المكتملة القوة، شعرت بحاجة لأعبر عن احترامي.."

أجابت بلطف أنيق: "شكراً، أسعدني كلامك.." من جوابها شعرت أن وراء إطرائي لها إطراءً خفياً لنفسي، لقدرتي على رؤية الجمال في الظرف الصعب والانتباه إلى المختلف :

"واصلنا وجودنا في الترام من أجل فرصة أحييك فيها، تقبلي إعجابنا واحترامنا وسنعود معك" .

قالت: "على صعوبة تقبل هذه الحقيقة، فهي حقيقة: لا ثراء إن لم تمتلك وقتاً، لا جمال ولا أهمية إن لم تجد من يحييك بفكره وروحه. أنا سعيدة بما سمعته، سعيدة بأن ثمة في العالم من يتابعني ليوصل لي احترامه.."

هذه المرأة العظيمة، سائقة الترام في "دنتسك"، يبدو الشعْرُ مكيناً فيها والعظمة راسخة في الحَركة والنظرات. هي بمستوى العالم وتحمل في داخلها التفوق عليه، كم سيكون العالم محترماً لو حكَمَهُ، لو تولى إدارته، ناسٌ لهم قدرة العمل وإنسانية الفنون! هذه السيدة الجميلة، الصعبة والمتماسكة متمكنة من العالم مثل شغوف بالعيش. هي تهب قوة وتجعل من يراها شغوفاً بالمعنى.

لا أعرفها، لا تعرفني، لكنها تعيش معي منذ ثلاث سنين مثل بطلة في كتاب، من أين امتلكت هذا الحضور وكيف أنا امتلكت هذه الرؤية المخلصة التي تجمع بين الإعجاب ونوع خاص من الاهتمام؟ هل كنت في عوز لأنموذج إنساني أعجب به أم كنت أبحث عن إنسان تصافى والكون العملي المزدحم بالأخبار والعربات؟ ربما أنا وجدت روحاً باسلة غير مهتمة بهناتِ كونٍ عَرَفَتْه. عمل صعب لكنها قوية تعيشَ، فلا اكتئاب ولا استسلام. هي، وأنا أنظر لها، أزاحت سلبيتي وأحضرت الإيجاب محترماً وله قدرة إقناع. القوة والانشغال باللحظة يصنعان عازلاً عما لا نريد. السوء او الإعجاب، بالنسبة لها، مما تراه وتنسى. هي فقط ماضية في التجربة محتفظة بمعنى لا يمكن للظرف، أو العمل، اختطافه!

حتى ونحن نغادره!

أصغي للريح تلقي علينا في هبوبها همهمات قصائد بلغات مجهولة، هي تنبهنا ثم تتركنا نصغي لما يأتي. اللغة موج يتوالى وأنت آمل تنتظر، لا يمكنك هنا أن تدعي أنك تؤكد حقائق أو تصنع مغريات. أنت ملك الكون الخريفي يتحكم فيه تآلف دفء الشمس وبرد الريح وورق الغابات. استمع لموسيقى الأزمنة ولا يقطع التشبثات برق عابر. أشعر أن بعضاً مني يفارقني بفرح، يستجيب لنداء وإشارة وصول.

لا أريد أن أنفصل عن المشهد وأنا أتابع الورق المهتز، الذي سيتساقط أصفر شاحباً من لمسات لذة أو ان عنتاً او شراسة أسقطته. لا أقول أزدادُ وحدةً ولا أقول وجدتُ ألفة، ولكنني في مجهول مسالم يقول ثمة ما يجب أن تراه، أن تحس به، أن تعرف الحياة حرةً في الغابات.

شعرت بأنه عالمي وأنا مغترب عنه، أهمُّ، أريد الآن أن أعود إليه وأكون ثانية بعضاً منه. لكن الوقت أنتهى وشعرت أن قوة من الخارج تسبحني بقوة، بنوع من الغضب، أن أتوقف، أن أعود إلى الشوارع والناس والعربات والمخازن تتلامع شديدة الأضواء ..

في هذه القرية، كما تسمى، والتي تبعد عن اقرب مدينة ساعتين كاملتين في باص تجري في شارع مثل تلك التي تصل المدن بالقرى، أمضينا ثلاث ليالي، في بيت، هُيِّء لنا. هو كوخ حجري بغرفتين حوله حديقة واسعة، أجد شجرات عنب وأحراشاً وأشجاراً أجهل أسماءها ولم أسال عنها. أنا منذ سنوات لم أنم في بستان، فقد غادرت البساتين إلى دخان المدينة وكذب السياسة والناس، وأمضيت بعيداً عن الأكواخ هذه السنوات. اليوم، أعيش عالم الشجر والدنيا التي تتباعد فيها البيوت والأصوات ونادراً ما تفاجئك فيها الغرائب.

لكن أين قرانا من هذه القرية، التي

هي بلدة صغيرة نظيفة؟ تبدو مترفة وحقيقة أمرها أن ناسها يعيشون الكفاف لكن لا تبدو عليهم حاجة ولا شحوب وإن بدت الأمنيات واضحةً بالأفضل.
في هذه القرية معبدة الفروع، أو الأزقة، مكتبة عامة بطابقين ومكتبة أطفال وناد ومركز، سنتر، فيه مخازن بضاعتها أرخص من كييف العاصمة وخاركيف الأقرب إليها. وفي بعض دكاكينها حليب وجبن وعسل وثمار من نتاج البيوت وذلك المبنى الأبيض الواضح من بعيد، مستشفى المدينة الكبير. هذه كلها مبان ليست جديدة، هي مما تركته الاشتراكية قبل أن تغادر ..
غير هذه مسألة، فثمة مجتمع إسكان متعدد المباني لم يكتمل حتى الآن، هو ما يزال بلا أبواب أو نوافذ وما يزال يحتاج إلى تأثيث وتأسيسات.
هو من آخر أيام الاشتراكية وصار التحول إلى "الحرية" فلم يكتمل حتى اليوم. الدولة الأوكرانية مقننة الاقتصاد وجاءت الحرب والتكاليف. أرجأت أكماله. لها أولويات وتعمل على وفق جدول، لا أمزجة و طلبات. الحاجة له ليست ماسة هذه الأيام. ما يلفت النظر أن أحداً لم يقترب له، لم يتجاوز عليه، لم يحاول أحد لا سكن له، أن يحط رحاله في غرف منه، ظل كما هو تمر به الناس ولا أحد يدنو منه، الاشتراكية أسست قيماً وقوانين والأوكران ناس خلقوا على أدب ونظام واحترام مؤسسات الدولة. الحاجة لا تبيح الجريمة ولا التجاوز. النظام صارمٌ شديد ضد الخطأ فاعتاد الناس على الصواب.
"هذا مكان حلو لنجلس فيه، لنشرب قهوة، ستراه جميلاً.." قال ولدي .
مقاعد نظيفة لا تتباهى كمقاعد المطاعم الفخمة، لكنها شبه مصاطب من خشب نظيف أبيض إلى ذهبي يلمع، نوافذها على الأشجار من جميع الجهات وصمت لا ألذ منه لنشرب أو نقرأ رواية، أو للقاء حميم ..
طالت جلستنا وأعدنا الطلب ولا رغبة لي بمغادرة المكان. لكننا نهضنا لنغادر وانعطفت إلى غرفة إلى يميني، قرب الباب، لأحيي صاحبها في غرفته على لطفه وجمال مكانه. رجل طيب، ممتلئ لا وجهه ولكن كله بالبشاشة، التقطنا للمقهى صورة ونحن نغادر، متمنيا أن يكون لنا مكان مثل هذا نجد فيه وقتا للتأمل أو للكتابة أو لانتظار جميل. ولكننا نبقى نتمنى حتى ما هو ممكن وبسيط.
حسناً، الطريق ما يزال يتلوى بين الأشجار ليخرج بي إلى العالم، وقبل أن نقترب من الدنيا وعالمها الذي ألفناه، لاح بيتٌ صغيرٌ، حجري أصفر قليلا، مرتفع عن الأرض قليلاً وثمة سلم بثلاث أو أربع سلمات تصله بالأرض، عليه، في الشمس الخريفية، رأيت امرأة عجوزاً سيدة زمان مضى، أنحنى شعرها الأبيض الكثيف على الورق، تقرأ صحيفةً باهتمام، حتى أنها لم تنتبه لاقترابنا.
ما لهذه العجوز في البلدة الريفية جالسة تقلب الصحيفة وتقرأ باهتمام من يتفحص أمرا أو يتفقد ممتلكات؟ وجهها الآن يكاد يمس الورق، ضعفُ بصرٍ بالتأكيد ونهايةُ عمرٍ لا ندري كيف مضىً وما مرت به عن أحداث وكم فرصُ الفرح او الانتصار فيه.
لكنه بيت لا يبدو فقيراً، بسيط ولكن بحالة يسر لا عسر. في بداية، أو نهاية،

هذه القرية هو الأقرب للضوء المباشر من البيوت الغائبة بين الأشجار، هل أكون جريئاً أو متطفلاً لأعرف ما تقرأ؟ اقترابنا وتريثنا جوار البيت طال قليلاً، انتبهتْ لتطلّعنا وغرابة أشكالنا وربما لكثافة ما نرتدي، فهي ما تزال دنيا طيبة ولم يشتد البرد بالنسبة لهم وأشتد علينا، صار ضرورياً أن نحييها من بعد، ردت التحية وشجعنا الرد على الاقتراب منها:

"سلاما" / "سلاما" أنتم غرباء لستم من القرية" / "نعم، نحن ضيوفها."/ "مرحباً.."

قلت : "سيدتي أنا يهمني أن أعرف طبيعة الصحيفة التي تقرئين، تسلية أم سياسة وشأن عام؟"

– "تسلية؟ لا. هي صحيفة جادة عن المجتمع والعالم".

– "عن العالم؟ ".

– "نعم، لماذا تستنكر؟ هو بلدي وهو عالمي أمضيت فيه عمري وأريد أن أعرف ما يجري فيه، أن أطمئن عليه قبل أن أغادره!".

– ما أعظمك سيدتي!

هذا درس أخلاقي لنا، درس في محبة العالم حتى ونحن نغادره!

---

* شاعر عراقي معروف.

مطبوعات وصلتنا :

• الجمعية العراقية لدعم الثقافة– مؤتمر المثقفين العراقيين 12 – 14 نيسان 2005 – مطبعة نصوص للتصميم والطباعة، بغداد 2016.
• د.لطفي حاتم، المنافسة الرأسمالية وسمات بنيتها الايديولوجية، الطبعة الاولى، دار الحكمة للطباعة والنشر، القاهرة، 2017.
• الباحث الايراني البروفسور سعيد رهنما – هل شارفت الرأسمالية على نهايتها، ترجمة عادل حبه، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.
• ثامر الصفار – الماركسية والايكولوجيا – دار الرواد المزدهرة، 2016.
• جاسم محمد المطير – حكايات المتوهجين الى الابد،دار الرواد المزدهرة، بغداد 2016.
• مزاحم الجزائري– خصائص الاسلوب في شعر حسين قسام النجفي، دار العربي للطباعة، بابل 2015.
• مجلة التراث الشعبي..الاعداد: الثاني والثالث والرابع – لعام 2016 – وزارة الثقافة، بغداد.
• مجلة الثقافة الاجنبية..الاعداد: الثاني والثالث، لعام 2016 – وزارة الثقافة، بغداد.
• مجلة المورد..الاعداد: الاول والثاني والثالث والرابع، لعام 2016 – وزارة الثقافة – بغداد.
• مجلة الأقلام. ..الاعداد: الاول والثاني والثالث، لعام 2016 – وزارة الثقافة – بغداد.